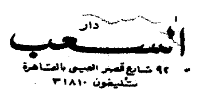
الأنبياء
فى القرآن الكريم

محمود الشرقاوى

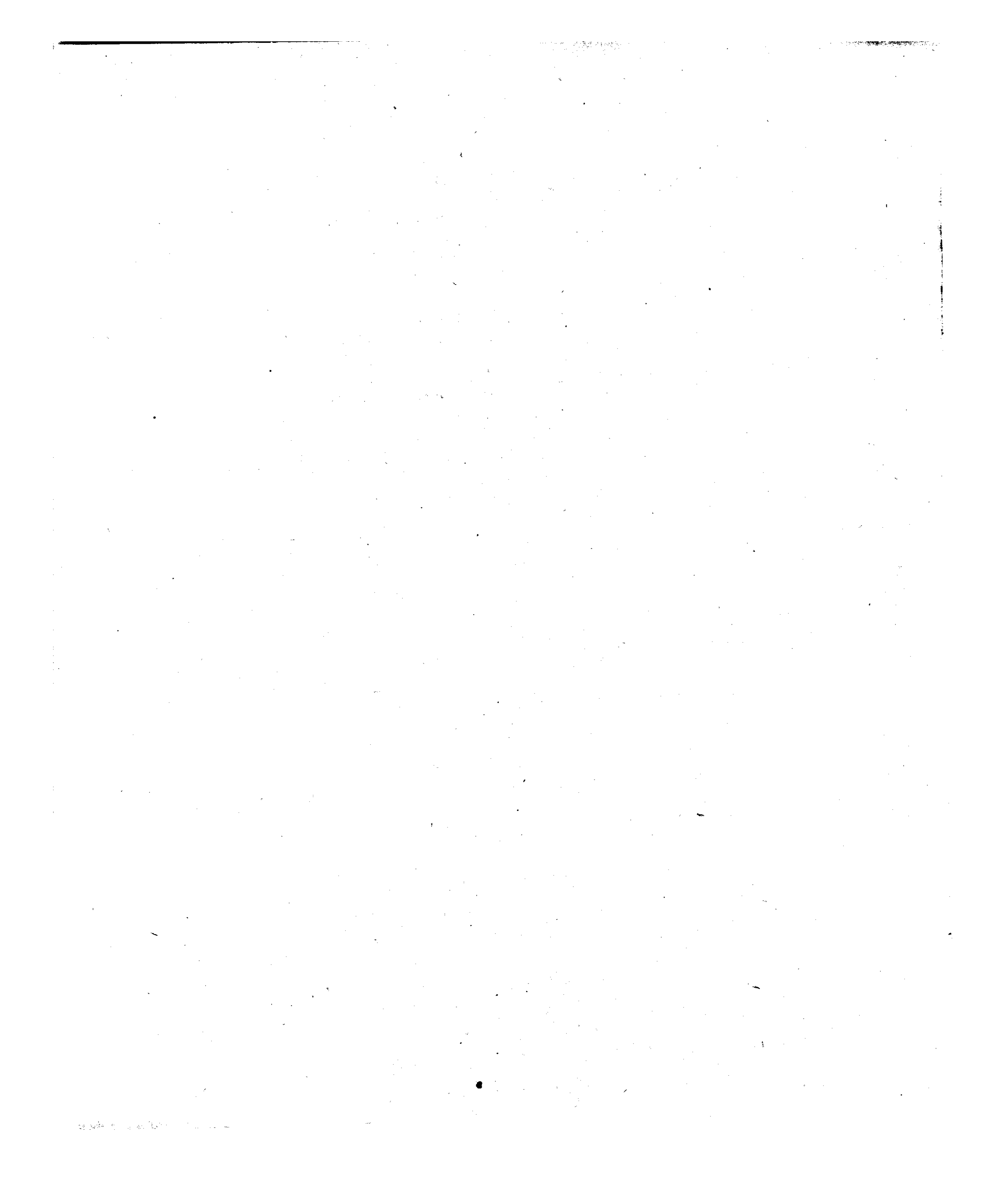


رقم الايداع ٢٩٧٩ / ١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ، وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

« صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ »



خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ؛ والصلاة والسلام على أنبياء الله أجمعين ، مصابيح الهدى ، دعاة الحق ... « وبعد » :

فقد خلق الله العلى القدير الإنسان وجعله مستعداً للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهراً لرحمة الله بعبادة ، وليخلق فيه روح المكافحة والنضال ... خلقه مستعداً أيضاً للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له أن عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة والحياة ذات الجلال والبهاء ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء والعذاب الأليم .

ولذلك كان الإنسان فى حاجة إلى الوحى الإلهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل إليه الرسل ، وأنزل الكتاب تذكيراً بما يسعده ، وتنفيراً مما يشقيه .

وما من بقعة عمرت على ظهر الأرض إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العلى العظيم .

قال تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »(١) .

لقد أرسل الله الرسل فى كل الأمم ، فكانت رحمته بهم عامة لا محصورة فى شعب معين احتكرها لنفسه كما كان يزعم اليهود أنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة مقصورة فى نظرهم عليهم .

---

(١) سورة فاطر : ٢٢ .

قال تعالى :

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »(١).

وهؤلاء المرسلون صلوات الله عليهم أجمعين ، كانوا يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد القهار ، وتنظيم المجتمع على دعائم من التعاون والتراحم والبر والعدل ... لتتجه الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان نحو المثل العليا فى دينها ودنياها .

إن القرآن الكريم — وهو :

« كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٢)

قد بين أخبار الأمم السالفة وحكامها ، من هدى منهم بهداية السماء ، وآمن برسالات الحق والخير والعدل والسلام ، فمكن الله له فى الأرض ، ومن كذب وتولى ، فغضب الله عليه ، وساء حاله ، وخربت دياره وهلك ، وصار عبرة لمن جاء بعده ...

وهذا الكتاب يشرح معنى النبوة ، ويبين حاجة الناس إلى الوحى الإلهى ، ليهديهم سبل الرشاد ، وينير لهم طريق النجاح فى الحياة الدنيا والآخرة .

ويتحدث عن معنى الوحى ، ومراتبه ، ويعرض آراء العلماء من المسلمين وغيرهم فى الوحى . ويتكلم الكتاب عن وحدة الرسالات الإلهية ؛ فقد تعاقبت الرسالات على الإنسان أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وكلها ذات هدف واحد ، وهو توجيه الإنسان إلى الكمال والرقى ، وكانت أصول الرسالات الإلهية وعقائدها الأولى واحدة ، لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى .

---

(١) سورة النحل : ٣٦ .

(٢) سورة المائدة : ١٥ — ١٦ .

« شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى . أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[1] »

وكان الرسل بذلك — كما صورهم محمد رسول الهدى فى حديث له — بناة بيت واحد ، يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم ، وأخذ الله عليهم فى ذلك العهد والميثاق :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »[2] .

ويناقش الكتاب رأى علماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات ، ويدحض هذا الرأى بالأدلة العلمية .

ويلم الكتاب بالقصص النبوى فى القرآن المجيد ، ويعرض أغراض القصة القرآنية وأسلوب اعجازها ، والأهداف الدينية والمرامى الخلقية من القصة فى القرآن .

ويعرض الكتاب قصص الأنبياء كما وردت فى القرآن الكريم .

وقد قص الله تعالى خبر الرسل الذين أرسلهم لهداية الناس لفوائد عدة هى المشار إليها فى مثل قوله تعالى :

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ » [3] .

وقوله :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين »[4] .

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .
(٢) سورة آل عمران : ٨١ .
(٣) سورة يوسف : ١١١ .
(٤) سورة هود : ١٢٠ .

ولقد تحمل الرسل الكرام فى دعوتهم الناس إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والتراحم والتواد والتعاون ، الأذى ، والاضطهاد ، فصبروا ، ولم يهنوا ، ولم يضعفوا ، بل راحوا يدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإيمان برسالات السماء ، حتى أثمرت دعوتهم ، وعرف البشر طريق الهداية والنور :

إن هذا الجانب من قصص الأنبياء جدير بإمعان الفكر فيه ، لما فيه من نهاية المكذبين لآيات الله البينات بعد أن تبين لهم على يد رسله الكرام الرشد من الغى ، والنور من الظلام ؛ وفيه أيضاً العاقبة الطيبة لمن آمن بالله ورسله وبدعواتهم ، وكافح من أجل إعلاء كلمة الله فى الأرض ... والداعون إلى الله أينما كانوا محفوظون كما وعد الله — برعايته وعنايته ، فليعتصموا بحبله ، وليثقوا بنصره « والله غالب على أمره » بهذا مضت سنة الله فى الأولين ، وهى سنة محكمة ، باقية إلى يوم الدين :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ »[١] .

وإنى أرجو أن أكون قد وفقت إلى ما قصدت إليه ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

محمود على الشرقاوى

---

(١) سورة الصافات : ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

الفصل الأول

النبوة

(١)

النبي لغة قيل المنبئ المأخوذ من النبأ أى الخبر المفيد لما له شأن مهم . ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبئ عن الله ومنبأ منه . والنبي بالتشديد أكثر استعمالا ، أبدلت الهمزة فيه ياء ، أو هو من النبوة وهى الرفعة والشرف

ويفرق بعض العلماء بين النبي والرسول ، فيقولون إن النبي هو من أوحى إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر ، والرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه . وهذا التعريف لا يستقيم مع قوله تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[١] .

لأن قوله تعالى أرسلنا يتعلق به و « لانبى » وكأنه قال : وما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نبى ، وحيث تعلق به الإرسال صار مأموراً بالتبليغ . على أن العقل لا يستسيغ أن يوحى الله العلى القدير إلى نبى بشرع ثم لا يأمره بتبليغه ، لأن الشرع أمانة وعلم وأداء واجب وكتمان العلم نقص ورذيلة .

ويرى بعض العلماء أن الرسول هو من أوحى إليه بشرع وأنزل عليه كتاب كابراهيم وداود وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ؛ والنبي

---

(١) سورة الحج : ٥١ .

الذى ليس برسول هو من أوحى إليه بشرع ولم ينزل عليه كتاب كاسماعيل وشعيب ويونس ولوط وزكريا وغيرهم من الأنبياء ، وهذا التعريف لايستقيم أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى قد وصف بعض الأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب بالرسالة فقال عن إسماعيل عليه السلام :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا »[١] .

وقال عن يونس عليه السلام :

« وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ويرى فريق ثالث من العلماء أن الرسول من الأنبياء هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه . أما النبى الذى ليس برسول فهو من بعث لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

ومهما يكن الاختلاف فى تعريف الرسول والنبى فان المتفق عليه بين العلماء أن كل رسول نبى .

(٢)

جاء فى تفسير « نبى . أنبياء . نبوة » فى قاموس الكتاب المقدس[٢] :

« النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمى هارون نبياً لأنه كان المخبر المتكلم عن موسى نظراً لفصاحته (خروج ٧ : ١) أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية . وينبئون بمجئ المسيح ، ولما قلت رغبة الكهنة قل اهتمامهم بالتعليم والعلم .. فى أيام صموئيل أقام مدرسة فى الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بنى

---

(١) سورة مريم : ٥٤ .

(٢) الدكتور جورج يوسف : قاموس الكتاب المقدس .

الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن إسمه باسم موسى وهرون فى مواضع كثيرة من الكتاب ، وتأسست أيضاً مدارس أخرى للأنبياء فى بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أباً أو سيداً ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب ، وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب ، أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت ساذجة للغاية . وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأتقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا فى تلك المدارس لم يعطوا قوة على الأنباء بما سيأتى ، إنما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتاً دون آخر حسب مشيئته ، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا ، فانه كان راعياً وجانى جميز [(١)] .

أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحياناً كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن فى رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الآشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذى القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس بيوم الخميسين بيوم الحشر ، ومن هذا القبيل اقتراب خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة ، وقد أرسل الله الأنبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الأخص ليخبروا بالمسيح الآتى لتخليص العالم ، وكانوا القوة العظيمة الفعالة فى تعليم الشعب وتنبيهه وإرشاده إلى سبيل الحق ، وكان لهم دخل عظيم فى الأمور السياسية . .

ويؤخذ من هذا التفسير ما يلى :

---

(١) أي كان له حرفتان هما رعى المواشي وقطف ثمر الجميز .

١ — أن أكثر أنبياء بنى إسرائيل كانوا يتخرجون فى مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر ، وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين فى كل ما يؤثر فى الأنفس ويحرك الشعور والوجدان .

جاء فى كتاب صموئيل الأول :

« ..... إنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليهم روح الرب فيتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » .

فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم مواردها فى المدارس أو صناعة وراثية يتلقاها الأنبياء من الآباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى .

« إذ قال بنو الأنبياء لاليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب إلى الأردن » .

٢ — أن كثيراً من هؤلاء الأنبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الأتقياء المحبين لرجال الدين ، كما هو المعهود من دراويش المتصوفة ، ومن المعلوم أن هؤلاء المحبين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون ، ويسلمون لهم كل ما يدعون .

٣ — أشهر أنواع نبوتهم الأحلام والرؤي المنامية والتخيلات المبهمة ، وكلها تقع لغيرهم . وبعد ارتقائهم إلى الإيمان بالنبوة الإلهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهواية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحاناً لصدق النبى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ؛ ولم يرتفع بأكبر أنبيائهم ورسلهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال فى التنجيم .

ففى أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها « خذ معك واحداً من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأتن .. فقال شاول للغلام . . فماذا نقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد

نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو هذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة » .

٤ — « إن هؤلاء المئات من المحسوبين على النبوة ليثوا بين قبائل اسرائيل وقرا فادحاً لا يصبر القوم على تكاليفه المرهقة إلا لمنفعة ينتظرونها من زمرة المتنبئين الذين يثبت لهم صدقهم ، وليست هذه المنفعة إلا الاعتماد حيناً بعد حين على بعض المتنبئين فى الكشف عن الخبايا والانذار بالكوارث المتوقعة . وأهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث أن يحذروا غضب « يهوا » لأنهم جربوا أنه أقدر على النقمة من سائر الأرباب .

وحدث ما لا بد أن يحدث فى هذه الحالة من الأسفاف بالكشف الروحى تسخيرا له فى المطالب اليومية على حسب الحاجة إليه فى حينه . فبدلا من أن يكون الكشف الروحى لمحة من لمحات الصفاء ترتفع فيها حجب الهوى والضلالة عن البصيرة فتدرك ما لا تدركه فى عامة أوقاتها — أصبح هذا الكشف صناعة ملازمة لكل من يدعى النبوة بحق أو بغير حق ، ووجب على النبى فى عرفهم أن يكون مستعداً بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو أريدت منه ، وروى القوم من أبناء هذا الاستعداد ما يشبه الاستعداد للمباراة بين فرق الرياضة من الطرفين المتقابلين ، وقد ثبتت لهم غلبة أنبياء يهوا على أنبياء البعل على أثر مباراة من هذه المباريات بينهم فى التنبؤ والإنذار بالأخطار »[١] .

جاء فى كتاب[٢] الملوك الأول :

أن « ايزابل » امرأة أخاب ملك اسرائيل قتلت مئات من أنبياء يهوا فلم ينج منهم غير خمسين خبأهم أحد الوزراء المخلصين للدين ، ثم ظهر النبى « ايليا » متحدياً للملك قائلا : كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر من الكتاب المذكور :

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٦٦ .

(٢) الإصحاح ١٨ .

« ..... ولما رأى آخاب إيليا قال له آخاب : أأنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر اسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم . فالآن ارسل وأجمع إلى كل اسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المئة الذين يأكلون على مائدة ايزابل فأرسل آخاب إلى جميع بنى اسرائيل وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين . إن كان الرب هو الله فاتبعوه ، وإن كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة . ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبياً للرب وحدى وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلا . فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورا واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب . ولكن لا يضعون ناراً وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع ناراً . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب . والإله الذى يجيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن فقال إيليا لأنبياء البعل اختاروا لأنفسكم ثوراً واحداً وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لا تضعوا ناراً . فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين : يا بعل أجبنا فلم يكن صوت ولا مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال : ادعوا بصوت عال لأنه إله . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم ، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ . قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إلى . فتقدم جميع الشعب إليه . فرمم مذبح الرب المتهدم . ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجراً بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا : اسرائيل يكون اسمك ، وبنى الحجارة مذبحاً باسم الرب ، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البزر ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال : املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب. ثم قال ثنوا فثنوا وقال ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة

أيضاً ماء . وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبي تقدم وقال : أيها الرب إله إبراهيم واسحق واسرائيل . ليعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبنى يارب استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعاً . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله . الرب هو الله . فقال له إيليا امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيسون وذبحهم هناك . وقال إيليا لآخاب اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر . فصعد آخاب ليأكل وليشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخر إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه اصعد تطلع نحو البحر فصعد وتطلع وقال ليس شئ . فقال ارجع سبع مرات . وفى المرة السابعة قال هو ذا غيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر . . فقال : اصعد قل لآخاب أشدد وأنزل لئلا يمنعك المطر وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم فركب آخاب ومضى إلى يزرعيل . وكانت يد الرب على إيليا فشد حقوبه وركض أمام آخاب حتى تجئ إلى يزرعيل » .

*
* *

لم يعرف بنو اسرائيل النبوة على مثال أتم وأكمل من نبوة موسى عليه السلام ، ومع هذا كان أرفع ما تصوروه فى معنى وحى الله إليه عليه السلام أنه كان يخاطبه فماً إلى فم وعياناً بغير حجاب ، وفى ذلك يقول الأصحاح الثانى عشر من سفر الخروج أن الله (نزل فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هرون ومريم فخرجا كلاهما فقال : اسمعا كلامى . ان كان منكم للرب فبالرؤيا أستعلم له وفى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا . بل هو أمين فى كل شىء . فما إلى فم وعياناً أتكلم معه لابالألغاز) .
وكان اعتقادهم أن موسى عليه السلام يسمع كلام الرب فماً إلى فم

وعياناً بغير حجـــاب فى كل قضية من قضايا الشعب يعرضونها عليـــه ، حتى علمه نبى مدين أن يكل القضاء إلى أناس من ذوى ثقته وخاصة قومه يلقنهم أحكام الشريعة ويوليهم أمر القضايا الصغيرة مكتفياً بما يعضل عليهم من كبار القضايا .

وفى ذلك يقول الأصحاح الثانى عشر من سفر الخروج :

(وقد حدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء ، فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال : ما هذا الأمر الذى أنت صانع للشعب ؟ ما بالك جالساً وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء ؟ فقال موسى لحميه أن الشعب يأتى إلى ليسأل الله : إذا كان لهم دعوى يأتون إلى فأقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال حموموسى له : ليس جيداً هذا الأمر الذى أنت صانع . إنك تكل أنت وهذا الشعب الذى معك جميعاً . لأن الأمر أعظم منك لاتستطيع أن تصنعه وحدك . الآن اسمع لصوتى فأنصحك فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله وقدم أنت الدعاوى إلى الله وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذى يسلكونه والعمل الذى يعلمونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئـــات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات . فيقضون للشعب كل حين ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها إليك وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها وخفف عن نفسك فهم يحملون معك) . . . .

*
* *

وبعد نحو ستة قرون من النبوة الموسوية انتهى عهد الأنبياء فى بنى اسرائيل ولم يتغير معنى النبوة عندهم فى هذه الفترة الطويلة . بل انحدر إلى مادون ذلك بكثير ، لأن موسى عليه السلام كان يخاطب الغيب ليتلقى الشريعة ، وينقل إلى الشعب تحذير الله بنصوص ألفاظه ، وأما الأنبياء بعده فقد تكاثروا

بالمئات ليخاطبوا الغيب فيما دون ذلك من الخبايا اليومية ، أوليتخذوا العلامات والألغاز نذيراً للشعب بالخسائر الحسية التى تصيبه من جراء الخروج على شريعة موسى .

ويتلخص تاريخ النبوة فى بنى اسرائيل إذن فى كلمات معدودات : أنهم قـــد استعاروا فكرة النبوة من جيرانهم العرب الذين ظهر فيهم ملكى صادق على عهد ابراهيم عليه السلام ، وظهر فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب ، ففهموا من النبوة معنى غير معنى الرؤية والعرافة والسحر والتنجيم وأنهم مازالوا يتعلمون من جيرانهم إلى أن أتى موسى عليه السلام الذى تتلمذ على حميه نبى مدين قبل جهره بدعوته وبعد أن جهر بهذه الدعوة فى مصر وخرج بقومه منها إلى أرض كنعان ، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقضوا منها ولم يزيدوا ، وما كان لهم من حيلة فى زيادتها لأنها — كما فهموها — غير قابلة للزيادة والارتقاء ، ولامناص من تدهورها مع الزمن وهى موقوفة على قوم دون سواهم لايشاركون الأقوام فى هداية واحدة ولا فى جامعة إنسانية ترتفع بمقاييس الأخلاق والفضائل مع ارتفاع بنى الإنسان . . . كانت قبائل اسرائيل محصورة فى نفسها ، وكانت عبادتها محصورة فى حدودها ، وكانت قبلتها القصوى من العبادة أن تسلم فى عزلتها مع إلاهها الذى احتكرته واحتكرها ، فلم تطلب من النبوة إلا ما تلتمسه من السلامة فى تلك العزلة : صناعة موقوفة على استطلاع الغيب لتحذيرها من الضربات التى تواجهها ولاتخشاها من إله غير آلهها(١) .

*
* *

وبعد ستة قرون من آخر رسالة فى بنى اسرائيل يستمع العالم إلى صوت من الجزيرة العربية يدعو إلى رب العالمين : رب العربى والأعجمى ، ورب الأبيض والأسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لايستأثر بقوم ولايؤثر قوماً على قوم ، إلا من عمل صالحاً واتقى حدود الله .

(١) العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٧١ — ٧٢ .

صوت نبى ينادى كل من بعث إليه أنه لايعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الأرض ، ولايدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ، ولايعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أورسول

صوت نبى يقول للناس أنه إنسان كسائر الناس ، وهو بشير يهدى إلى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال .

* * *

إن النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان فى الإله .

(٣)

خلق الله الإنسان وجعله مستعداً للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهراً لرحمة الله بعباده ؛ وليخلق فيه روح المكافحة . خلقه مستعداً أيضاً للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له أن عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الإنسان فى حاجة إلى الوحى الإلهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر وعلى هذا المبدأ أرسل إليه الرسل ، وأنزل الكتاب تذكيراً بما يسعده ، وتنفيراً مما يشقيه .

يقول الإمام الغزالى عن حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها (١) « إن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة ، خلق خالياً ، ساذجاً ، لاخبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لايحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » . وإنما خبره فى العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات .

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال — تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود — ص ١٣٣ — ١٣٦ طبعة سنة ١٩٥٥ .

ونعنى بالعوالم ، أجناس الموجودات ، فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات ؛ كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ؛ بل هى كالمعدوم فى حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات ، والنغمات .

ثم يخلق له الذوق ، وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات ؛ فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات ، لايوجد منها شىء فى عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل ؛ فيدرك الواجبات ، والجائزات والمستحيلات ، وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله .

ووراء العقل طور آخر ، تتفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون فى المستقبل ، وأموراً أخر ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز.

وكما أن المميز لوعرضت عليه مدركات العقل لأباها ، واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها . وذلك عين الجهل ؛ إذ لامستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد فى حقه ، فيظن أنه غير موجود فى نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقر بها .

وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من

نفسه — قيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه ، كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب — لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك ، فمن لايدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لايدركها مع ركودها ، أولى، وأحق

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود ، والمشاهدة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً : عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر فى نورها الغيب ، وأمور لايدركها العقل .

والشك فى النبوة إما أن يقع :

فى إمكانها .

أو فى وجودها ، ووقوعها .

أو فى حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها ، وجودها .

ودليل وجودها : وجود معارف فى العالم لايتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم ، فإن من بحث عنها ، علم بالضرورة أنها لاتدرك إلا بإلهام إلهى ، وتوفيق من جهة الله تعالى . ولا سبيل إليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لايقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان ، أن فى الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك انموذجاً منها : وهو مدركاتك فى النوم . ومعك علوم من جنسها ، فى الطب ، والنجوم ، وهى معجزات الأنبياء ، ولاسبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة ، إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ؛ لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته ، وهو النوم ، ولولاه ماصدقت به . فان كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولاتفهمها أصلا فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم . وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه ، فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك فى شخص معين : أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والاطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم . ولا نعجز أيضاً عن معرفة كون «الشافعى» — رحمه الله — فقيهاً ، وكون « جالينوس » طبيباً ، معرفة بالحقيقة لابالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما ، وتصانيفهما ؛ فيحصل لك علم ضرورى بحالهما . فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة ، وكيف صدق فى قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » وكيف صدق فى قوله : « من أعان ظالماً ، سلطه الله عليه » . وكيف صدق فى قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى (كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة) فاذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لاتتمادى فيه .

فمن هذا الطريق ، أطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فان ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخيل ، وأنه من الله إضلال ، فانه « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فان كنت مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لايدرى ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد . فهذا هو الإيمان القوى العلمى .

ويقول : فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك مايدرك يعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين ، وإلى هاهنا مجرى العقل ، ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه . »

*
* *

وما من بقعة عمرت على ظهر الأرض إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العلى القدير .

قال تعالى :

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » .

وهؤلاء المرسلون صلوات الله عليهم أجمعين منهم من ورد ذكره وذكر أمته فى القرآن المجيد ، ومنهم من لم يرد فيه خبره ولاخبر قومه .

قال تعالى :

« وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ » (١)
كالذين أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل

---

(١) سورة النساء : ١٦٣ .

الكتاب المجاورين لبلادك . جاء فى تفسير المنار [١] عند تفسير قوله تعالى :

« وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ »

مانصه : « ورسلا لم نقصصهم عليك » أى كالمرسلين إلى الأمم المجهول علمها وتاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك ، كأمم الشرق : الصين واليابان والهند ، وأمم بلاد الشمال ، أوربا ، وأمم القسم الآخر من الأرض « أمريكا » ولم يقصص الله تعالى عليه خبر الرسل الذين أرسلهم إلى أولئك الأقوام لأن حكمة ذكر الرسل وفوائد بيان قصصهم له صلى الله عليه وسلم لاتتحقق بقصص أولئك المجهول حالهم وحال أممهم عند قومه وجيران بلاده من أهل الكتاب ، وهذه الحكم والفوائد هى المشار إليها فى مثل قوله تعالى :

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ »[٢] .

وقوله :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »[٣] .

وقوله تعالى :

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ

---

(١) الجزء السادس ص ٧٠ .

(٢) سورة يوسف : ١١١ .

(٣) سورة هود : ١٢٠ .

بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا آتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (١) .

فالعبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته صلوات الله عليه كل ذلك يظهر فى قصص من ذكرهم من الرسل دون حاجة إلى من لم يذكرهم ، وحسبنا العلم بأن الله العلى القدير أرسل الرسل فى كل الأمم ، فكانت رحمته بهم عامة لامحصورة فى شعب معين احتكرها لنفسه كما كان يزعم أهل الكتاب .

قال تعالى :

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » (٢)

وقال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » (٣) .

ونحن لانخوض فى إحصاء الأنبياء والرسل فانه لايعلم إلا بوحى من الله تعالى ، ولم يبين الله ذلك فى كتابه ، ولا رسوله فيما صح من الخبر عنه (٤) .

وكل هذا الكلام واضح فان الله لم يحرم أمة نصيبها فى هداية الرسل ، فأرسل رسله تترى ليعلموا الناس ما يجب عليهم فعله ، وما يجب عليهم تركه ، حتى يثابوا أو يعاقبوا .

---

(١) سورة القصص : ٤٤ — ٤٦ .

(٢) سورة النحل : ٣٦ .

(٣) سورة فاطر : ٢٤ .

(٤) ذكر الإمام القرطبى — فى تفسيره — ما روى عن أبى ذر الغفارى — أنه قال : « قلت يارسول الله ... كم كانت الأنبياء ؟ وكم كان المرسلون ؟ قال صلى الله عليه وسلم كانت الأنبياء مائة ألف ، وأربعة وعشرون ألف نبى ، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا » .

ثم قال القرطبى : هذا أصح ما روى فى ذلك . وهذا كلام بين ، وفيه الكفاية لأن ما روى فى ذلك كثير ، وليس كله راجحاً . كما صرح الإمام القرطبى .

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » (١).

« لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » (٢).

« وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى » (٣).

فالدين تشريع إلهى لا يستقل العقل بالوصول إليه ، ولا يعرف إلا بالوحى وهو موافق لسنة الفطرة فى تزكيته للنفوس وأعدادها للحياة الأبدية فى الدار الباقية ، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله تعالى فى الدنيا والآخرة ولن يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الأكمل الصحيح الذى يريده الله ، ويبلغه رسله عليهم السلام ، والله العلى القدير لم يقصص علينا سير جميع الرسل ، والحكمة فى هذا واضحة جلية ، فان عدد الذين بعثوا منذ أن استقر الإنسان على الأرض من الكثرة بحيث لاتتسع عدة أسفار حتى لمجرد سرد أسمائهم عليهم السلام ، وقد ورد الكلام عنهم مجملا فى كثير من آيات القرآن المجيد .

قال تعالى :

« ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » (٤).

هذه الآية الكريمة تفيد كثرة المرسلين وأن من أرسلوا إليهم كذبوهم واتبعوا أهواءهم .

وإذا كانت معظم الأخبار التى تروى عن الأمم السابقة تدل على أن تلك الجماعات اعتمدت فى عقائدها على الأوهام فلا يصح بناء على ماقرره

---

(١) سورة المؤمنون : ١١٦ .
(٢) سورة النساء : ١٦٥ .
(٣) سورة طه : ١٣٤ .
(٤) سورة المؤمنون : ٤٤ .

القرآن الكريم ، أن يقال أنها لم تنل حظها من الرسل فضلت هذا الضلال البعيد .

وإنما المقطوع به والذى لايتسرب إليه الشك لدى المؤمن أنها حادت عن جادة المبعوثين ، فهوت فيما ترددت فيه من البعد عن الحق واتباع الهوى. قال تعالى :

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنَ نَبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »(١).

وقد اقتصر القرآن المجيد فى حديثة عن الرسل عليهم السلام على المعروفين لاتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، لأن فى ذكر غيرهم إطالة لامبرر لها يغنى عنها الإجمال الذى جاء فى هذه الآية الكريمة التى سبقت الإشارة إليها .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ؛ فالله العلى القدير عالم بأنه سيأتى زمان تترابط فيه الأمم ترابطاً وثيقاً باكتشاف وسائل النقل السريعة ، وحينئذ يتساءل الناس : هل أرسل الله رسلا إلى الأمم التى لم يكن بيننا وبينها اتصال قبل رسالة محمد عليه السلام ؟ وإذا لم يكن فلماذا حرموا ذلك ؛ وربما بدت شبهة أخرى على القرآن الكريم وقد جاء فيه : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فالإلمام بالقضية على هذا الوجه المجمل الكافى يعد آية تثير الإعجاب لدى المنكرين الذين يعلمون أن من عاصروا نزول القرآن الكريم كانوا يظنون أن حدود العالم لاتمتد إلى أكثر مما وصل إلى علمهم حينذاك .

وقد قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى كان يرسل الرسل إلى تلك الأمم ، فلايرفعون بهدايتهم رأساً ، ولايقبلون هدى الله الذى أرسلوا به ، بل كانوا يسخرون منهم .

قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

---

(٢) سورة الزخرف : ٦ ، ٧ .

إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ : أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »(١).

« يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »(٢).

« وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » (٣).

إن هذه الآيات الكريمة وكثير غيرها مما اشتمل عليه القرآن العظيم تدفع ما قد يقال إن الديانات التى عمت الجماعات البشرية فى جميع أطوارها التاريخية إنما كانت مجموعة من الأباطيل ؛ فلوأنهم حظوا برسل يهدونهم إلى الصراط المستقيم لكانوا أفضل مما وجدوا عليه ، فلهذا كان تأكيد القرآن أن الله سوى بين البشر جميعاً فى إرسال رسله بهداية السماء إليهم ؛ بيد أنهم آثروا أن يقيموا على أساطيرهم وأن يطرحوا ما جاء به الوحى من عند الله العلى القدير دافع قوى لهذا الالتباس . ويؤيد ذلك ماهو مشاهد من أحوال الأمم التى دخلها الفاتحون من أوربا وأمريكا ، ولايزال معظمها على حاله يوم دخولها رغم محاولة تغيير عقائدهم التى ورثوها بأساليب شتى بيد أنهم لم يظفروا إلابالنجاح القليل رغم الجهود الجبارة التى لاحدود لها .

(٤)

أكد القرآن الكريم فى غير آية بشرية الرسل ، وأنهم برسالتهم لم يخرجوا عن طبيعتهم البشرية ، وإن كانت قد لحقتهم عصمة الله العلى القدير فما يبلغون عنه جل شأنه ، وهى درجة اصطفاء ، لايرتفعون بها عن منزلة البشرية .

قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .
(٢) سورة يس : ٣٠ .
(٣) سورة يونس : ١٠١ .

إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(١) .

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » (٢) .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » (٣) .

كما أكد القرآن الكريم أن الرسل لا يملكون نفعاً ولا ضراً لأنفسهم فضلا عن غيرهم :

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٤) .

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » (٥) .

« قُلْ : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ »(٦) .

« قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ »(٧) .

أما في غير ما يبلغونه عن الله سبحانه وتعالى من الآراء والأحكام ، أو الأفعال الشخصية ، فهم — كغيرهم — يصيبون فيها ويخطئون (٨) .

---

(١) سورة النحل : ٤٣ — ٤٤ .

(٢) الآية آخر سورة الكهف .

(٣) سورة الرعد : ٣٨ .

(٤) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٥) سورة الغاشية : ٢١ — ٢٢ .

(٦) سورة الأنعام : ٥٦ .

(٧) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٨) الأستاذ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٤ .

الفصل الثانى

الوحى

(١)

الوحى : مصدر وحى إليه يحى من باب وعد ، وأوحى إليه بالألف مثله ومصدره الإيحاء وهو قليل الاستعمال ، وبعض العرب يقول وحيت إليه ووحيت له وأوحيت إليه وأوحيت له . ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف مع التعدية بإلى ، وأما فى غير القرآن المجيد فوحيت إلى فلان مشهورة : يقال وحيت إليه بالشىء وحيا وأوحيت ، وهو أن تكلمه بكلام يفهمه عنك ويخفى على غيره بأن يكون على سبيل الرمز والتعريض أويكون بصوت مجرد عن التركيب ، أويكون إسراراً لايسمعه غيره .

قال الراغب الأصفهانى(١) :

أصل الوحى الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل « أمروحى » وذلك يكون على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وباشارة ببعض الجوارح وبالكتابة . وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا :

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »(٢).

أى أشار إليهم ولم يتكلم والوحى بتشديد الباء السريع ، ومن وحى الإيماء بالجوارح قول الشاعر :

---

(١) كتاب المفردات فى غريب القرآن .

(٢) سورة مريم : ١١ .

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكرى فى بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنى أحبها فأثر ذاك الوحى فى وجناتها

فالقول الجامع فى معنى الوحى اللغوى : أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح ، كالوحى إلى أم موسى ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان .

قال تعالى :

« وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ » (١) .

وقال :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » (٢) .

ووحى الله العلى القدير إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما : الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحى أى اسم المفعول ، وهو ما أنزله الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتاباً أى تشريعاً يكتب ومنهم من لم يعطه .

والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله :

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا (٣) » .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .
(٢) سورة الأنعام : ١١١ .
(٣) « سورة » الأنفال : ١٢ .

ويوحى إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله :

« فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ »(١) .

أى أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم (٢)

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده بعد تعريف الوحى لغة(٣) .

(وقد عرفوه شرعاً : أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على رأينا أنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أوبغير واسطة .

والأول يكون بصوت يتمثل لسمعه أوبغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

هذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قوله تعالى :

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ » (٤) .

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث فى الروع — وهو بالضم : القلب والخلد والخاطر — والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لايراه ، كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة ، وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله .

---

(١) سورة النجم : ١٠ .

(٢) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٤٠ .

(٣) رسالة التوحيد ، تحقيق طاهر الطناحى .

(٤) سورة الشورى : ٥١ .

(٢)

وقد ورد ذكر هذه المادة فى سبعين آية من القرآن المجيد ، منها أربع وستون آية مكية ، وست آيات مدنيات . وأكثر ما ورد فى الآيات القرآنية إنما هو الفعل ماضياً ومضارعاً .

أما كلمة « الوحى» فجاءت فى القرآن ست مرات فى سور كلها مكية(١) وفعل الوحى فى القرآن مسند غالباً إلى الله العلى القدير . وهو فى كثير من الآيات مبنى للمجهول . وقد جاء فى آيات إسناد الوحى إلى غير الله . فأسند إلى شياطين الإنس والجن فى الآية ١١٢ من السورة ٦ (الأنعام ، مكية(٢) . وفى الآية ١٢١ من هذه السورة نسبة الوحى إلى الشياطين . وفى الآية ١١ من السورة ١٩ (مريم ، مكية) نسبة الوحى إلى زكريا ، وفى الآية ٥١ من السورة ٤٢ (شورى ، مكية) (أويرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) أى الرسول . وفى الآية العاشرة من السورة ٥٣ (النجم ، مكية) (فأوحى إلى عبده ما أوحى) فأوحى أى إلى جبريل .

أما الموحى إليه فهو فى أكثر الأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أوغيره من الأنبياء عليهم السلام .

وورد الوحى إلى الحواريين فى الآية ١١١ من السورة الخامسة (المائدة ، مدنية) . وفى الآية ٩٣ من السورة ٦ (الأنعام ، مكية) الموحى إليه ليس نبياً على الحقيقة ، وفى الآية ١٢١ من السورة نفسها الموحى إليه هم أولياء الشياطين وفى الآية ١١٢ من السورة ٦ (الأنعام ، مكية) الموحى إليه شياطين الإنس والجن . وفى الآية ١٢ من السورة ٨ (الأنفال ، مدنية) الموحى إليه هم الملائكة . وفى الآية ٦٨ من السورة ١٦ (النحل ، مكية) الموحى إليه النحل .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) معنى الآية : كما جعلنا لك عدوا جعلنا لكل نبى سبقك عدواً من الإنس والجن يوسوس بعضهم إلى بعض زخارف من الأباطيل غروراً منهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فدعهم وما يفترون .

وفى الآية ٣٨ من السورة ٢٠ (طه ، مكية) الموحى إليه أم موسى ، وفى الآية ٧ من السورة ٢٨ (القصص ، مكية) الموحى إليه أم موسى أيضاً . وفى الآية ١٢ من السورة ٤١ (فصلت ، مكية) (وأوحى فى كل سماء أمرها) . وفى الآية الخامسة من السورة ٩٩ (الزلزلة ، مدنية) (بأن ربك أوحى لها) أى الأرض .

وقد فسروا الإيحاء فى هذه الآية الأخيرة بالأمر أو الإعلام كما فى الطبرى أوالتسخير كما ذكره الراغب فى المفردات .

أما الآية ١٢ من سورة فصلت فقد فسر الطبرى قوله تعالى فيها (وأوحى فى كل سماء أمرها) ، بأن المراد ألقى فى كل سماء من السموات السبع ما أراد من الخلق ؛ وفى تفسير البيضاوى : « وأوحى فى كل سماء أمرها » شأنها وما يتأتى منها ، وقيل أوحى إلى أهلها بأوامره .

أما الوحى إلى أم موسى فقد قال المفسرون إن معنى أوحينا إليها قذفنا فى نفسها وليس وحى نبوة . « وفى الكشاف » : الوحى إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ » .

وإما أن يكون معناه بعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم ؛ وإما أن يكون معناه أنه أراها ذلك فى المنام فتنبه عليه ، وإما أن يكون معناه أنه ألهمها ، كقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » فمعنى الآية إذن : أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه ولا العلم به إلا بالوحى ، وفيه مصلحة دينية ، فوجب أن يوحى .

وفسروا الوحى إلى النحل بالإلهام والقذف فى النفس ، وفسره الراغب الأصفهانى بالتسخير .

وفسر الراغب فى المفردات : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ » ، فذلك وحى إليهم بوساطة اللوح والقلم فيما قيل .

ووحى الشياطين من الإنس والجن بعضهم إلى بعض[١]« آية ١١٢ من سورة الأنعام » كوحى الشياطين إلى أوليائهم ، هو الوسوسة والإسرار بالمعسول من الأقوال الباطلة .

وأما الآية ٩٣ من السورة ٦ « الأنعام » .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ » .

فقد قال الطبرى فى تفسيرها : (يعنى جل ذكره بقوله : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ، يعنى ممن اختلق على الله كذباً فادعى عليه أنه بعثه نبياً وأرسله نذيراً ، وهو فى دعواه مبطل وفى قيله كاذب . وهذا تسفيه من الله لمشركى العرب وتجهيل منه لهم فى معارضة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والحنفى مسيلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوى أحدهما النبوة ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونفى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اختلاق الكذب عليه ودعوى الباطل).

أما آية « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي » .

فيقول الطبرى فى تفسيرها « إن ألفاظ أهل التأويل اختلفت فى تأويل قوله (وإذ أوحيت) ، وإن كانت متفقة المعانى : فقال بعضهم وإذ أوحيت إلى الحواريين ، قذفت فى قلوبهم ؛ وقال آخرون معنى ذلك ألهمهم » وفى البيضاوى . (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ، أى أمرتهم على ألسنة رسلى)

هذا فيما يتعلق بالآيات التى ورد فيها فعل الوحى موجهاً إلى غير الأنبياء

وأما الآيات التى أسند فيها فعل الوحى إلى غير الله العلى القدير ، فقد سبق القول فى اثنتين منها ، وهما آيتا الأنعام .

أما الآية ١١ من السورة ١٩ (مريم ، مكية) وهى قوله تعالى : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقد قال الطبرى فى تفسيرها :

« وقوله « فأوحى إليهم » يقول أشار إليهم ، وقد تكون تلك الإشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك مما يفهم به عنه ما يريد » .

وما ورد فى الآية ٥١ من سورة الشورى ، من قوله :

« أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » .

فسره الطبرى بقوله : « أو يرســل الله من ملائكته رسولا إما جبريل وإما غيره ، فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه باذن ربه ما يشاء ، يعنى ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهى وغير ذلك من الرسالة والوحى » .

أما قوله تعالى فى سورة النجم « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » .

فقال الطبرى : اختلف أهل التأويل فى ذلك : فقال بعضهم معناه فأوحى الله إلى عبده محمد وحيه ؛ وقال آخرون بل معنى ذلك فأوحى جبريل إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . وأولى القولين فى ذلك عندنا بالصواب قول من قال معنى ذلك فأوحى جبريل إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه (١) .

وفيما عدا الآيات السابقة يذكر فعل الوحى فى القرآن المجيد مسنداً إلى الله تعالى أومبنياً للمجهول . وفى حالة بنائه للمجهول يكون الفاعل هو الله تعالى أيضاً كما يفهم ذلك من سياق الكلام .

وقد ورد لفظ « الوحى » فى القرآن ست مرات هوفيها كلها من الله العلى القدير والموحى إليه فيها جميعها من الأنبياء . وهذا هو إيحاء الله إلى أنبيائه ورسله أى إلقاؤه إليهم ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية .

وعبر القرآن عن هــذا المعنى بالتنزيل . فجعل القرآن وحيا وجعله تنزيلا كما قال :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (٢) »

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام ص ٥٠ .

(٢) الشورى ، مكية : ٧ .

وقال: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(١) .

وقال : « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ »(٢) .

وعبر عنه أيضًا بالكلام فى قوله : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ »(٣) : حيث جعل الوحى نوعًا من كلامه وقسمًا من أقسامه ؛ ففرق بين تكليم الوحى والتكليم بإرسال الرسول والتكليم من وراء حجاب .

لكن فى السورة الرابعة (سورة النساء) ما يدل على أن التكليم غير الوحى وقسيم له ، وذلك إذ يقول الله عز وجل :

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا(٤) » .

فذكر فى أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه ، وهذا يدل على أن التكليم الذى حصل له أخص من مطلق الوحى المذكور فى أول الآية ، ثم أكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز (٥) .

---

(١) يوسف ، مكية : ٢ .
(٢) آل عمران ، مدنية : ٣ — ٤ .
(٣) الشورى . مكية : ٥١ .
(٤) النساء ، مدنية : ١٦٣ — ١٦٤ .
(٥) الدين والوحى والإسلام ص ٥٢ .

قال الفراء : (العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً ، بأى طريق وصل ، ولكن لاتحققه بالمصدر ، فاذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام)

ويذهب ابن قيم الجوزية(١) إلى أنه يمكن جعل الوحى قسماً من أقسام التكليم وجعله قسيماً للتكليم باعتبارين : فانه قسيم التكليم الخاص الذى يكون من الله لعبده بلا واسطة بل منه إليه ، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة .

وعلى هذا فالوحى قسم من كلام الله العام الذى جاءت به آية الشورى ، وهى الآية التى جعلت كلام الله لعباده على ثلاثة أنحاء لايجاوزها .

وقد ذكر المفسرون فى تأويل هذه الآية أنه ماصح لأحد من بنى آدم أن يكلمه ربه إلا على أحد ثلاثة أوجه : إما على الوحى ، أى إلهاماً وقذفا فى القلب منه ، بلاواسطة . « أومن وراء حجاب» أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولايراه ، كما كلم موسى عليه السلام ، « أويرسل رسولا» أى من ملائكته كجبريل « فيوحى باذنه ما يشاء » أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه باذن ربه ، ما يشاء إيحاءه ، من أمر ونهى وغير ذلك ، على سبيل الإلقاء والنفث فى الروع والإلهام ، أوالهتاف .

وكثير من المؤلفين ، كابن قيم الجوزية فى كتاب « مدارج السالكين» وابن حزم فى الفصل ، يميل إلى جعل الآية مفيدة لتسمية القسم الأول والثالث وحياً ، وتسمية الثانى كلاماً بالإطلاق . وذلك لأن الثانى لايسميه القرآن وحياً ، وإنما (هو تكليم فى اليقظة من وراء حجاب ، دون وسيطة الملك ، لكن بكلام مسموع بالآذان ، معلوم بالقلب ، زائد على الوحى الذى هو معلوم بالقلب فقط أومسموع من الملك عن الله تعالى) ؛ ويؤيد ذلك أن الآية وصفت القسم الأول بأنه وحى ، وذكرت فى الثالث فعل الوحى ، ووصفت الثانى بأنه تكليم من وراء حجاب .

(١) كتاب مدارج السالكين .

أما الفخر الرازى فيرى أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحى . إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحى لأن ما يقع فى القلب على سبيل الإلهام يقع دفعة ، فكان تخصيص لفظ الوحى به أولى . وكون الأول وحياً ظاهر ، وكذلك الثالث . أما الثانى فيستدل عليه بدليل أن الله تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحياً قال تعالى :

« فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(١) » .

ونحن إذا استقصينا مادة الوحى فى القرآن وجدنا الإسم المصدرى يستعمل فى الدلالة على القسم الأول غالباً ، ويستعمل أحياناً فى تنزيل القرآن على النبى كما فى قوله تعالى :

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ(٢) » .

وتنزيل القرآن من قبيل النوع الثالث ، إذ هو كلام من الله العلى القدير بواسطة جبريل بنص القرآن نفسه فى أكثر من موضع . أما فعل الوحى فقد استعمل فى الأقسام الثلاثة . فيكون القرآن قد قصر اسم الوحى على ما يكون إلهاماً وقذفاً فى النفس أوما يكون بواسطة الملك ؛ على حين استعمل الفعل فى الدلالة على هذين القسمين وعلى كلام الله لأنبيائه بلا واسطة من وراء حجاب .

(٣)

وقـــد فصلت فى كتب الحديث والســـير مراتب الوحى التى كانت للرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلا بلغ حد السرف أحياناً . فقد نقل صاحب المواهب اللدنية أن الحليمى ذكر أن الوحى كان يأتى الرسول صلوات الله عليه على ستة وأربعين نوعاً . ولعل المعتدلين هم الذين أخذوا من الأحاديث سبع مراتب للوحى نعتمد فى نقلها على ابن القيم الجوزية فى زاد المعاد والقسطلانى فى المواهب اللدنية والسهيلى فى الروض الأنف :

(١) سورة طه ، مكية : ١٣ . (٢) سورة طه ، مكية : ١١٤ .

١ — الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم . فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . والمدة التى كان يوحى إليه فى المنام فيها ستة أشهر إلى أن استعلن له جبريل .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ؛ ورؤيا تحذير من الشيطان ؛ ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام » . والذى هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التى تكون من الله خاصة ورؤيا الأنبياء وحى فانها معصومة من الشيطان . وهذا باتفاق الأئمة . ولهذا أقدم ابراهيم على ذبح اسماعيل عليهما السلام بالرؤيا[1] .

٢ — ماكان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس[2] » نفث فى روعى[3] : إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فان ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » .

٣ — كان يتمثل له الملك رجلا ، فيراه عيانا ، ويخاطبه حتى يعى عنه ما يقول . فقد كان يأتيه أحياناً فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، وكان جميلا وسيماً . وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

٤ — أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها . ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يارسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟

---

(١) انظر مدارج السالكين ، لابن الجوزية .

(٢) أى جبريل .

(٣) قلبى وعقلى .

فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم(١) عني وقد وعيت ما قال . وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا يكلمني فأعي ما يقول(٢) .

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد(٣) عرقاً .

(٥) — أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه .

٦ — ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

٧ — كلام الله له منه إليه بلا واسطة كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى بنص القرآن وهى ثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء .

٨ — زادها بعضهم : وهى تكليم الله له من غير حجاب . وهذا رأى من يقول إن الرسول رأى ربه تبارك وتعالى .

وذكر السهيلى مرتبة أخرى هى نزول إسرافيل عليه بكلمات من الوحى قبل جبريل . فقد وكل به إسرافيل ، فكان يتراءى له ثلاث سنين ، ويأتيه بالكلمة من الوحى ، ثم وكل به جبريل فجاءه بالقرآن .

وذكر السهيلى كذلك حالة أخرى وهى تكليم الله له بلا واسطة فى المنام . هذه هى جملة الصور التى تمثلها لنا السنة من الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك مع الذى أسلفناه من القول فى الوحى فى القرآن يشرح لنا معنى الوحى على ما يؤخذ من النصوص الدينية الإسلامية .

---

(١) فيفصم : يريد ، فينصرف عنى الملك .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ، ص ٢١ .
(٣) ليتفصد عرقا : أى يجرى عرقه ويسيل .

(٤)

حاول علماء المسلمين تفسير نزول الوحى فقال الزركشى فى كتاب « البرهان فى علوم القرآن » :

« إن رسول الله انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وتلقى القرآن من جبريل » ، لأنه كان مستعداً بفطرته السامية ونفسه الصافية وفؤاده اليقظ وعقله الباطن للإنسلاخ من البشرية إلى الملكية وهى حالة نفسية أعلى من حالة الإنسان يدل على وجودها التفاوت المشاهد بين طبقات البشر فى عقولهم وإدراكهم فيكون الرسول قد ترقى بروحه حتى وصل إلى درجة الروح الأمين أو أن الملك انخلع من الملكية إلى البشرية حتى أخذه رسول الله .

وأن جبريل تلقف من الله تلقفاً روحانياً وأن الله خلق الأصوات الدالة على الألفاظ فى الجو وأسمعها جبريل وخلق فيه علما ضرورياً بأنها دالة على ذلك المعنى القديم القائم بذاته تعالى وأوحاه إلى محمد كذلك . وكان الأثر المادى الذى يشعر به محمد فوصفه بقوله :

« إن روح القدس نفث فى روعى » .

والنفث النفخ اللطيف الذى لا ريق معه .

وفى كلام محى الدين بن عربى محاولة تعليل للظواهر البدنية التى كانت تبدو عند الوحى ، قال :

(سبب إضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحى أن الوارد الإلهى الذى هو صفة القيومية إذا جاءهم اشتغل الروح الإنسانى عن تدبيره فلم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض) .

أما فلاسفة العرب فقد عللوا الوحى تعليلا علمياً ، وكان أقربهم إلى الحقيقة من حيث التعليل الروحانى الفارابى فقد كتب فى باب القول فى الوحى ورؤية الملك :

(إن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان ما قوية كاملة ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ولا أخضعتها للقوة الناطقة ، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التى تخصها وكانت حالها عند اشتغالها بهذين فى وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها فى وقت النوم . وكثير من هذه التى يعطيها العقل الفعال فتتخيلها القوة المتخلية بما تحاكيها من المحسوسات المرئية ، فان تلك المتخيلة تعود فترتسم فى القوة الحاسة ، فاذا حصلت رسومها فى الحاسة المشتركة انفعلت عن تلك الرسوم القوة الباصرة فارتسمت فيها تلك فيحصل عما فى القوة الباصرة منها رسوم تلك فى الهواء المضىء الواصل للبصر المنحاز لشعاع البصر ، فاذا حصلت تلك الرسوم فى الهواء عاد ما فى الهواء فيرتسم من رأس فى القوة الباصرة التى فى العين وينعكس ذلك إلى الحاس المشترك وإلى القوة المتخيلة ، ولأن هذه كلها متصلة بعضها ببعض فيصير ما أعطاه العقل الفعال من ذلك مرئياً لهذا الإنسان . فاذا اتفقت المحاكيات التى حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء مع محسوسات فى نهاية الجمال والكمال قال الذى يرى ذلك إن الله عظمة جليلة عجيبة ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شىء منها فى سائر الموجودات أصلا ، ولا يمتنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال فيقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية .

فهذا هو أكمل المراتب التى تنتهى إليها القوة المتخيلة وأكمل المراتب التى يبلغها الإنسان بقوته المتخيلة ، ودون هذا من يرى جميع هذه بعضها فى

يقظتـــه وبعضها فى نومه ومن يتخيل فى نفسه هـــذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره . ودون هذا من يرى جميع هذه فى نومه فقط وهؤلاء تكون أقاويلهم التى يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزاً وألغازاً وإبدالات وتشبيهات ، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً ، فمنهم من يقبل الجزئيات ويراها فى اليقظة فقط ولا يقبل المعقولات . ومنهم من يقبل المعقولات ويراها فى يقظته فقط ولا يقبل الجزئيات ، ومنهم من يقبل بعضها ويراها دون بعض ، ومنهم من يرى شيئاً فى يقظته ولا يقبل فى نومه فقط ، فيقبل فى نومه الجزئيات ولا يقبل المعقولات ، ومنهم من يقبل شيئاً من هذه وشيئاً من هذه ، ومنهم من يقبل شيئاً من الجزئيات فقط .

وعلى هذا يوجد الأكثر . والناس أيضاً يتفاضلون فى هذا وكل هذه معاونة للقوة الناطقة . وقد تعرض عوارض يتغير بها مزاج الإنسان فيصير بذلك معداً لأن يقبل عن العقل الفعال بعض هذه فى اليقظة أحياناً وفى النوم أحياناً . فبعضهم يبقى ذلك فيهم زمناً إلى وقت ما ثم يزول . وقد تعرض أيضاً للإنسان عوارض فيفسد بها مزاجه ويفسد تخيله فيرى أشياء مما تركبه القوة المتخيلة على تلك الوجوه مما ليس لها وجود ولا هى محاكيات لوجود . وهؤلاء الممرورون والمجانين وأشباههم(١) . الوحى عند الفلاسفة هو اتصال النفس الإنسانية الناطقة بالنفوس الفلكية اتصالا معنوياً يجعلها تشرف على ما فيها من صور الحوادث فترتسم فى النفس البشرية من تلك الصور ما يستعد لارتسامه فيها كمرآة يحاذى بها مرآة أخرى فيها نقوش فينعكس منها إلى الأولى ما يقابلها .

وليس عندهم فرق بين الوحى والإلهام إلا أن الأول يكون للنبى ويكون الثانى للعارف أو الولى . وللنبوة استعداد ذاتى . فى القوى النفسانية لمن له النبوة خصائص ثلاث :

---

(١) محمد لطفى جمعة : فلاسفة الإسلام ، ص ٤٢ وما بعدها .

١ — أن تصفو نفسه صفاء شديداً وتقوى قوة لا تشغلها الحواس عن النظر إلى عالم العقل ، فتستعد استعداداً خاصاً للاتصال بالعقول المفارقة بأدنى توجه ، ويفيض عليها من علم الغيب ما لايدرك بالفكر والقياس .

٢ — أن يكون فى جوهر نفسه قوة تؤثر فى هيولى العالم بازالة صورة وإيجاد صورة . وذلك أن الهيولى منقادة لتأثير النفوس المفارقة ، مطيعة لقواها السارية فى العالم . وقد تبلغ نفس إنسانية فى الشرف حداً يناسب تلك النفوس فتفعل فعلها وتقوى على ما قويت عليه .

٣ — أن يرى الملائكة مصورة بصورة محسوسة ويسمع كلامهم وحياً من الله . وذلك بقوة نفسه واتصالها بعالم الغيب فى اليقظة وقوة المتخيلة ومحاكاتها ما أدركته النفس بصورة جميلة وأصوات منظومة . فتكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف صورة عجيبة فى غاية الحسن ، وهو الملك الذى يراه النبى . وتكون المعارف التى تتصل بالنفس من اتصالها بالجواهر الشريفة تتمثل بالكلام الحسن المنظوم الواقع فى الحس المشترك فيكون مسموعاً . يكون كل ذلك باستعداد ذاتى فى نفس النبى ويحصل للولى بالرياضة والمجاهدة.

يقول ابن خلدون : إن الذى يذكره فى تفسير حقيقة النبوة جار على ما شرحه كثير من المحققين(١) .

ولا شك أن الذى أدلى به فى أمر النبوة والوحى متأثر بمذاهب الفلاسفة والصوفية بيد أن فيه من الطرافة وجدة التوجيه ما يجعله مذهباً جديداً . « العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة عجيبة من الترتيب وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض . فعالم العناصر متدرج من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض . وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ، ويستحيل بعض الأوقات . والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهى إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبعة مطبعة المعارف العلمية — القاهرة .

وعالم التكوين يبتدىء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج . فآخر أفق المعارف متصل بأول أفق النبات ، وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان . ومعنى الاتصال فى هذه الكائنات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول الأفق الذى بعده . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهت فى التدريج إلى الإنسان صاحب الفكر والروية .

ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام . فهو روحانى ويتصل بالكائنات ، لوجوب اتصاله بهذه العوالم فى وجودها ، وذلك هو النفس المدركة المحركة . ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ويكون بذاته إدراكاً صرفاً وتعقلا محضاً ، وهو عالم الملائكة .

فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل . وهؤلاء هم الأنبياء فطروا على الإنسلاخ من البشرية جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصيروا فى لمحة من اللمحات ملائكة بالفعل ، ويحصل لهم شهود الملأ الأعلى فى أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة . فاذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد . فتارة يسمع النبى دوياً كأنه رمز من الكلام ، وتارة يتمثل له الملك رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله . والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه فى لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس فى زمان بل كلها تقع جميعاً ، فيظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً لأن الوحى فى اللغة الإسراع .

ويقول ابن خلدون :

إن نزول القرآن فى مكة منجماً على سور وآيات أقصر مما نزل بالمدينة سببه أن الاعتياد شيئاً فشيئاً على ما فى الوحى من جهد يورثه بعض السهولة فبدىء بالقصير حين كانت مشقة الوحى أشد .

(٥)

ولننظر الآن فى تقدير الوحى عند الإفرنج ، فقد جاء فى قاموس لاروس فى تفسير كلمة Inspiration ما نصه(١) :

(حقيقته فعل يدخل به الهواء فى الرئتين ، ومجازاً نصيحة أو إيحاء ، أو حالة نفسية يوجد عليها الروح عندما يكون مباشرة تحت تأثير قوة فوق الطبيعة كوحى موسى والأنبياء.وهو التحمس عند نظم الشعراء ويقال وحى العباقرة وصفاً على ما يصل إليهم من الأفكار الخارقة للعادة التى تؤدى للأعمال الجليلة) .

وجاء فى تفسير كلمة وحى من قاموس الكتاب المقدس ما نصه (٢) :

(تستعمل هذه الكلمة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء فى (حـ ١٢ : ١٠)

« هذا الوحى هو الرئيس » أى أنه آية الشعب ، وعلى العموم يراد بالوحى الإلهام وعليه يقال « إن الكتاب موحى به من الله » ، والوحى بهذا المعنى هو حلول روح الله فى روح الكتاب الملهمين وذلك على أنواع :

١ — إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لا يمكنهم الوصول إليها إلا به .

٢ — إرشادهم إلى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاهاً أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ فيقال (تكلم أناس الله القسيسون مسوقين من الروح القدس) .

---

(١) قاموس لاروس ، ص ٥٣٧.

(٢) الدكتور جورج بوست : قاموس الكتاب المقدس .

وهنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئاً من شخصيته وإنما يؤثر فيه الروح الإلهى بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى . ولهذا نرى فى كل مؤلف من الكتاب الكرام ما تميز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك وفى شرح هذا التعليم دقة .

وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الإنسان ما يجب من الإيمان والعمل لكى ينال الخلاص الأبدى) .

ويقول ستاربوك فى تفسير علمى نفسانى للوحى :

(إن الإرادة التى لا تتم هى بلا ريب دليل على أن ازدهار « نشوء » اتصالات عصبية جديدة وعلى أن قناة جديدة للنشاط الذهنى قد فتحت وفى الوقت المناسب تتم بتركيز القوة فى الاتجاه المعين . وبواسطة ازدياد الدورة وتعلية التغذية لهذه النقطة نفسها معونة على تكوين اتصالات الأعصاب الجديدة والتى بواسطتها تتسع القوة الكامنة المدخرة بنفسها وهذه القوة الكامنة تتفق مع الإدراك الجديد) .

ويريد ستاربوك أن يعلل بهذه النبذة الحالة النفسية التى يكون عليها الأشخاص الذين يطلقون دينهم وينتحلون ديناً جديداً .

ويقول العالم الإنجليزى مودزلى فى كتابه « باثولوجية العقل » :

(إنه عندما توجد عاهة وراثية فى إحدى الأسر فقد يحدث فى بعض الأحيان أن أحد أفراد تلك الأسرة الملوثة يظهر عبقرية عظيمة ، حالما يكون عضو آخر من هذه الأسرة مجنوناً أو مصروعاً . ولكن حدوث هذا الأمر لايثبت شيئاً أكثر من أنه كانت هناك حساسية طبيعية كبيرة فى الجهاز العصبى فتبدو هذه الحساسية بتأثير الظروف الخارجية بمظاهر مختلفة ، فتارة تكون نبوغاً وتارة تكون جنوناً . ومع ذلك فان هذه الحالة لا تنطبق على العبقرية العليا ، لأن كل من تنطبق عليه ، يكون شديد الإحساس العصبى

فيفقد بسبب شدة حساسيته العصبية الصفات اللازمة للعبقرية العليا وهى قوة الهدوء والقدرة على تمثيل الأفكار فلا يصل صاحبها إلى درجة الشاعر العظيم أو الفيلسوف الكبير وقدرة الاستنتاج التى تكاد تكون فطرية أو إلهامية ، وقد يكون النابغ من أصل مرضى بعيد النظر إلى درجة عظيمة أو صادق الفراسة ولكنه لا يكون سليما ولا ملماً الإلمام الكامل . قد نعجب بشاعرية النابغ من أصل مرضى ولكننا لا نستطيع أن نصف عبقرية شكسبير أو جوته بأنها صادرة عن الجنون .

قد تكون أعمال العبقرى جديدة ولكنها منطوية على خطة مرسومة متقنة سواءاً أكان هذا الإتقان — نتيجة الوعى أو ضده ، فى حين أن النابغ المرضى يكون مضطرباً ولا يقصد بعمله إلى رغبة الخير .

فنى حالة العبقرى السليم يظهر التنظيم والترتيب فى أساس القوة العقلية ، أما فى حالة النابغ المرضى فتوجد ثورة طائشة متقلبة الأطوار كدليل على الخلاف الميئس بين العقل والمرض) .

وبعد عهد مودزلى جاء كتاب وعلماء أخضعوا العبقرية لحكم البيئة والوراثة . فقال هربرت سبنسر : إن العبقرى هو ثمرة مؤثرات وتيارات اجتماعية متفقة ليس للعبقرى عليها سلطان .

وقال وليم جيمس : إن العبقرى نتيجة الاختيار والانتقاء الطبيعى فهو نوع قائم بذاته كالأنواع التى تنشأ فى عالم النبات والحيوان فجأة ومن تلقاء نفسها ، وقد عجز علماء النشوء والارتقاء عن تعليل أصلها .

وقد انبرى للرد على سبنسر وأتباعه — القائلين بأن العبقرى ثمرة وسطه ونهاية ما وصلت إليه الطبيعة فى تكوين قومه — الأستاذ نيزبيث فى كتابه « العبقرية والجنون » فقال :

(إن هذا القول مخالف للعقل والمشاهدة وعنده أن العبقرى حائز لجميع مواهبه المتميزة فى شخصه وأن رأسه يحتوى على كل صفاته ولاتخرج عبقريته

عن أركان مخه فهو الكل فى الكل بغير حاجة إلى معونة خارجية كالوسط والبيئة والملابسات الاجتماعية أوالقومية وضرب مثلا بشكسبير فقال : لماذا نبغ هذا الشاعر ولم تكن فى قرية ستراففورد على نهر آفون فى أبريل ١٥٦٤ عوامل ولاتيارات اجتماعية تستلزم ظهوره ؟

ولوفرضنا أن انجلترا كانت محتاجة فى القرن السادس عشر لشاعر درامى عظيم فلماذا وقع الاختيار على وليم شكسبير الابن الثالث لأبيه دون أخيه الذى كان تاجر جوارب وأقمصه أو أخيه أدمون الذى كان ممثلا خاملا؟)

لقد انتهى العلم إلى الاعتراف بأن العبقرية تدخل تحت أحكام القضاء والقدر أى أن الباحثين تناقضوا واختلفوا ثم عجزوا عن الوصول إلى نتيجة حاسمة .

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده[1] فى الرد على منكرى الوحى :

(أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ماغاب عن مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه إلا على من لايريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لاتفهم .

نعم يوجد فى كل أمة ، وفى كل زمان ، أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ماوراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس . . بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة إليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ماهو أدنى من مراتب أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسره ومكنونة ، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارنة ما لايليق ، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان .

---

(١) رسالة التوحيد : تحقيق طاهر الطناحى ، ص ١٤٩ وما بعدها .

فاذا عرض عليهم شيء من الكلام فى النبوات والأديان ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إن شاء الله .

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولاترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفته(١) العناية بهذه النعمة .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لايدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط . . . بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لامدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه .

ولاشبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ماهو بديهى عند من هو أرقى منه . ولاتزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالايحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس مايرى البعيد عن صغارها(٢) قريباً فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ماصار إليه كأنه من المعروف الذى لاينازع ، والظاهر الذى لايجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه . . ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم إليه . ولايزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم .

فاذا سلم « ولامحيص عن التسليم(٣) » ما أسلفنا من المقدمات .

---

(١) حفاه معناها أعطاه . ويقال حفاه الله به أى أكرمه . ومعنى قول الإمام « حفته العناية بهذه النعمة » أى أكرمته وخصته عناية الله بهذه النعمة .

(٢) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده .

(٣) لأن العقل يقر ذلك ويؤيده كل التأييد .

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لايسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أوتحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم . . ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة ، وفى كل زمان ، على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته إلى سعادته كافية فى إرشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة .

أما وجود بعض الأرواح العالية — وهم الملائكة المكرمون — وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية، فما لااستحالة فيه بعدما عرفنا من أنفسنا، وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشىء من العلم الإلهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته (١) أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة ، فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم . . . فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ، ويصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولاشىء من ذلك فى الحقيقة بواقع . فان جاز التمثل فى الصورة المعقولة ولامنشأ لها إلا فى النفس ، وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لايجوز تمثل

(١) قال فى الأساس : أذعن له سلس وانقاد . وأذعن فلان بحقى : أقربه . أه وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه فى الأول أظهر .

الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس ، وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لايوجد فى مزاج غيرهم ؟ . . . وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضاً غير الشئون المألوفة .

وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به ، وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه : إن أمراض القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل . أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس . . . لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء فى عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لاتنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لايستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف . . . ودليل صحة مايتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألىء فى بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولايخلو العالم من متشبهين بهم . . . ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولايكون لهم إلاسوء الأثر فى تضليل العقول وفساد

الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الأقرار بامكان ما أنبئوا به وبوقوعه إلا احجاب من العادة ، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة .

ويقول إن : الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ، ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان .

وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر(١) رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالأخبار بوجود مكة ، أوبأن للصين عاصمة تسمى « بكين » .

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

لانزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به ، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ، ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر ، كابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومما جاء الخبر : أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً ولابالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم على ما دعوا إليه ، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الناس إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد

---

(١) يريد بالعلم الآخر « علم الحديث » .

شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ماجاءوا به .

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ماكانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لايصلح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لايعتقد ما يقول لاينبغى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لابقاء له إلا فى الغفلة عنه ، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت باهمالها ، وينمو باغفالها . . . فاذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الإنسانى ماشاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين ، فلايمكن أن يكون أسسها الكذب ودعامتها الحيلة . وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائماً فى خلال ما ألحق بها المبتدعون .

وأما بقية الرسل مما يجب علينا الإيمان بهم ، فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم . . فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به . .

الفصل الثالث

وحدة الرسالات الالهية

— ١ —

رقى الإنسان الروحى الذى به انتظام شئونه فى الدنيا ووقوعها على وجه الحكمة والصواب ، هو هدف الحكمة الإلهية من الرسالات إليه ، وكان الإنسان من مبدأ الخليقة ، هو المخلوق الذى وضع فى مكان الصدارة من الخلق ، والذى ركبت فيه قوتا الخير والشر ، كانت رسالة توجيهه إلى الخير ، وتقوية جانبه سنة إلهية فى جميع أطواره ، تعبد له طريق الارتقاء إلى الله :

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (١) » .

وبذلك تعاقبت الرسالات على الإنسان أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وكلها ذات هدف واحد : وهو توجيه الإنسان إلى طريق الكمال ، وكانت أصول رسالاتهم وعقائدها الأولى واحدة ، لاتختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (٢) .

وكان الرسل بذلك — كما صورهم محمد صلى الله عليه وسلم فى حديث له — بناة بيت واحد ، يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم ، وأخذ الله عليهم فى ذلك العهد والميثاق :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنَ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

---

(١) سورة فاطر : ٢٣ . (٢) سورة الشورى : ١٢ .

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »(١) .

ومن هنا طلب القرآن المجيد الإيمان بجميع الرسل ، كما طلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعاً ، وكان الإيمان بالبعض دون البعض — فى الإسلام — خروجاً عن دين الله وهديه :

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ »(٢) .

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(٣) .

وجاء فيمن يؤمنون بالبعض دون البعض :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا »(٤)

وفى الذين يؤمنون بالجميع :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »(٥) .

---

(١) سورة آل عمران : ٨١ .
(٢) سورة البقرة : ٤ .
(٣) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٤) سورة النساء : ١٥٠ — ١٥١ .
(٥) سورة النساء : ١٥٢ .

وكما طلب الإسلام الإيمان بجميع الرسل ، طلب الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته تضمنت الإرشاد إلى مابه كمال الإنسانية ، وفتحت لها جميع النوافذ التي تستطيع أن تصل منها إلى كل ما ينفعها ويرقيها روحاً ومادة :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »(١) .

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(٢) .

وكما قرر القرآن المجيد أن الرسالات الإلهية ختمت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه خاتم الأنبياء — قرر أيضاً أن رسالته عامة بمعنى : أنها موجهة إلى جميع الناس فى جميع أجناسهم ولغاتهم : الموجودين منهم وقت حياته ، والموجودين منهم بعد مماته إلى يوم الدين .

« قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »(٣) .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(٤) .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا »(٥) .

إن النبي على سنة من سبقه من الرسل ، والرسل لم يحملوا للإنسانية شيئاً غير الإسلام .

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٠ .
(٢) سورة المائدة : ٣ .
(٣) سورة الأعراف : ١٠٣ .
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٥) سورة سبأ : ٢٨ .

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام :

« وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ »(١) .

ثم يوجه الحق تبارك وتعالى نبيه فيقول :

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ »(٢) .

تجميع لخصائص النبوات كلها فى نبوة واحدة ورسالة خاتمة تخرج إلى الوجود كله كاملة وافية بسعادة البشر :

« يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا »(٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ٨٩ .
(٢) سورة الأنعام : ٩٠ .
(٣) سورة الأحزاب .

— ٢ —

جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء (وسبحانه عما يشركون) وما هو برب قبيلة ولاسلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ولكنه هو « رب العالمين» . خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى ، فلافضل بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »(١) .

وهو واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »(٢) .

لا يأخذ إنسانا بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة خلقت بجريرة أمة سلفت ولا يدين العالم كله بغير نذير .

« وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »(٣) .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٤) .

* * *

« يرى علماء(٥) المقابلة بين الأديان أن الإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل

(١) سورة الحجرات . (٢) سورة الإخلاص .
(٣) سورة فاطر . (٤) سورة البقرة .
(٥) عباس محمود العقاد : كتاب « الله » ص ١٠ وما بعدها .

«الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى .

وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة ، والصناعات تارة أخرى .

يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب .

وهو :

دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى مئات ، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أوتعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم والزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة توءلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل أقليم من الأقاليم المتفرقة ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها » .

« ولاتصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتعترف العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بارادة الله وحكمته السامية ، وكثيراً ما ينفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أوالأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية . والرأي الراجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية يأتي أحياناً كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية ، ويعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الإنسان يترقى في هذا الطور فيحاول تفسير الشر في الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير . ولايكون هذا من قبيل النكسة في عقيدته لأنه لايزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقي الإنسان في أطوار العبادة .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتي بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقائض والضرورات وإثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذي لاشك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان .

« واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هي أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية ، ويعلل آخرون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات في شدته وبلواه » .

« يقول الفيلسوف «كونت» : « إن الدين عبادة الإنسانية » ويقول « سنيكا » « إن الدين معرفة الله والتشبه به » . ويقول هكسلى : « إن الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » .

ويقول اسكندر باين : « إن الدين عاطفة يكونها الانفعال الهادئ مقروناً بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشرى إن هو إلا حوار مع الله . وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضاً من أعراض طفولة الشعوب أو قصور العقل البشرى أو انحراف الشخصية الفردية ، وعجز المفكرون والفلاسفة عن تقديم تعليل يتفق عليه عن أصل العقيدة الدينية وأصل الباعث عليها » .

إن فكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات ؛ وقول علماء المقابلة ، بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الشعوب حتى وصلت إلى الوحدانية هذا القول خاطىء من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على فكرة أن الله من خلق الإنسان ، وينفى عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم ، وأن آدم كان على علم :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكِ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسمَائِهِم ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمونَ » (١) .

(١) سورة البقرة : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ .

فتكون الوحدانية ومعرفة الله هى الطور الأول من الأدوار التى مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره القرآن الكريم .

كان آدم على علم بالله عزوجل بل كان أكثر البشر معرفة به جل شأنه(١)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ »(٢) .

ولم تنقطع صلة آدم بالله سبحانه وتعالى عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه ربه ليبلغ بنيه حقيقة الحق ، فلم يعرفوا إلا إلهاً واحداً لاشريك له ولم يتخذوا أرباباً بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان .

فلوكانت نظرية النمو الدينى صحيحة لبدأت العبادة (٣) بعبادة أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب من الأرباب وبدء دور التمييز والترجيح ، ثم ترتقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل قبول الخرافات ، ويأتى عصر النور الإلهى ولاتكون ردة بعده أبداً . بيد أن الدارس للتاريخ الدينى للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذى يحاول أن يمنطقه علماء الأديان لم يكن له مكان فى تاريخ البشرية الطويل ، فلوأننا تركنا مسألة خلق آدم وأن آدم كان على علم ، ولو لم نعترف بأن إدريس الحفيد السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المنكرين ، وسلمنا بأن ابراهيم الخليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعترف

---

(١) عبد الحميد جوده السحار : السيرة النبوية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٠ .
(٢) سورة البقرة : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) عن كتاب السيرة النبوية : ج ١٢ ، ص ٢٩٠ وما بعدها .

مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوباً على ورق البردى . وتوغلنا معاً فى جوف الزمن حتى نصل إلى فجر الضمير الذى تكون فى مصر فى زمن الفراعين ، فاننا نجد أن اخناتون قد عرف التوحيد ، فما أن تولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب . وأعلن فى شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعاً إلا إلهاً واحداً لاشريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وأن كل ما فى الشمس من مجد ملتهب إن هو إلارمز للقدرة الغائبة التى لاتراها العيون . ولكى ندرك سمو الفكرة التوحيدية فى ذلك الماضى السحيق ونقدر ما انطوت عليه دعوة اخناتون من معان عظيمة تنتظم توحيد الإله ، وتقيم العلاقة بينه وبين مخلوقاته على الرحمة والقدرة جميعاً وتسوى بين الناس على الأرض وتستشف ما بين الكائنات من صلات ، نرى لزاماً علينا أن نثبت هذه التسبيحة بنصها(١) :

جلال آتون

بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون ، ياحى ، يامبدى الحياة .

إذا ما صعدت فى السماء الشرق أفضت على الأراضى جمالك .

ماذلك إلا أنك جميل عظيم ، نير فى السموات العليا ، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .

أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك .

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك .

أنت عال لكن أشعتك واضحة فى ضوء النهار .

الليل

إذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة .

فيقصد السكان النوم فى حجراتهم مغطى الرءوس هادئى الأنوف غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يشعروا .

---

(١) ج . برستد « تاريخ مصر منذ أقدم العصور » ترجمة الدكتور حسن كمال ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

أما الأسود فتخرج من أجحارها وكذا الثعابين اللداغة .

ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض ، وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه .

النهار والإنسان

إذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كآتون أضاءت الأرض .

إذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام ، وشمل الفرح اقطرى مصر .

كيف لاوقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعتهم إليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

النهار والحيون والنبات

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها . والأشجار والنبات جميعاً يانعة .

والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهاجاً إليك . والأغنام ترقص على أرجلها . والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه .

وكل طريق عمومى يصبح مسلوكاً لأنك ظهرت فى الأفق . أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

خلق الإنسان

أنت خالق الجنين فى أمه .

أنت خالق نطفة الإنسان .

أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لايتكدر فيبكى : كيف لا وأنت المربى فى الرحم .

أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك . . أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

خلق الحيوان

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه .

الخلق

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها . أنت الإله الواحد ، لاشريك لك فى الملك خلقت الأرض بارادتك ، ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض أوتطير بأجنحتها .

أنت الذى أحللت كل إنسان فى سورية والنوبة ومصر فى موضعه وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

رى الأرض

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة . أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالى . أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف . أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها . أنت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها ، والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه ، فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .

ما أبدع أعمالك أيها السيد الأزلى .

فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد .

والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .

أشعتك تغذى الجنان ، فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .

فالشتاء يعطيهم البرودة ، والصيف يهب لهم الحرارة .

أنت الذى رفعت السماء عالياً لننظر ما خلقت فى وحدتك ، شارقاً حياً كآتون ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية إلى حيث ابتدأت .

جمال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها .

كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك

أنت فى قلبى ، لايعرفك سوى ابنك إخناتون الذى جعلته عاملا بآرائك وقوتك .

العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

إذا ما أشرقت « عليه » حى وإذا أفلت مات .

أنت الوجود ومسبب الحياة للإنسان .

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب ، والعمل كله يبطل إذا ما أفلت فى الغرب . فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو) .

كان إخناتون يقول عن نفسه إنه يعيش فى الحق الذى آمن به وأنفق حياته داعية إليه ، وانتظم توحيده الخلائق كلها التى خلقها إله واحد أحد كما انتظم التسوية بين الناس فى الدنيا تساويهم أمام هذا الإله الواحد الأحد .

يقول إخناتون فى تسبيحه نظمها بنفسه :

(أنت أفضت على القطرين حبك ، وبرك ياصُاحب الأمر ، ياكريم ، ياموجود بنفسك ، يا فاطر كل أرض وما عليها ؛ بشراً وأنعاماً وسائمة وجميع ما ينمو على وجهها من أنواع الشجر . هؤلاء كافة يحيون حين تشرق عليهم فأنت لمن ذرأتهم الأب والأم . . . وإذا أنت غربت فى الأفق الغربى من السماء انطرحوا أرضاً ، وأسلموا جنوبهم إلى مراقدهم كالموتى الهامدين ،

رءوسهم ملفوفة وخياشيمهم خافتة الأنفاس مسدودة ، حتى تبزغ فى اليوم التالى من المشرق فترتفع أكفهم إليك يسبحون لوجهك .

إن كل قطر فى عيد حين ترسل أشعتك ، فالمنشدون والعازفون يرفعون العقائر ، ويرسلون الأنغام طرباً فى ساحة بيت بنبن(١) .
ويقول أيضاً :

(بنو الإنسان أجمعون ، والماشية ، وكل ماطار وخفق بجناحيه ، وكل مادب على وجه الأرض من أنواع الزواحف ، هؤلاء جميعاً يبعثون إلى الحياة حين يبصرونك ؛ ويرقدون حين تغيب(٢)) .

هذا هو إخناتون وهذا هو توحيده منذ فجر التاريخ ، فلوكانت نظرية ارتقاء الإنسان فى العقائد كارتقائه فى العلوم والصناعات صحيحة ، ولوكان قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى وصلت إلى دور التوحيد لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، لحق على البشرية ألا ترتد إلى عبادة أرباب متفرقين بعد أن اهتدت إلى الإله الواحد . بيد أن الواقع التاريخى يدحض هذه المزاعم كلها ، فقد كانت البشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلى الشرك . ثم التوحيد فالشرك . والقرآن المجيد يوضح هذه الحقيقة توضيحاً دقيقاً :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » (٣) .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

(١) حجر على هيئة المسلة لشروق الشمس .
(٢) تاريخ العالم المجلد الثانى ف . ل . جريفث « الإنقلاب الدينى فى مصر » ترجمة عبد الرحمن صدقى ، ص ٣٩ .
(٣) سورة الحديد : ١٦ .

الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » (١) .

« فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي »(٢) .

فالقرآن المجيد يكذب نظرية ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات ، ويؤكد أن القائلين بمرور البشرية بأطوار ثلاثة هى التعدد والتمييز والترجيح والوحدانية قد جانبهم الصواب ، **فالأصل التوحيد ثم طول الأمد فقسوة القلوب فارسال رسول يوحى إليه أنه لا إله إلا الله فيدعو قومه إلى التوحيد ويقضى على الخرافات والأوهام والأساطير . فيطول على الناس العهد فيتخذون آلهة فى الأرض وفى السماء ويشركون برب العالمين ، فيأتيهم ذكر من ربهم فيعودون إلى الإيمان باله واحد فى السماء والأرض المستعان على ما يصفون .**

إن تاريخ البشرية سواء أكان التاريخ الدينى الذى جاء فى الكتب السماوية ، أوالتاريخ الذى نقش على الحجارة أوكتب بالخط المسمارى على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردى أوالرقاق أوسعف النخيل ، يؤكد الحقيقة القرآنية كل التأييد ويدحض قول علماء المقارنة بين الأديان من أن البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قبل أن تبلغ نضج التوحيد .

يقرر القرآن الكريم أن آدم كان على علم وأن الله عز وجل اصطفاه ليبين **لبنيه أن الله واحد لاشريك له ، فلما طال على بنيه العهد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لاعالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومنظر بهى**

---

(١) سورة القصص : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .   (٢) سورة طه : ٨٦ .

ولاعالم وراء هذا المحسوس(١)، فقست قلوبهم فأرسل إليهم إدريس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وكانت رسالة إدريس أول خطوة على الطريق الطويل الذى ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم إرتدوا إلى الضلال بعد الهدى ، فأرسل الله العلى القدير رسله ليزيل الغشاوات التى رانت على القلوب لتنبلج فى الصدور أنوار الحقيقة :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُم فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ولكن اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ »(٢)

وقد عرف الناس الإيمان والإلحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا الكمال والحرام والحلال والعرش والملائكة واللوح والقلم والجنة والنار ؛ ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطيورها وثمارها إن هى إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن سلاسل النار وأغلالها إن هى إلا خزى ونكال وترهيبات للعوام بما ينزخر عنه طباعهم .

---

(١) عبد الحميد جوده السحار : السيرة النبوية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) سورة ابراهيم : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

وقد عرف الصابئة الأولى عاذيموس وهرمس وهما شيت وإدريس عليهما السلام ، فلما طال عليهم الأمد قالوا بحدود وأحكام عقلية أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي ، ثم أنكروا الوحي والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثالنا في النوع ، وأشكالنا في الصورة : يشاركوننا في المادة ، يأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا في الصورة : أناس بشر مثلنا ؛ فمن أين لنا طاعتهم ، وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ؟ : ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون (١) .

وقالوا « الروحانيات » هم الأسباب المتوسطون في الاختراع ، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال : يستمدون القوة من « الحضرة القدسية » ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها ، وهي هياكلها ؛ فلكل روحاني « هيكل » ، ولكل « هيكل » « فلك » ؛ ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به ؛ نسبة الروح إلى الجسد ؛ فهو ربه ومدبره ومديره . وكانوا يسمون الهياكل : أرباباً ، وربما يسمونها : آباء ، والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ؛ ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ؛ فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ؛ فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية ؛ مثل أنواع النبات ، وأنواع الحيوان ، ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن « روحاني كلي» وقد تكون جزئية صادرة عن « روحاني جزئي» ؛ فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك .

ومنها مدبرات « الآثار العلوية » الظاهرة في الجو :

مما يصعد في الأرض فينزل ؛ مثل : الأمطار ، والثلوج ، والبرد ، والرياح .

---

(١) من كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستاني .

ومما ينزل من السماء ؛ مثل ؛ الصواعق ، والشهب .

ومما يحدث فى الجو ؛ من الرعد ، والبرق ، والسحاب ، والضباب ، وقوس قزح ، وذوات الأذناب ، والهالة ، والمجرة .

ومما يحدث فى الأرض ؛ مثل : الزلازل ، والمياه ، والأبخرة . . . إلى غير ذلك .

ومنها « متوسطات القوى » السارية فى جميع الموجودات ، و« مدبرات الهداية » الشائعة فى جميع الكائنات ؛ حتى لانرى موجوداً ماخالياً عن قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

بمثل هذا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض ظواهر الطبيعة ، بعد أن خدع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلا وحالة .

وقد انقسم أهل الأهواء والنحل منذ بدء التاريخ إلى طبيعيين دهريين قد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لاعالم سوى ما هم فيه ، وإلى فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس وأثبتوا المعقول ولكنهم لايقولون بحدود وأحكام وشرائع ويؤمنون بأن الشرائع والحلال والحرام مسائل وضعية فيها مصلحة الناس ، وإلى صابئة يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام ولايقولون بالشريعة التى أتى بها رسل الله وأنبياؤه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله الواحد القهار ، فلما طال على الناس الأمد عبدوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناماً ترمز إليهم فأرسل الله العلى القدير إليهم نوحاً :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَن اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ

وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى »(١) .

دعودة مبكرة إلى الوحدانية تدحض الزعم القائل بترقى الإنسان فى العبادة ترقيه فى العلوم والصناعات وتكذب إدعاء علماء المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة الإنسانية مد مطرد لاتعتوره نكسات ، فقالوا إن البشرية قد مرت بأطوار النمو الدينى حتى بلغت رشد الإيمان بإله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقست قلوبهم واتخذوا من دون الله أربابا ، فأرسل الله إليهم هودا ليعيدهم إلى الرشد والحق والصراط المستقيم .

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٢) .

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس العهد قست قلوبهم فأرتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التى إتخذوها رموزا للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التى كانت تنزل الرعب فى قلوبهم أو يأملون منها الخير العميم .

ولما كانت سنة الله العلى القدير أن يرسل الرسل إلى عباده بعد أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل صالحاً إلى قومه لكى يعظهم ويذكرهم بنعم الله عليهم وآياته الدالة على توحيده وأنه

---

(١) سورة نوح : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٦٥ — ٦٩ .

لاشريك له وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم فى عبادتهم وعلى أن الله هو الذى يجب افراده بالعبادة دون سواه .

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا.. قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ .. هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ . إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ »(١) .

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »(٢) .

كانت الدعوات كلها تهدف إلى عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ، وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول لقومه : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهود يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون .

وكذلك كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم إسما للدين الذى يدعو إليه لأن البشرية لم تكن قد تفرقت فى الدين إلى مذاهب، ولم يتخذ المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يعتقدون أنهم يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما فى زمن إبراهيم عليه السلام فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهى عبادة القمر ، وعبادة مردوخ وهى عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شماش وهى عبادة الشمس ، ثم

(١) سورة هود : ٦١ .
(٢) سورة الأعراف : ٧٢ ، ٧٣ .

أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لابد من إطلاق إسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ »[(١)] .

إن كلمة « الإسلام » بمدلولها لاتدل على اسم شخص بعينه أوأمة بعينها ، وإنما تدل على صفة خاصة يضمنها معنى الإسلام .

ويظهر من هذا الإسم أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الأمم ، وإنما غايته أن يحلى الأرض جميعاً بصفة الإسلام . فكل ما اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ، ويكون مسلماً كل من سيتحلى فى المستقبل[(٢)] .

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة تتسع لماضى الناس وحاضرهم ومستقبلهم ، كما اتسعت لنبوات الأنبياء جميعاً ، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر .

والإسلام فى لغة القرآن — ليس اسما لدين خاص ، إنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[(٣)] .

هكذا نرى نوحا يقول لقومه : « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »[(٤)]

(١) سورة الحج : ٧٨ . (٢) « مبادىء الإسلام » لأبى على المودودى .
(٣) محمد الراوى : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص ٥١ .
(٤) سورة يونس : من آية ٧٢ .

ويعقوب يوصي بنيه : « فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »(١) وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(٢) .

وموسى يقول لقومه : « يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ »(٣) .

والحواريون يقولون لعيسى : « آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ »(٤)

إن الإسلام شعار عام يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية .

عادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام ناصعا كما كان أيام ابراهيم . ولم يطق بنوا إسرائيل التوحيد طويلا ، فقد طلبوا أن يرتدوا إلى الشرك والتعدد وموسى فيهم .

« وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى . قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى . قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ . فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى . قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا

(١) و (٢) سورة البقرة : من آية ١٣٢ — ١٣٣ .
(٣) سورة يونس : من آية ٨٤ .
(٤) سورة المائدة : من آية ١١١ .

جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى . قَالَ يا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيتَ أَمْرِى . قَالَ يابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى . قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ . قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يُبْصِرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وانْظُرْ إِلَىٰ إِلٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى اليَمِّ نَسْفًا . إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا »[١] .

وترك موسى التوراة فإذا ببنى إسرائيل يختلفون فيها وينقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ »[٢] .

وبعث الله داود إلى بنى إسرائيل وآتاه « زبورا » ليعيد بنى إسرائيل إلى الإسلام . وورث سليمان داود واستمر فى الدعوة إلى التوحيد وإلى

(١) سورة طه : ٨٣ — ٩٨ .

(٢) سورة هود : ١١٠ .

الإسلام : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » .

وعرفت اليهودية كدين بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك ، فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الإبن الرابع ليعقوب « إسرائيل » فلما آل إليهما ملك بنى إسرائيل رأى رهط يهوذا أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن يخلدوا حدث إعتلاء اليهوذيين عرش بنى إسرائيل لأول مرة ، فنفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لهما الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين(١) ؟ وإن الواقع التاريخى يؤيد هذه الحقيقة . وقد جاء فى القرآن المجيد :

« يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كَانَ مِن الْمُشْرِكِين (٢) » .

وقد عقد هنرى برستيد فى كتابه فجر الضمير مقارنة بين نشيد اخناتون وبين الفقرات من ٢٠ إلى ٣٠ من المزمور رقم ١٠٤ من العهد القديم ، فاتفقت المعانى بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر ، وخلص من ذلك إلى القول بأن المزامير قد أخذت معانيها من نشيد اخناتون :—

(الفقرتان ٢٠ ، ٢١) تجعله ظلمة فيصير ليلا ، فيه يدب كل حيوان ... الأشبال تزمجر لتخطف ، ولتلتمس من الله طعامها .

(١) عبد الحميد جوده السحار : السيرة النبوية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٤ .
(٢) سورة آل عمران : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(الفقرتان ٢٢ ، ٢٣) تشرق الشمس فتجتمع ، وفى مآويها تربض ، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء .

(الفقرة ٢٤) ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت ، ملأت الأرض بغناك .

(الفقرتان ٢٥ ، ٢٦) هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ، هناك دبية بلا عدد صغار حيوان مع كبار ، هناك تجرى السفن ...

(الفقرة ٢٧) كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه .

(الفقرة ٢٨) تعطيها فتلتقط ، تفتح يدك ، فتشبع خيرا .

(الفقرة ٢٩) تحجب وجهك فترتاع ، تنزع أرواحها فتموت .

(الفقرة ٣٠) ترسل روحك فتخلق ، وتجدد وجه الأرض .

هذه الآيات من العهد القديم التى تقابل الفقرات الآتية من أنشودة اخناتون فى تمجيد إلهه «آتون» وسنضع رقم الفقرة أمام النص المقابل له فى الأنشودة .

(٢٠ ، ٢١) (إذا غربت فى أفق المساء الغربى ، أظلمت الأرض ، وأصبحت كالجثة الهامدة ، وهرع الناس إلى منازلهم ليناموا وتهدأ حركتهم ، ولا ترى عين عينا أخرى ، ولا يرى أحدهم الآخر » حتى أن أمتعتهم تسرق من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا ، أما الأسود فتخرج من أدغالها ، وتبدأ الثعابين اللداغة تسعى على الأرض . هذه هى مملكة الظلام إذ يخيم السكون على العالم ، لأن خالق الأرض قد ذهب ليستريح فى أفقه ...) .

(٢٢ ، ٢٣) (إذا ما أشرقت فى أفقك كآتون يبدأ النهار ويعم النور الأرض ، وإذا ما بزغت أشعتك اختفى الظلام ، وعم الفرح أرض مصر ، ويبدأ الناس بالوقوف على أقدامهم ثم يغسلون ويبتهلون بأذرعتهم إليك وقت شروقك ، ثم يخرجون سعياً وراء أرزاقهم) .

(٢٤) « ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ، أنت الإله الواحد الذى ليس له مثيل خلقت الأرض طبقاً لما تريد ، ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت

الإنسان والحيوان ، الكبير منه والصغير ، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض ، وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء . أنت الذى أحللت كل إنسان فى سورية والنوبة ومصر فى محله ، وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودات ، وقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم ، وكذلك أشكالهم وألوان أجسادهم ، أجل لقد ميزت الشعوب » .

(٢٥ ، ٢٦) (تبحر السفن مع التيار وعلى عكسه ، وكل طريق عام يصبح مطروقاً ، لأنك ظهرت فى الأفق ، أما السمك فيقفز فى النهر أمامك لأن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحار) .

(٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) (أنت خالق النيل فى السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر ، ويسقى حقولهم بما تحتاج إليه ، ما أعظم تدبيراتك يا سيد الأبدية فقد وهبت شعوب الجبال نيل السماء (المطر) أما النيل الذى يخرج من العالم السفلى فقد وهبت مصر إياه ، إن أشعتك تغذى الأرض وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت) .

هذه هى المعانى التى وردت فى كل من أنشودة إخناتون وفى الآيات السالفة الذكر من المزمور رقم ١٠٤ ، وهى تدل فى إسهابها ولغتها البدائية ومعانيها التى أخذت تظهر فى اللاهوت المصرى منذ أقدم العصور على أنها أصيلة فى مصريتها وأنها كانت الأصل الذى نقلت منه إلى كتاب العهد القديم(١) .

ولكن هذا الاستنتاج لا يطعن فى رسالة داود ، فان اليهود فى منفاهم فى بابل أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية ، ولم يجعلوا داود نبياً بل ملكاً له خطايا قد يترفع عنها سواد البشر . إن القرآن المجيد يقرر أن الله قد آتى داود زبوراً كما آتى موسى فرقاناً ولم يثبت أن المزامير الواردة فى توراة بابل هى الزبور الذى ذكره الله فى قرآنه .

* * *

وطال على بنى إسرائيل الأمد فقست قلوبهم وران ظلام الشرك على

---

(١) دكتور عبد المنعم أبو بكر : إخناتون ص ٤٢ وما بعدها .

عقولهم ونسوا الإسلام الذى جاءهم به موسى عليه السلام ، فوصفوا الله بالصفات البشرية ونسبوا القرابة الإنسانية إليه ، فأطلقوا على أنبيائهم عمائيل (من العمومة) أو إيل أب من الأبوة ، وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية(١) .

ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ! ! وأنه دفن موسى حينما مات فى موآب ؟ ؟ ثم اتخذوا التماثيل رمزاً للإله وسرعان ما عبدوها . وقد جاء فى الاصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الأول أن حزقيا ملك اليهود : (. . . . أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها) .

* * *

يشك المؤرخ — ول ديورانت — فى صحة التوراة ، ويرى أن أهواء اليهود قد لعبت بها ، فجعلت من أسفارها سجلا للأحداث التى مرت بهم ، فكان كل سفر منها يحمل طابع العهد الذى دون فيه ، مصطبغاً بما فى نفوس أبناء هذا العهد من بؤس ونعيم ، أو هزيمة وانتصار .

إذ لم تكتب التوراة فى وقت نزولها على موسى ، وإنما كتبت بعده بمئات السنين ، ويحكى « ديورانت » قصة الظروف التى أدت إلى التفكير فى كتابة التوراة . والناظر فى الظروف والملابسات التى باشرت هذا الحدث يتبين له أن شيئاً من التحريف والتبديل قد دخل على أصل التوراة ، ليناسب الحال التى صار إليها اليهود بعد أن لعبت بهم الأحداث ، وبعد أن أصابهم ما أصابهم على يد الغزاة من تقتيل وتشريد .

يقول « ديورانت » : وكان سبب كتابتها — أى التوراة — أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » إلى عبادة الآلهة الأجنبية ؟ فأخذ الكهنة يتساءلون : ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القديمة ؟

(١) عباس العقاد : كتاب الله ، ص ١٠١ .

ورأوا الأنبياء يعزون إلى « يهوه » ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدون . « فاعتزموا — أى الكهنة — أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن إلهية ، تبث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء ... وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف .. وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك « يوشيا » فلما كانت السنة الثامنة أو نحوها من حكمه — يوشيا — أبلغ الكاهن « حلقيا » الملك أنه « وجد » فى سجلات « الهيكل » ملفاً عجيباً ، قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية ، التى كانت مثار جدل عنيف بين الكهنة والأنبياء . وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفوس القوم . . . فدعا « يوشيا » كبارهم إلى الهيكل ، وتلا عليهم فيه سفر « الشريعة » فى حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر ؟ » .

ويعلق ديورانت على هذا الخبر فيقول :

« ولسنا نعلم على اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا ؟ فقد يكون سفر الخروج — من الاصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر « تثنية الاشتراع » . وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك الساعة ... فكل ما فيه أنه يقنن ، ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد(١) » .

وقد وقعت بعد هذا العهد الذى أقسم فيه اليهود على احترام ما جاء فى سفر الشريعة — وقعت أحداث زلزلت عقيدة اليهود فى « يهوه » — الله — وتغيرت تبعاً لذلك نظرتهم الى الحياة .

كانوا قد أصيبوا بضربة قاضية على يد « نبوخذ نصر » فقد دمر الهيكل ، وضاع كل أمل اليهود فى إقامة دولة — تعتمد على « يهوه » الذى صوروه إله حرب يعمل لهم ، ويقتل الناس من أجلهم ؟ ؟ .

---

(١) قصة الحضارة ، جـ ٢ ، ص ٣٥٦ .

وكان من المحتم ... إجراء تعديل فى الشريعة القديمة التى عثر عليها « حلقيا » وادعى نسبتها إلى « موسى » عليه السلام — وذلك لكى ترضى الشريعة القديمة تلك النزعة التى ولدتها الأحداث فى نفس اليهود ، والتى تغيرت بها نظرتهم إلى « يهوه » .

وكما ظهر « حلقيا » فى الحركة الأولى ظهر « عزرا » فى تلك الحركة ... فنى عام ٤٤٤ ق . م . دعا عزرا — وهو كاهن عالم — اليهود إلى اجتماع عام ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه — « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرءون ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ، ويتخذوها ، دستوراً لهم يتبعونه ، ومبادىء يسيرون على هديها ، ويطيعونها إلى أبد الآبدين ...

وكان هذا ابتداء العهد الجديد ؟ ؟

وقد ظلت تلك الشرائع — شرائع العهد الجديد — من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحوز الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم[1] .

يقول ديورانت :

(لم يكن فى هذا الدين — شريعة موسى — جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن « شيول » أو « أرض الظلام » التى تحت الأرض لم تقل هولا عن هذا الجحيم ... وكان يلقى فيها الموتى جميعهم ، الطيب منهم والخبيث.

على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ...

ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلود ...

وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا ؟ ؟

ولم تدر فكرة البعث فى خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض[2]) .

(١) قصة الحضارة ؛ ج ٢ ، ص ٣٦٦ . (٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٥ .

« ولعلهم أخذوا هذه الفكرة — فكرة البعث — عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين ...[١] » .

هكذا يقول ديورانت . ونحن نخالفه فى هذا . فان شريعة موسى لا شك قد حملت إلى بنى إسرائيل صورة واضحة عن البعث ، والحساب ، والجنة والنار ... وإن يكن بنو إسرائيل قد عبثوا بهذه الصورة فى عهد من عهودهم حين غزا « نبو خذ نصر » « بختنصر » إسرائيل وحمل بنى إسرائيل أسرى إلى بابل ، وفى أرض المنفى تأثر بنو إسرائيل بعقائد البابليين ونسوا الجنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن أحرق بختنصر كل نسخ التوراة . وفى أرض السبى أعاد أنبياء بنى إسرائيل كتابة التوراة فدسوا فيها أساطير الشعوب ووصموا أنبياء الله بكل نقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها فقد خلت التوراة التى كتبت فى بابل من ذكر البعث واليوم الآخر .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب[٢] قبل أن تكتب التوراة فى بابل بآلاف السنين ، وهذه الحقيقة تدحض رأى علماء المقابلة بين الأديان القائل بالترقى فى الديانات على مر العصور . ألم يكن الفراعين الأولون أكثر رقيا فى العقيدة من بنى إسرائيل فى المنفى ؟ ؟ .

وفى ذلك الوقت قامَ فى فارس زرادشت يدعو إلى عبادة أهورا مزدا إله النور ، وهو إله واحد . خلق الدنيا بخيرها وشرها . وخلق الإنسان وجعل له عقلا ، وأعطاه القلم بيده ، وتركه يسطر فى لوحه ما يريد ، بعد أن بين له طرق الخير وأمره باتباعها ، وبين له طرق الشر وأمره بمقاومتها ، فلا تواكل عند زرادشت ، وللمرء الإختيار .

أهورامزدا حين خلق الإنسان أعده لخوض معركة مستمرة ، لا راحة منها ، بين أصلين ، أحدهما الخير والثانى الشر . أحدهما النور والثانى الظلمة . أحدهما طيب والثانى خبيث .

---

(١) قصة الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٢) دكتور سليم حسن . تاريخ الحضارة المصرية ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

الرجل الذى يعمل الخير ويتجنب الشر ليس بكامل الإيمان عند زرادشت، لأن المؤمن عنده هو من يعمل الخير ويقاوم الشر . إنه لا يوافق على السلبية فى الدين وإثم من يرى الشر ويسكت عنه ، اكتفاء بأنه هو خير نفسه ، لا يقل عن إثم من ارتكب الشر ذاته ، لأن المعركة الأزلية قائمة بين الأصلين ، ورسالة زرادشت قائمة على حث الناس على الوقوف فى صف الخير والعمل الجدى على قهر الشر .

والخير والشر متشابكان ، وليس أحدهما مستقلا عن الآخر ، وهما يتصارعان فى العالم الذى نعيش فيه . يتصارعان فى الوطن الواسع الأرجاء ، ويتصارعان فى الأسرة المحدودة العدد ، ثم يتصارعان فى نفس الإنسان . وعلى الزردشتى أن يحارب فى هذه الميادين الثلاثة ، والنصر بجانبه إذا بدأ بنفسه ، لأن جهاد النفس أشق الجهاد .

والمؤمن الحق الذى ينفذ وصية زرادشت ويعمل بمبادئه فى مقاومة النفس الأمارة بالسوء ، هو الذى يتبع فى سلوكه ثلاثة مبادىء : الفكر الطيب ، والقول الطيب ، والعمل الطيب . والدولة ترقى وتسعد كلما كثر المؤمنون من هذا النوع [١] .

عرفت فارس التوحيد واعتنق الناس ديانة زرادشت ، وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزجوا الأساطير بالدين القيم فاذا بأهورامزدا يصبح على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة .

وعرف المجوس الثنائية فى العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله النور والخير وأهريمان إله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قدماء المصريين فقالوا إن أزوريس إله الخير وست إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يدحض زعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتى غالباً بعد التوحيد وأنها ليست نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدماً من الأدنى إلى

---

(١) دكتور يحيى الخشاب : هداة الإنسانية فى الشرق ، ص ٩٢ .

الأعلى ، لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة.

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم ، يقول « ديورانت » فى موقف اليهود من الإله :

« فالإله عندهم لا يرتفع كثيراً فى علمه ، وفى قدرته عن إنسان ؟ ؟ لقد طلب الإله — كما تقول التوراة — إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم ، بأن يرشوها بدم الكباش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم على غير علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين ؟ ؟ .

وهو — أى الإله — عندهم كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ، وهو حى لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره ؟

وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا[1] ؟ ؟ . يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم . ويزعم بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت فى الشرق الأوسط ويسوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يلبسوها ثوب العلم . بيد أن الباحث فى ديانات الهند وفارس والممالك التى كانت معروفة فى زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمستها الأساطير لما طال على الناس العهد . وإن القرآن المجيد يقرر : « إن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

ويذكر الشهرستانى أن اليونان عرفت النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس أول من تفلسف فى « ملطية » . قال : إن للعالم مبدعاً ، لاتدرك صفته العقول من جهة هويته ؛ وإنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذى لا يعرف إسمه فضلا عن هويته ؛ إلا من نحو : أفاعيله ؛ وإبداعه، وتكوينه الأشياء ... فلسنا ندرك له إسما من نحو ذاته ؛ بل من نحو ذاتنا .

---

(١) قصة الحضارة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

وقال : إن الماء هو المبدع الأول . وفى التوراة فى السفر الأول منها أن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر إليه نظرة إلهية ، فذابت أجزاؤه ، فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان ، فخلق منه السموات ، وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر ، فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال . وكأن تاليس الملطى إنما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية (١) .

ويقول أنكسيمانس الملطى : إن البارى تعالى أزلى لا أول له ولا آخر : هو مبدأ الأشياء ولا بدء له : هو المدرك من خلقه أنه « هو » فقط ، وأنه لا « هوية » تشبهه ، وكل هوية فمبدعة منه ، هو الواحد ليس كواحد الأعداد ؛ لأن واحد الأعداد يتكثر ، وهو لا يتكثر . أبدع بوحدانيته صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعثت عنها ببدعة البارى تعالى(٢) ويقرر الشهرستانى فى نهاية حديثه عن فلسفة أنكسيمانس : (هو أيضاً من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارات القوم التبس) .

ويقول الشهرستانى عن « أنبادقليس » أنه (من الكبار عند الجماعة ، دقيق النظر فى العلوم، رقيق الحال فى الأعمال . وكان فى زمن داود النبى عليه السلام ، مضى إليه وتلقى منه العلم ، واختلف إلى لقمان الحكيم، واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى « يونان » وأفاد .

قال : إن البارى تعالى لم تزل « هويته » فقط ، وهو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة ، والقدرة والعدل والخير والحق ؛ لا أن هناك قوى مسماه بهذه الأسماء ، بل هى ، هو ، وهو ، هذه كلها ...)

ويمضى الشهرستانى فى سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة ، ويبدؤن بتاليس الملطى وينتهون بأفلاطون ، مؤكداً أنهم قد أخذوا الحكمة من معدن النبوة ، فيقول إن فيثاغورس بن منسارخس كان فى زمان

---

(١) كتاب الملل والنحل ، ص ٦٦ — ٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ٧١ .

سليمان النبي . وهو الحكيم الفاضل ، ذو الرأى المتين ، والعقل الرصين . وقد ادعى أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه . وبلغ فى الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ، ووصل إلى مقام الملك ، وقال : ما سمعت شيئاً قط ألذ من حركاتها ، ولا رأيت شيئاً أبهى من صورها وهيئاتها .

وقال : إن البارى تعالى واحد لا كالآحاد ، ولا يدخل فى العدد ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلى يدركه ولا المنطق النفسى يصفه ، فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله .

ويقول الشهرستانى عن سقراط إنه الحكيم ، الفاضل ، الزاهد ، من أهل « أثينية » ، وكان قد اقتبس الحكمة من « فيثاغورس » و « أرسالاوس » . واقتصر من أصنافها على الإلهيات والأخلاقيات . واشتهر بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، وأعرض عن ملاذ الدنيا ، واعتزل إلى الجبل ، وأقام فى أعلاه .

ونهى الرؤساء الذين كانوا فى زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان ؛ فثوروا عليه الغاغة وألجأوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ، ثم سقاه السم .

قال سقراط : إن البارى تعالى لم يزل هوية فقط ؛ وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف ، والقول فيه : وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه(١) وصفه ، وحقيقته ، وتسميته ، وإدراكه ؛ لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقاً ، والواصف لكل شىء وصفاً ، والمسمى لكل موجود اسما ؛ فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ؟ ؟

فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهى أسماء وصفات ؛ إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر ، المخبرة عن حقيقته وذلك مثل قولنا

(١) الكنه بالضم : جوهر الشىء وغايته ، واكتنهه وأكنهه : بلغ كنهه .

« إله » أى واضع كل شىء ، و« خالق » أى مقدر كل شىء ، و « عزيز » أى ممتنع أن يضام ، و « حكيم » أى محكم أفعاله على النظام ... وكذلك سائر الصفات .

ثم إن من مذهب سقراط : أن أخص ما يوصف به البارى تعالى هو كونه : حياً ، قيوماً ؛ لأن : العلم ، والقدرة ، والجود ، والحكمة ؛ تندرج تحت كونه حياً ؛ و« الحياة » صفة جامعة للكل ، والبقاء ، والسرمد ، والدوام ، وحفظ النظام فى العالم : تندرج تحت كونه قيوماً ، و « القيومية » صفة جامعة للكل ، وربما يقول : هو حى ناطق من جوهره أى من ذاته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ؛ ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد ، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه تعالى وتقدس .

ومن مذهب سقراط : أن النفوس الإنسانية كلها كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود : إما متصلة بكلها ، وإما متمايزة بذواتها وخواصها ؛ فاتصلت الأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوالبها وآلاتها ، فتبطل الأبدان ، وترجع النفوس إلى كليتها .

وقال الشهرستانى عن أفلاطون الإلهى (إنه من آخر المتقدمين الأوائل الأساطين ، معروف بالتوحيد والحكمة ، ولد فى زمان « أردشير بن دارا » فى سنة ست عشرة من ملكه ، ولما اغتيل « سقراط » بالسم ومات ، قام مقامه ، وجلس على كرسيه . وقد أخذ العلم من سقراط وطيماوس ، وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضية . وحكى عنه قوم ممن شاهده وتتلمذ له مثل « أرسطوطاليس » و « طيماوس » و « ثاوفرسطيس » ... أنه قال : إن للعالم محدثا ، مبدعاً ، أزلياً ، واجباً بذاته ، عالماً بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان فى الأزل ولم يكن فى الوجود رسم ولا طلل إلا مثالا عند البارى تعالى ، ربما يعبر عنه بالهيولى وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور المعلومات فى علمه تعالى .

قال : فأبدع العقل الأول ويتوسطه النفس الكلية ، وقد انبعثت عن العقل انبعاث الصورة فى المرآة ويتوسطها العنصر .

وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية ؛ كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات فان الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العنصر فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ؛ غير أن الفرق : أن المنطبع فى المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك ، وأن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك ؛ فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص ؛ فلها الوجود الدائم ، ولها الثبات القائم ، وهى تتمايز فى حقائقها تمايز الأشخاص فى ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية ؛ لأن كل مبدع ظهرت صورته فى حد الإبداع فقد كانت صورته فى علم الأول الحق ، والصور عنده بلانهاية ؛ ولو لم تكن الصور معه — فى أزليته — فى علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهيولى » . ولو كانت تدثر مع دثور « الهيولى » لما كانت على رجاء ولا خوف ، ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية فى ذلك العالم ترجو اللحوق بها وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حساً ومحسوساً ، وعقلا ومعقولا ، وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات ، وهى محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ؛ فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات ، وهى غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فتكون مثلا عقلية .

أخذ الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة ، فلما طال على الناس الأمد تشعبت آراء الفلاسفة وحكمهم . وقد تفلسف أهل الكتاب الأول بعد أن أفسدوا التوراة فى أرض المنفى ، وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا

قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة فيلون السكندرى الذى ولد فى السنة العشرين قبل الميلاد وتوفى بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

« تقدم اليهود فى الزمن وتقدموا فى دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه فى مدينة الاسكندرية قبيل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة فى العالم المتحضر ، بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الأغريق .

واليهود كما هو معلوم لايتحولون عن عقائد آبائهم وأجدادهم وإن خالفت كل ما تعلموه ودرسوه ودرجوا على التفكير فيه ، لأن عقيدتهم بالنسبة إليهم أكثر من عقيدة دينية : هى جنس ومعقل دفاع فى وجه الأمم التى يعادونها وتعاديهم . فهم أحوج الناس إلى التوفيق بين العقيدة والفكرة لفهم الدين على النحو الذى يستبقى الصلة بينهم وبين أسلافهم ولايقطع الصلة بينهم وبين الزمن الذى يعيشون فيه .

وقد تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق من ملابسات المادة .

فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التى اسندت إلى الله فى كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة ، ولم يستطع أن يجارى الفلاسفة فى عزلهم بين الله ومخلوقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئاً غير أنه موجود ، ولكنه فى وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته فى هذه الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التى أسندت إليه فى كتب أنبياء اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لايرفضها ولكنه يقبلها على الرمز والمجاز ، ويقول إنها تنطوى على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص يفهمها المستعدون لها على درجات .

وأما الاتصال بين الخالق والمادة فانما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، وهى عنده تقابل كلمة لوجوس وتارة تقابل كلمة نوس اليونانيتين .

فالعقل يصدر عن الله ، والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التى تشبه القول بوحدة الوجود ، وتجعل اللهمن العالم والعالم من الله . . . ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو فى تجريده الله عن العمل للمخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد .

وغنى عن القول كذلك أن فيلون يرفض زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أوزمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان ، ويرفض زعم الزاعمين أن الله لايستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » أو اللوجوس لهذه الموجودات الأرضية ، وأن موسى عليه السلام هو اللوجوس الذى استجاب الله دعاءه فى سيناء ، وهو الذى خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية (١) » .

كان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية فى بنى اسرائيل ، فتابعه أناس فى التأويل والتفسير ، وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم الملتزمون للنصوص وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها وبين مقررات العلم العلم ومذاهب الحكمة .

أفسد اليهود التوراة فى أرض السبى وكتبوها بأيديهم ، وران الظلام على الأفئدة ، وضلت العقول ، فأرسل الله إلى بنى اسرائيل المسيح عليه السلام

---

(١) عن كتاب « الله » للعقاد .

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) .

ودعا المسيح إلى الإسلام وآمن له الحواريون :

« وإذْ أَوْحيْتُ إِلَى الْحوارِيِّين أَنْ آمِنُوا بِى وبِرسُولِى قَالُوا آمنَّا واشْهدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١) » .

ولم يطل مكث الإسلام الذى جاء به المسيح فى الأرض ، فقد مزجت الأمثلة الدينية بصور الفلسفة . وضاع الإسلام الذى جاء به المسيح فى ركام الفلسفة والأساطير ، وظهر الفساد فى البر والبحر . وفى ذلك الوقت أرسل الله محمد بن عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .

وكان الإسلام منذ بدء الخليقة هو دين الله ، دعا إليه كل الرسل والأنبياء ويؤيد ذلك قول الله تعالى :

« إن الدِّين عِنْد اللهِ الإِسْلَام » .

وقد أنزل الله العلى القدير على رسله كتباً لهداية البشر فاندثرت أوحرفت أوكتبت بأيدى الناس ثم قالوا : هذا من عند الله . ولما كان الله سبحانه وتعالى قد جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات فقد كتب على نفسه حفظ كتابه الكريم .

فقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

وإن كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيدهذه الحقيقة تأكيداً ورسوخاً .

---

(١) سورة المائدة : ١١١ .

الفصل الرابع

القصص النبوى فى القرآن

(١)

وردت القصة فى القرآن المجيد لتحقيق أغراض دينية صرفة ؛ وقد تناولت من هذه الأغراض عدداً كبيراً من العسير إحصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية ؛ فإثبات الوحى والرسالة وإثبات وحدانية الله الواحد القهار ، وتوحد الأديان فى أساسها ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية ، والمرامى الخلقية ، قد تناولته القصة ، وكانت أداة له وسبيلا إليه . وسنعرض من بعد أهم أغراض القصة القرآنية .

١ — إثبات الوحى والرسالة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم — لم يكن كاتباً ولا قارئاً ، ثم جاءت قصص الرسل والأنبياء ، والأمم السابقة فى القرآن دليلا على وحى يُوحى — والقرآن ينص على هذا الغرض فى مقدمات بعض القصص أوفى ذيولها . جاء فى أول سورة « يوسف» :

« إنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآنًا عربيًّا لَعلَّكُمْ تعْقِلُونَ . نحْنُ نقُصُّ علَيْكَ أَحْسن الْقصصِ بِما أَوْحيْنا إلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ ، وإنْ كُنْتَ مَنْ قَبْلِهِ لَمِن الْغافِلِين »(١) .

وجاء فى سورة القصص قبل عرض قصة موسى :

« نتْلُو علَيْكَ مِنْ نبإِ مُوسى وفِرْعوْنَ بِالْحقِّ لِقوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وبعد

---

(١) سورة القصص : ٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

انتهائها « وما كُنْتَ بِجانِب الْغرْبِيِّ إِذْ قَضيْنا إِلَى مُوسى الأَمْر ، وما كُنْتَ مِن الشَّاهِدِين ، ولَكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُونًا فَتطَاول علَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وما كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مدْين تتْلُو علَيْهِمْ آياتِنا ، ولٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين . وما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ، ولَكِنْ رحْمةً مِنْ ربِّكَ ، لِتُنْذِر قَوْمًا ما أَتاهُمْ مِنْ نذِيرٍ منْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يتذَكَّرُونَ » .

وجاء في سورة « ص » قبل عرضه قصة آدم :

« قُلْ : هُو نبأٌ عظِيمٌ . أَنتُمْ عنْهُ مُعْرِضُونَ . ما كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْملَإِ الأَعْلَى إِذْ يخْتصِمُونَ . إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنا نذِيرٌ مُبِينٌ . إِذْ قَال ربُّكَ لِلْملَائِكَةِ : إِنِّي خالِقٌ بشَرًا مِنْ طِينٍ (١) » .

٢ — بيان أن الدين كله من عند الله ، فجميع الأنبياء أمة واحدة ، والله الواحد رب الجميع ؛ وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة ، لتؤيد هذه الحقيقة . جاء في سورة الأنبياء(٢) :

« ولَقدْ آتيْنا مُوسى وهٰرُونَ الْفُرْقَانَ وضِياءً وذِكْرًا لِلْمُتَّقِين . الَّذِين يخْشَوْنَ ربَّهُمْ بِالْغيْبِ وهُمْ مِن السَّاعةِ مُشْفِقُونَ . وهذَا ذِكْرٌ مُباركٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ . ولَقدْ آتيْنا إِبْراهِيم رُشْدهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالِمِين . إِذْ قَال لِأَبِيهِ وقَوْمِهِ ما هٰذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ ؟ قَالُوا : وجدْنا آباءنا لَها عابِدِين . قَال لَقدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآباؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتنا بِالْحقِّ أَمْ أَنْتَ مِن اللَّاعِبِين . قَال بلْ ربُّكُمْ ربُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ الَّذِي فَطَرهُنَّ وأَنا علَى ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين . وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ

(١) سورة ص : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ . (٢) الآيات من ٤٨–٨٣ .

جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ اسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاه مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ، إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ؟

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ . وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ . كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَذَا النُّونِ[1] إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ، أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا[2] ، فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ . إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »[3]

(١) يونس صاحب الحوت . (٢) مريم .

(٣) سورة الأنبياء : من ٨٤ إلى ٩٢ .

وحى واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة ، وأمة واحدة ، من لدن آدم حتى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ويربى القرآن المجيد المؤمن على الإحساس بهذه الحقيقة الباهرة التى تسلكه فرداً فى الأمة المؤمنة الواحدة ، الأمة الممتدة فى الزمن على طول الحياة والتى تسلك المؤمنين جميعاً فى موكب واحد فى طريقه إلى الله .

(إِنَّ هَذِهِ أُمتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُم فاعْبدُون) .

ونظرة البشرية لهذه الأمة نظرة واحدة فى كل زمان ومكان ، واستقبالها واحد واعترافها واحد .

« كذٰلِك مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَواصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قوْمٌ طاغُون » .

وبذلك يشعر المؤمن أنه واحد فى الصف المؤمن الطاهر ، وأنه فرد فى الأسرة المؤمنة التى تمتد فى الزمن ، وهو رصيد ضخم يمده بالقوة والصبر ، وإحساس بالعزة والاستعلاء على كل ما فى الحياة من أباطيل ، وشعور بالقوة والكرامة — حتى ولوكان وحده فى الحياة — لأنه واحد من صفوة بنى الإنسان ، وهى تربية عميقة الجذور وثيقة الصلة بالعقيدة ؛ حتى لايكون الدين سبباً للخلاف والفرقة والتعصب ، وحتى يكون المؤمنون على يقين من حقيقة وضعهم من الإنسانية عامة . فهم دعاة إلى الله ، وحملة مبادىء الحياة الشريفة الطاهرة ،وأسس الإنسانية المؤمنة الفاضلة ، وهى أمانة لاتستطيع حملها أمة تنطوى نفوس أبنائها على عداء أوتعصب .

٣ — بيان أن الدين كله موحد الأساس — وأنه كله من عند إله واحد — وتبعاً لذلك كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك ؛ مكررة فيها العقيدة الأساسية ، وهى الإيمان بالله الواحد القهار .

جاء فى سورة «الأعراف» :

« لقَدْ أرْسَلْنَا نُوحًا إلَى قَوْمِهِ ، فقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالكُمْ مِنْ إلٰهٍ غيْرُهُ ... » .

« وَإلَى عَادٍ أخاهُمْ هُودًا قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لكُمْ مِنْ إلٰهٍ غيْرُهُ ... » .

« وَإلَى ثمُودَ أخاهُمْ صَالِحًا قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لكُمْ مِنْ إلٰهٍ غيْرُهُ ... » .

« وَإلَى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لكُمْ مِنْ إلٰهٍ غيْرُهُ ... » .

فهذا التوحيد لأساس العقيدة ، يشترك فيه جميع الأنبياء والرسل ، وترد قصصهم مجتمعة فى هذا السياق ، لتأكيد ذلك الغرض الخاص .

٤ — بيان أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة وأن استقبال قومهم لهم متشابه — فضلا على أن الدين من عند إله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد — وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة ، مكررة فيها طريقة الدعوة :

جاء فى سورة « هود » .

« وَلقَدْ أرْسَلْنَا نُوحًا إلَى قَوْمِهِ : إنِّى لكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا الله . إنِّى أخافُ عَليْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ ألِيمٍ . فقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ قوْمِهِ ، مَا نَرَاك إلَّا بَشرًا مِثْلنا ، وَمَا نَرَاك اتَّبَعَك إلَّا الَّذِينَ هُمْ أرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْى ، وَمَا نَرَى لكُمْ عَليْنَا مِنْ فضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ » إلى أن يقول « وَيَا قَوْمِ لَا أسْألُكُمْ عَليْهِ مَالًا إنْ أجْرِىَ إلَّا عَلَى اللهِ

وَمَا أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُون . وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفلَا تَذكَّرُون . وَلَا أَقُولُ لكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لنْ يُؤْتِيَهُمْ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لمِنَ الظَّالِمِينَ . قالُوا يَا نُوحُ قدْ جَادَلْتَنَا فأَكْثَرْت جِدَالنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْت مِنَ الصَّادِقِينَ » .

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قالَ : يَا قوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غيْرُهُ . إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُون . يَاقوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَليْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَى الَّذِى فطرَنى ، أَفلَا تَعْقِلُون ؟ » إلى قوله « قالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قوْلِك ، وَمَا نَحْنُ لك بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ : إِلَّا اعْتَرَاك بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ . قُلْ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُون . مِنْ دُونِهِ ، فكِيدُونى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونِ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكِمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ... » .

« وَإِلَى ثمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قالَ يَاقوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غيْرُهُ هُوَ أَنْشأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِليْهِ إِنَّ رَبِّى قرِيبٌ مُجِيبٌ . قالُوا يَاصَالِحُ قدْ كُنْت فِينَا مَرْجُوًّا قبْلَ هَذا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لفِى شكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِليْهِ مُرِيب » .

يتبين لنا من ثنايا القصص القرآنى للأنبياء أن دعوة التوحيد والإصلاح التى نادوا بها كانت تصل أول ما تصل إلى قلوب عامة الناس والضعفاء منهم ، أما السادة الأقوياء فكانوا يضعون على قلوبهم أقفالها ، ويناصبون الأنبياء العداء ، فهم أساس الداء ، ومبعث الشر والبلاء . وليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة ، لأن الملأ من الناس فى جملتهم يأنفون أن يكونوا أتباعاً مقلدين . وهذه الظلمات المتكاثفة من الكبرياء والأثرة والغرور كانت تحجب عنهم النور ، والحق عن قلوبهم ، وتمنعه من الظهور ، ومن أجل ذلك كانوا يتشبثون بالباطل ويسخرون ممن أصاخوا للحق واتبعوا دعوة الرسل . وفى قصة هود وصالح عليهما السلام نرى الملأ وهم السادة يحملون لواء المعارضة لهذين النبيين . ويحاولون أن يضللوا الضعفاء من الناس وأن يقاوموا دعوة الإيمان بالاضطهاد والطغيان .

ونحن نرى هذا المعنى يتجلى بكل وضوح فى موقف فرعون وملئه من موسى وقومه : فلقد كان هناك أشراف مستبدون فى أيديهم الملك والسلطان ، ومعهم الثروة والجاه والقوة وهم فرعون وملؤه ، ويقابلهم جماعة مستضعفون ليس لديهم ثروة ولا جاه ولا قوة ولا ملك ولا سلطان ، ولا يملكون إلا ما تنطوى عليه نفوسهم من إخلاص وإيمان ، وهم موسى وقومه . . ولقد كان الصراع رهيباً بين الفريقين ثم أحكم الله آياته فنصر الحق نصراً عزيزاً .
يقول الله تعالى :

« وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قوْمِ فِرْعَوْن أَتَذرُ مُوسَى وَقوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ويَذرَك وَآلِهَتَك ؟ قالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فوْقهُمْ قاهِرُون . قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ . قالُوا أُوذِينَا مِنْ قبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِك عَدُوَّكُمْ

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون . وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْن بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون » .

ثم يقول سبحانه : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّك بِمَا عَهِدَ عِنْدَك لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْز لَنُؤْمِنَنَّ لك وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَك بَنِى إِسْرَائِيلَ . فلمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إذا هُمْ يَنْكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِق الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » .

وفى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن الذين اتبعوه فى أول أمره هم الضعفاء . وأن الملأ من قريش هم الذين كادوا له : ثم ائتمروا به ليثبتوه أويقتلوه أويخرجوه ، وأن الله كان يقص علبه من أنباء الرسل مايثبت به فؤاده، ثم يأمره باتباع طريقهم حيث يقول سبحانه(فاصْبِر كَمَا صَبَرَ أولى العزم مِنَ الرسُلِ) وأن الله سينصره كما نصر أنبياءه فى النهاية ويهلك المكذبين .

جاء فى سورة العنكبوت » :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ — إِلَّا خَمْسِينَ

عامًا ـ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ » .

« وَإِبرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَومِهِ : اعبدوا الله وَاتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » إلى أن يقول « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَومِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » إلى أن يقول « إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيبًا فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعبُدُوا اللهَ وَارْجُو الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

« وَعَادًا وَثَمُودَ ـ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ـ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ » .

«وَقَارُونَ وَفِرعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ،فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرضِ وَمَا كَانوا سَابِقِينَ . »

« فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا . وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

٥ — كان من أغراض القصة تصديق التبشير والتحذير ، وعرض نماذج واقع من هذا التصديق ، كالذى جاء فى سورة « الحجر » :

« نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ »(١)

وتصديقا لهذا وذاك ، جاءت القصص على النحو التالى :

« وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : سَلَامًا . قَالَ : إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ . إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ... »

وفى هذة القصة تبدو (الرحمة) ثم : « فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ . قَالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ، وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ : أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ . وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ . قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ . قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) » .

وفى هذه القصة تبدو (الرحمة) فى جانب لوط ، ويبدو (العذاب الغليظ) فى جانب قومه المهلكين .

---

(١) سورة الحجر : ٤٩ — ٥٠ .
(٢) سورة الحجر : ٦٢ إلى ٧٦ .

ثم : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَآتَيْنَاهُم آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١) .

وفى هذه القصة يبدو « العذاب الأليم » للمكذبين .

وهكذا يصدق الأنباء ، ويبدو صدقه فى هذا القصص الواقع .

٦ — بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه ، كقصص سليمان وداود وأيوب وابراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف عدة .

٧ — تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان ، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم .

ولما كان هذا الموضوع خالداً ، فقد تكررت قصة آدم فى مواضع شتى جاء فى سورة الأعراف :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُمًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ » .

وجاء فى سورة الحجر : « قَالَ : يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

(١) سورة الحجر : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .

السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » .

إن ابراز العداوة بين الشيطان وأبناء آدم عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر ، وإسنادها إلى هذا العدو الذى لايريد بالناس خيراً .

٨ — وكان للقصة أغراض أخرى منها :

بيان قدرة الله على الخوارق : كقصة خلق آدم ، وقصة مولد المسيح ، وقصة ابراهيم والطير ، الذى آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً . وقصة « الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها » وقد أحياه الله بعد موته مائة عام .

وبيان عاقبة الشر والإفساد ، وعاقبة الطيبة والصلاح : كقصة ابنى آدم ، وقصة صاحب الجنتين . وقصص بنى اسرائيل بعد عصيانهم . وقصة سد مأرب ، وقصة أصحاب الأخدود .

(٢)

خضعت القصة فى القرآن المجيد للغرض الدينى — كما ذكرنا — فترك هذا الخضوع ثاراً واضحة فى طريقة عرضها وفى مادتها ، ونحن نعرض فيما يلى ، أوضح هذه الآثار :

١ — أن ترد القصة الواحدة — فى معظم الحالات — مكررة فى مواضع شتى . وقد كانت ظاهرة تكرار القصص القرآنى على تلك الصورة الواضحة مما لفت أنظار العلماء إليها ، وحرك عقولهم للكشف عن أسرارها ودواعيها .

يقول أبوبكر الباقلانى عنها فى كتابه : « إعجاز القرآن » : (إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً — من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتبين البلاغة) .

ثم يقول : (وأعيد كثير من القصص — القرآنى — فى مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة(١) ، ونبهوا — أى العرب — بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتدأ ومكرراً) .

ويقول « الزركشى » فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » : ومنه — أى من التكرار — تكرار القصص فى القرآن ؛ كقصة إبليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء . . قال بعض العلماء : ذكر الله موسى فى مائة وعشرين موضعاً من كتابه) .

ثم يكشف الزركشى عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول(٢) :

(وإنما كررها — أى القصة — لفائدة خلت عنه فى الموضع الآخر وهى أمور : أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً ، ألا ترى أنه ذكر الحية فى عصا موسى عليه السلام ، وذكرها فى موضع آخر ثعباناً ، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً ، وهذه عادة البلغاء ، أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة ، لصفة زائدة .

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ؛ وكان أكثر

(١) يريد بالتفاوت ، اختلاف صور العرض للقصة الواحدة بين الطول والقصر ، و الاجمال والتفصيل .

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٥ وما بعدها .

من آمن به مهاجرياً ، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة ، لآخرين وهم الحاضرون .

الثالثة : تسليته لقلب النبي صلى الله عليه وسلم مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »(١) .

الرابعة : أن ابراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام .

السادسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية ، لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا ، بأي عبارة عبروا .

السابعة : أنه لما سخر العرب بالقرآن قال : « فأتوا بسورة من مثله » ، وقال في موضع آخر : « فأتوا بعشر سور » ، فلو ذكر قصة آدم مثلا في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » . « إيتونا أنتم بسورة من مثله » ، فأنزلها سبحانه في تعداد السور ، دفعا لحجتهم من كل وجه .

الثامنة : أن القصة الواحدة من هذه القصص ؛ كقصة موسى مع فرعون وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى — فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم

---

(١) سورة هود : ١٢٠

وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فان كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها ؛ فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع ؛ كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة ، فاجتمعت فى هذه الخاصية ؛ من نظم القرآن عدة معان عجيبة :

منها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ، ولا أحدث مللا ، فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصانا وتقديما وتأخيراً ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فتكون شيئا معاداً ، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنها : أن المعانى التى اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة فى تارات التكرير فيجد البليغ — لما فيها من التغيير — ميلا إلى سماعها ، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل فى الأشياء المتجددة التى لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب فى إخراج صور متباينة فى النظم بمعنى واحد ؛ وقد كان المشركون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر فى تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد ، لقوله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) ..(١)

---

(١) سورة الكهف : ١٠٩ .

إن الاشارة المقتضبة التى أشار بها الزركشى فى قوله : إنه — أى القرآن إذا كرر القصة زاد فيها — هذه الاشارة هى فى رأينا أبرز داعية من دواعى التكرار القصصى . ونضرب مثالا على هذا النظام ، قصة موسى ، إذ أنها أشد القصص فى القرآن تكراراً . فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة وواضحة عن هذا التكرار .

١ — فى سورة الأعلى إشارة قصيرة « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » . وإشارة قريبة منها فى النجم (السورة ٥٣) .

٢ — وفى الفجر (السورة العاشرة) إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى مع عاد وثمود (... وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

وفى سورة البروج : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » .

٣ — وفى سورة الأعراف بدأ التفصيل الأول للقصة فى معرض قصص مشترك مع نوح وهود ولوط وشعيب . اتحدت فيه صيغة الدعوة وصيغة التكذيب ، والعقاب الذى أخذ المكذبين .

وقد بدأت القصة هنا برسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ..) ثم ذكرت معجزة العصا واليد البيضاء ، وجمع السحرة . والمباراة بينهم وبين موسى ، وغلبته عليهم ، وإيمانهم به . وتعذيب فرعون لبنى إسرائيل بعد ذلك ، وتسليط الجراد والقمل والضفادع والدم على فرعون وقومه ، واستغاثتهم بموسى ،

وكف الأذى عنهم ، وعودتهم لتعذيب بنى إسرائيل . ثم خروج هؤلاء من مصر ، وبعد الخروج طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلها كما للمصريين آلهة . وتذكيره لهم بربهم . ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة زيدت إلى أربعين وطلبه رؤية ربه ، ودك الجبل وانصعاق موسى وإفاقته ، وعودته إلى قومه حيث وجدهم قد اتخذوا لهم عجلا إلها ، وغضبه على أخيه ، ثم اختيار سبعين رجلا منهم لميقات ربه ، وغشيتهم بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم ، ثم دعاؤهم بطلب الرحمة ، فالرد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذين يتبعون النبي الأمي .

٤ — ثم ترد إشارتان للرسالة والتكذيب وإهلاك المكذبين ، فى قصص مشترك إحداهما فى سورة مريم ، والثانية فى سورة الفرقان .

٥ — وفى سورة طه يبدأ تفصيل آخر . يبدأ من حلقة أسبق من حلقة الرسالة التى ذكرت فى سورة الأعراف . تلك هى رؤية موسى للنار من جانب الطور :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا آتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى : إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ... » .

وبعد أن يكلف الذهاب إلى فرعون ، يسأل ربه أن يشد أزره بهرون ويكون وزيراً له ، فيذكره الله بنعمته عليه فى مولده ، ورده إلى أمه — فى إشارة سريعة — ثم تسير القصة كما سارت فى سورة الأعراف (مع حذف آيات الجراد والقمل والضفادع والدم ، وعهد فرعون لبنى إسرائيل

ونكثه . ومع زيادة حلقة وهى أن السامرى هو الذى صنع العجل ، وتفصيل قصة صنعه ، ويذكر الميعاد بسرعة ويغفل الميقات) .

٦ — وفى سورة الشعراء تبدأ القصة من حلقة الرسالة ، وتسير فى الخطوات التى سارت فيها إلى حلقة الخروج ، ولكنها تزيد هنا أمرين : الأول ذكر موسى أنه قتل رجلا من المصريين فهو يخشى أن يؤخذ به . وتذكير فرعون له بأنه قد ربى فيهم وليداً وفعل هذه الفعلة ومضى . والثانى ذكر انفلاق البحر كالطود العظيم وهذا وذاك مع تنويع فى الحوار بين فرعون وموسى ، وإثبات إلهه بصفاته وتنويع فى الحوار مع السحرة كذلك .

٧ — تذكر فى سورة النمل حلقة التكذيب والعقاب مجملة مع قصص مشترك

« إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » .

٨ — وفى سورة القصص تبدأ القصة من أول حلقة فيها : من مولد موسى إبان اضطهاد قومه . فوضعه فى التابوت وإلقائه فى البحر ؛ والتقاط آل فرعون له ، وتحريم المراضع عليه . وقول أمه لأخته أن تقص أثره .

ومعرفتها بأمره ، وإشارتها على آل فرعون بمرضع للطفل هى أمه . ثم كبره . ثم قتله للمصرى ، ومحاولته قتل آخر ، وتهديده إياه بافشاء سر القتلة الأولى . ونصح رجل له بالهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى . وخروجه إلى أرض مدين . والتقائه بينتى شعيب ، وسقيه لهما ، وإعجاب إحداهما به ، وحضها أبيها على استخدامه ، وعمله مع شعيب عشر سنوات . وزواجه بابنته حسب شرطه . ثم انفصاله عنه وذهابه بأهله . ثم رؤيته النار (التى بدأ منها القصة فى سورة طه) ثم تسير القصة كما سارت هناك بزيادة واحدة هى تهكم فرعون فى قوله :

« فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا . لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى » .

وتنتهى عند حلقة غرق فرعون ، بعد خروج موسى .

٩ — فى سورة الإسراء إشارة سريعة إلى إغراق فرعون والتمكين لبنى إسرائيل .

١٠ — فى سورة يونس عرض موجز — فى وسط قصص مشترك — لبيان عاقبة التكذيب .

وقد ذكرت فيه حلقة السحر باختصار ، وتجاوز بنى إسرائيل البحر ، واتباع فرعون لهم وغرقه . ولكن زاد فى حلقة الغرق أن يقول :

« حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » . فكان الرد عليه :

« الْآنَ ؟ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » . وهى زيادة لا ترد إلا فى هذا الموضع .

١١ — فى سورة هود إشارة خاطفة إلى الإهلاك بعد التكذيب فى صدد قصص مشترك .

١٢ — فى سورة غافر تعرض حلقة الحوار بين فرعون وموسى . ولكن يزيد فى هذا الحوار قول فرعون : « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه » . وظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يشير عليهم ألا يقتلوا ، رجلا يقول ربى الله . لأن قوله ذلك لا يصلح سبباً للقتل . وبخاصة إذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه . وأنه لو فرض أنه كاذب فيما يقول مالهم ضرر من كذبه . ولا يحملون شيئاً من إثمه . ولو فرض أنه كان صادقاً أصابهم بعض الوعيد الذى توعدهم به . وقد عارضه فرعون فيما رأى ووجه أقواله إلى الملأ ينتصر بهم على معارضته قائلا : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

عاد مؤمن آل فرعون إلى الكلام محذراً قومه بأس الله تعالى ووقعاته فى أمم عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم ممن انتقم الله منهم جزاء وفاقا بما صنعت أيديهم . وذكرهم أن الدعوة التى جاء بها موسى اليوم ليست جديدة . فقد جاء إلى آبائهم وإليهم ضمنا يوسف بالبينات . فلم ينل تصديقهم إياه حتى إذا هلك قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا . وأبان لهم أن ذلك من طبع الله على عقولهم وامساكه تعالى عن هدايتهم هداية مواصلة بالفعل إلى المقصود . وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازى على كل شىء . وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب .

تمادى قومه وجهدوا أن يردوه إلى دين قومه فلامهم على أنه يريد بهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم فهو يدعوهم إلى الإيمان وهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى — وأن الآلهة التى يدعونه إلى عبادتها لا تنفع فى الدنيا ولا تشفع فى الآخرة . وأن المرد إلى الله تعالى وأنه سيأتى عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم وأنه يفوض أمره إلى الله .

ولقد هموا به كما هموا بموسى فوقاه الله سوء عملهم وكانت عاقبته السعادة وعاقبة آل فرعون النار .

وهذه زيادة لا ترد فى غير هذا الموضع[١] .

١٣ — فى سورة فصلت إشارة خاطفة ، وكذلك فى سورة الزخرف إشارتان سريعتان : ولكن يزيد هنا أن فرعون يقول :

« أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ » وهى زيادة لا ترد إلا فى هذه السورة .

١٤ — فى سورة الذاريات إشارة سريعة إلى إرسال موسى إلى فرعون بسلطان مبين ، وتكذيبه وإهلاكه .

١٥ — وفى سورة الكهف تعرض حلقة مقابلة موسى لعبد من عباد الله أوتى من لدنه رحمة وعلم علما . وقد طلب إليه موسى أن يصحبه ليستفيد من علمه ، فأخبره أنه لن يصبر معه ليعلمه ، فوعده موسى أن يصبر ، ثم لم يستطع معه صبراً ، لأن الرجل أخذ فى تصرفات لا يدرك كنهها موسى ، ولا يعرف لها مغزى . فشرح له الرجل العالم سرها وافترقا . وهى حلقة تذكر مرة واحدة .

١٦ — فى سورتى الأنبياء وإبراهيم إشارتان سريعتان .

١٧ — فى سورة البقرة يأتى تفصيل آخر فى معرض تذكير بنى إسرائيل بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم ، ومقابلتهم هذه النعم بالمماطلة والجحود والنكران — وفى هذا المعرض تكرر بعض الحلقات التى سبقت فى قصة موسى — ومن ذلك أعطاؤهم المن والسلوى . ولكن يزيد هنا تبطرهم على هذه النعم وطلبهم أطعمة منوعة بدل المن والسلوى . ثم حلقة البقرة التى أمرهم الله بذبحها ، فجعلوا يتلكأون ، ويسألون عن صفتها ويتمحلون فيها ، حتى استنفدوا

---

(١) لم تذكر التوراة إئتمار القوم بموسى لقتله ولا مسألة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى وتذكيره قومه بيوسف .

المعاذير ، « فذبحوها وما كادوا يفعلون » . وهى حلقة جديدة لم تذكر من قبل أصلا .

١٨ — فى سورة النساء إشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة للتدليل على عنتهم .

١٩ — فى سورة المائدة تذكر حلقة وقوفهم على أبواب الأرض المقدسة لا يدخلون : (قالوا : ياموسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون . قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين) . ويتركهم هنالك فى التيه فلا يأتى بعد ذلك ذكر لموسى . ولا يذكر عن بنى إسرائيل إلا تفرقهم وعداؤهم لعيسى وللمسلمين .

هذه القصة أشد القصص تكراراً فى القرآن . وقد رأينا من هذا العرض نوع التكرار ؛ وأنه — فيما عدا ستة مواضع — إشارات وعظية إلى القصة اقتضاها السياق ؛ أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريباً ؛ وإذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد فى تكرارها . وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى ، وعلى ضوئها ندرك أن ليس فى القصص القرآنى ذلك التكرار المطلق ، الذى يخيل لبعض الذين يقرأون القرآن ، بلا تدقيق ولا إمعان .

٢ — وكان من آثار خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى — غير التكرار — أن تعرض بالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التى تتفق معه .

١ — فنجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن فى مولده عظة بارزة ، وذلك مثل :

قصة آدم « منذ خلقه » وفيها مظهر لقدرة الله العلى القدير ، وكمال علمه ، ونعمته على آدم وبنيه ، وفى حادثة إبليس معه ما فيها من أغراض دينية أشرنا من قبل إليها .

ومثل مولد المسيح : وهو يعرض بتفصيل دقيق ، ذلك أن مولده هو الآية العظمى فى حياته .

وقصة مريم : فقد نذرت لله وهى فى بطن أمها ، وتولى كفالتها زكريا ، ثم رزقت منذ مولدها رزقا حسناً من عند الله ، فكانت :

« كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

ثم تطوى حلقاتها حتى تأتى حلقة ميلاد المسيح . وهى الحلقة الهامة الثانية فى حياتها .

وقصة موسى : لأن مولده فى عهد اضطهاد بنى إسرائيل ، وتذبيح الذكور من أطفالهم ، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم.. دليل قاطع على رعاية الله له ، وإعداده إعداداً خاصاً للرسالة التى سينهض بها . ثم تذكر من حياته حلقاتها ذات المغزى .

وإسماعيل وإسحق تعرض حلقة مولدهما ، لأن فى هذا المولد عبرة ، فأولهما رزقه إبراهيم على الكبر ، وأسكنه بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، والثانى بشر به وامرأته عجوز ، وقد بلغ من الكبر عتيا .

ويذكر مولد يحيى لزكريا ؛ بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .

٢ — ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبياً :

فيوسف تبدأ قصته صبياً ، فمن هذه الحلقة يرى الرؤيا التى تسير حياته كلها ، وتؤثر فى مستقبله تأثيراً عميقاً ، إذ يرى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ؛ فيدرك أبوه مغزاها ويقربه إليه ، فيغار إخوته منه ... ثم تمضى القصة فى طريقها المرسوم بعد هذه الرؤيا .

وإبراهيم تبدأ قصته فتى ينظر فى السماء فيرى نجماً ؛ فيظنه إلهه ، فاذا أفل قال لا أحب الآفلين .

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ . فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

ويدعو أباه وقومه إلى عبادة الله فلا يستمعون إليه ولا يجيبونه ، فيحطم أصنامهم فى غفلة منهم حيث يقولون : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » ويهمون باحراقه ، فينجيه الله منهم ...

« قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ » .

وتبدأ قصة داود وهو فى مقتبل العمر . تبدأ بحلقة صراعه لجالوت — وهو فارس مغوار مشهور — فيغلب عليه داود ، لأن الله ينصره . ومن هنا تبدأ قصته .

ولعل سليمان كان فى مثل سن أبيه حينما جلس معه يحكم فى قضية الحرث :

« إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » .

ولقد كان هذا الحكم المبكر دلالة على ما أعده الله لسليمان من تدبير الملك .

٣ — ونجد قصصاً لا تعرض إلا فى حلقة متأخرة جداً :

فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة ، وهى الحلقة الوحيدة التى تعرض من حياتهم ، لأنها أهم حلقة منها ، والعبرة كامنة فيها .

هذا كله من ناحية الابتداء . وأما من ناحية التفصيل والإيجاز فهما كذلك خاضعان لما فى حلقات القصة من عظة وأهمية .

ومثال ذلك :

١ — قصة موسى تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها ، منذ مولده — بل قبل مولده — إلى وقوفه بقومه أمام الأرض المقدسة ، حيث كتب عليهم التيه أربعين سنة . جزاء وفاقا . لأن فى كل حلقة من حلقات القصة غرضاً دينياً يبرز ، وله صلة بأهداف القرآن العليا .

وقصة عيسى — مع شىء من الاختصار فى حلقاتها الوسطى — تذكر مولده بتفصيل كامل . وتذكر معجزاته بتوفية . وتذكر قصته مع الحواريين حين طلبوا المائدة فأنزلت عليهم . وتذكر حلقة تكذيبه ومحاولة صلبه ورفعه ، وتفرق قومه من بعده . ويزاد عليها تصوير موقفه يوم القيامة يسأله الله عز وجل : إن كان قد قال لقومه : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، فيتبرأ من ذلك إليه ، ويذكر أنه دعاهم لله وحده ، وأنه يدع أمرهم لله إن يشأ يرحمهم وإن يشأ يعذبهم .

ومنذ أن تبدأ قصة يوسف تسير مفصلة حتى تنتهى . فما يجرى له مع إخوته ، وما يحدث له فى مصر بعد شرائه وتربيته ، ومراودة امرأة العزيز له ، وسجنه ، وتأويله رؤيا خادمى الملك ، ثم تعبيره رؤيا الملك . وخروجه . وولايته على خزائن الأرض ، ومجىء إخوته وعودتهم ، ومجىء أخيه وعودة إخوته لأبيهم بدونه . وكمال القصة بقدوم أبيه وأهله . كلها تفصل تفصيلا دقيقاً ، أولا لاثبات الوحى والرسالة ، وثانياً لأن لهذه التفصيلات قيمتها الدينية فى القصة .

٢ — وهناك قصص متوسطة التفصيل :

فقصة نوح تذكر منها تفصيلات رسالته ودعوته لقومه واستكبارهم عنها ، وحلقة صنع السفينة ، وحلقة الطوفان ، وغرق ابنه ، ودعائه الله أن ينجيه ، وعدم استجابته له ، لأنه ليس من أهله ، ولو كان ابنه ، لأنه عمل غير صالح .

وقصة مريم يطنب فيها عند مولدها ، وعند مولد المسيح .

٣ — وهناك قصص قصيرة :

فقصص هود وصالح ولوط وشعيب — مع تكرارها — قصيرة ، لأنها تعرض عند حلقة الرسالة وحدها ، فتتضمن الرسالة والحوار مع قومهم ، وتكذيب هؤلاء القوم ، ثم اهلاكهم جميعاً .

وقصة اسماعيل تذكر عند مولده ، وعند افتدائه من الذبح ، وعند اشتراكه فى بناء الكعبة مع أبيه ، فى إختصار نسبى ، فى هذه الحلقات جميعاً .

٤ — وهناك قصص متناهية فى القصر :

فقصة زكريا تذكر عند مولد يحيى ، وعند كفالته لمريم ، وقصة أيوب تذكر عند مس الضر له ، ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه ، وقصة يونس تذكر عند ابتلاع الحوت له ثم نبذه بالعراء ، ورسالته لقومه وإيمانهم به .

٥ — وقصص يشار إليها ولا يذكر شيء عنها — إلا وصفاً سريعاً لأصحابها — كقصص إدريس واليسع وذى الكفل ؛ وطائفة أخرى لا تذكر إلا أسماؤهم فى صدد استعراض سجل الأنبياء .

الفصل الخامس

الأنبياء فى القرآن الكريم

ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم طائفة من الأنبياء ، ولم يذكر جميع الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى :

« وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ »

وهؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله فى كتابه هم خمسة وعشرون نبيا منهم ثمانية عشر فى أربع آيات متتالية من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى :

« وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ »

والسبعة الآخرون هم آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

وسنتحدث من بعد عن هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن المجيد .

آدم عليه السلام

ذكرت قصة آدم فى سورة البقرة وفى سورة الأعراف وفى سورة الإسراء وفى سورة الكهف وفى سورة طه بإسمه وصفته وفى سورة الحجر وفى سورة ص بصفته فقط .

تتلخص قصة آدم(١) فى أن الله تعالى أخبر ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين وأمرهم إذا سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين سجود تكريم .

سوى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون (متغير) حتى إذا صار ذلك الطين صلصالا (يصل إذا ضرب) كالفخار نفخ فيه من روحه فاذا هو إنسان حى من لحم ودم وعظم وعصب يتحرك بارادته ويدرك فسجد الملائكة إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فطرده الله من الجنة . فطلب من الله العلى القدير أن ينظره إلى يوم الدين وتوعد آدم الذى طرد بسببه من الجنة بأن يغوى ذريته ويفسدهم على الله وأن يسعى فى أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله إلا عباد الله المخلصين فوعده الله هو وكل من أطاعه من ذرية آدم بالنار .

أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

---

(١) سمى آدم بهذا الإسم لأنه أخذ من أديم الأرض (دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٥)

قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم .

فلما أنبأهم بأسمائهم ...

قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟) .

* * *

أمر الله آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء[1] يسكن إليها ، وأباح لهما كل شيء فى الجنة إلا شجرة عينها لهما بيد أن ابليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بكل أنواع المغريات . وقال لهما : إن ربكما لم ينهكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين . وقال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ؟» « وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين» ولم يزل يمنيه معسول الأمانى حتى نسى آدم أنه عدوه وأن الله حذره منه أشد الحذر بقوله : « إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » فأكل آدم وحواء من الشجرة (بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ليسترا عورتيهما ويجعلان ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر . وعاتب الله آدم على مخالفته أمره والأكل من الشجرة فندم آدم وأخذ يعتذر فطرده هو وحواء من الجنة وطرد ابليس قائلا :

« اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » . « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » .

وهداه واجتباه وبقى فى الأرض هو وبنوه الذين أتى بهم من حواء .

* * *

عرض القرآن المجيد قصة خلق آدم عرضاً دقيقاً . . يقف أمامه العلم خاشعاً ، ويستقبله العقل العلمى راضياً مسلماً . . لايستطيع أن يجد فيه ثغرة للطعن ، أو النقد .

(١) سميت حواء بهذا الإسم لأنها خلقت من شيء حى .

تحدث القرآن عن خلق الإنسان فقال :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » (الحجر).

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » (الرحمن) .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » (ص) .

« إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ... » (الصافات) .

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » (السجدة)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَة مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا .. ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (المؤمنون) .

« مَالَكُمْ لَاتَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا »(نوح) .

فالطين كما تصرح الآيات هنا هو الأصل الذى نشأ منه الإنسان . وإن يكن هذا الطين قد تقلب فى أطوار عديدة ، حتى ظهر منه هذا الإنسان . . . فالحمأ المسنون هو الطين بعد أن يتخمر ويتعفن ، وبين طور الطين والحمأ المسنون طور آخر هو الصلصال ، الذى يتحول فيه الطين إلى مادة من الزبد يشبه الفخار . « وبلغة العلم الحديث : يكون الطين ، فالصلصال ، فالحمأ المسنون — وهو الطين المتعفن — ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة ، وأن هذا التعفن الذى أصاب الطين هو بشائر الحياة ، إذ هو البكتريا » التى نضجت فيها خمائر الحياة ، وظهرت فيها جرثومتها .

ومقررات العلم الحديث — أو آخر ما وصلت إليه مقررات هذا العلم تقول : إن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطىء

البحار ، حيث يكون الطين ، فالزبد ، فالصلصال ، فالطحالب ، التي اختلطت به ، وتخلفت منها « البكتريا » . . ثم ظهر النبات ، فالحيوان ، فالإنسان .

هكذا يقرر العلم الحديث في نشوء الحياة وتطورها ، وهو — أى العلم — يرى أن هذه الأطوار قد سارت عبر ملايين السنين ، حتى أثمرت شجرتها أكرم وأكمل ثمرة ، هى الإنسان . والقرآن الكريم وإن لم يتعرض لهذه الشجرة التي كانت منها أصول الحياة وفروعها ، والتي ربما كان الإنسان فرعاً من فروعها ، وثمرة من ثمارها ، إلا أنه لم يجىء بما ينفى هذه الصلة التي بين الإنسان وبين عوالم الأحياء . . بل إنه على عكس هذا ، قد أشار فى أكثر من موضع منه إلى ما يمكن أن يستقيم منه فهم واضح لهذه الصلة التي بين الإنسان وعالم الحياة كله .

ففى قوله تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ »(١)

وقوله سبحانه « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ(٢) » .

دلالة قوية على أن الأحياء كلها — ومنها الإنسان — مخلوقة من مادة واحدة هى « الماء » . . والماء هو المادة التي يتكون منها الطين ، وأنه لاوجود للطين إلا إذا اختلط به الماء .

وقد نجد عند بعض المفسرين لمحات ذكية تشير إلى شىء من هذا الذى أصبح من مقررات العلم الحديث ...

فالبيضاوى يقول فى تفسيره لقوله تعالى : (من حمأ مسنون) أى من طين تغير واسود من طول مجاورة الماء(٣) .

---

(١) سورة النور . (٢) سورة الأنبياء .

(٣) تفسير البيضاوى — سورة الحجر .

فالقول بانتماء الإنسان فى أصل نشأته إلى شجرة الحياة العامة لا يعارض نصاً من نصوص القرآن . فاذا كان الإنسان — أى آدم — خلق من طين ،

فالإنسان إذن ابن هذه الأرض : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى »[١] . . (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا[٢] »

ولو كان الإنسان من طينة غير طينة هذه الأرض لما كان له سبيل إلى الحياة على الأرض ، والقرار فيها ، والانتفاع بموجوداتها . . من جماد ونبات وحيوان[٣] !

يقول الفيلسوف « محمد إقبال » بعد أن عرض لقصة آدم ، كما جاءت فى القرآن المجيد ، وفى التوراة :

وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت فى القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية ، إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان .

وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس ... هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة . أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة علية شخصية ، بوجوده[٤] .

وهنا ... يثار سؤال ... وما ذا نقول عن مذهب النشوء والارتقاء ؟

نقول ... إن « داروين » يقول فى حديثه عن أصل مذهبه :

(إن المشابهة وأسباباً أخرى تدعونا ضرورة إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلها واحد ، وألا فاصل جوهرى بين العالمين ، عالم النبات وعالم الحيوان)

---

(١) سورة طه . (٢) سورة نوح .
(٣) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآنى ، ص ٤٠٤ .
(٥) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام — ترجمة عباس محمود ، ص ٩٩ .

ثم يقول :

(إنى أرى فيما يظهر لى أن الأحياء عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة[١]) .

وداروين ، ليس هو أول من قال بهذا القول ، ولا أول من نظر تلك النظرة إلى الحياة وما فيها من أحياء ، وإن يكن له فضل فى هذا الأمر فهو فضل العرض الواضح ، القائم على التجربة ، المستند إلى البرهان المشهود ، على حين كان مفهوم هذه النظرية عند من سبقه قائماً على الأقيسة المنطقية ، والبناء الفلسفى للوجود ، أو على الزكانة والحدس .

(وإذا رجعنا إلى العرب وجدنا أن « اخوان الصفا » أول من تكلموا فيه بأسلوب علمى فى أول عصور المدنية العربية .

وما ورد فى مباحث « اخوان الصفا » إن لم يكن شرحاً لمذهب بعينه ، فان من الهين على من درس مذهب النشوء فى أطواره الأخيرة أن يستخلص من أقوالهم كثيراً من المبادىء التى تعتبر الآن من الدعامات الأولية فى مذاهب النشوء عامة .

وكان العرب أول من استجمع كثيراً من الجزئيات فى مذهب النشوء ، وأول من قالوا بأن عالم الحيوان والنبات والجماد واحد يفصل بين بعضها وبعض حدود انقلابية دقيقة ، مثلوا لها فى النبات بخضراء الدمن ، واعتبروها المنزلة الأولى من منازل النبات فيما يلى التراب[٢]) .

ويقول (جوستاف جرونيباوم) فى كتابه « حضارة الإسلام » عن نظرية النشوء والإرتقاء ، وعن سبق علماء المسلمين إليها ...

(وعندما يعبر الجاحظ والمسعودى وإخوان الصفا عن اعتقادهم فى النشوء والإرتقاء متصورين تصاعدا تدريجياً « من المعادن إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان » كانوا فى ذلك يزكنون حدساً) .

---

(١) إسماعيل مظهر : مذهب النشوء الإرتقاء الكتاب الأول – الجزء الأول ، ص ٤٧ .

(٢) داروين : أصل الأنواع – ترجمة اسماعيل مظهر – ج ١ ، ص ٥ .

وينقل « جرونيباوم » عن النظام العروضى (١١٥٦) نظرية متكاملة عن النشوء والارتقاء ... وهى :

(وبذلك علت مملكة العالم العضوى هذه متفوقة على العالم غير العضوى ، وهكذا اقتضت حكمة الخالق الواسعة أن ترتبط هاتان المملكتان إحداهما بالأخرى ، ارتباطاً متعاقباً ومستمراً ، بحيث حدث فى العالم غير العضوى أن المادة الأولى وهى الطين مرت فى عملية نشوء وارتقاء وأصبحت أعلى تنظيما حتى صارت مرجانا وهو النهاية القصوى فى العالم غير العضوى ، كما أنه مرتبط بأشد مراحل حياة النبات بدائية . وأشد الأشياء بداءة فى المملكة النباتية هو الشوكة ، وأعلاها تطورا هو النخل والعنب ، اللذان يشبهان مملكة الحيوان فى أن الأول يحتاج إلى الذكر لإخصابه حتى يثمر ، على حين يفر الثانى من عدوه . ذلك أن الكرم يفر من العليق ، وهو نبات إذا ألتف بالكرم جعله يضوى ، ومن ثم يفر منه الكرم . وإذن فمملكة النبات لا تحتوى شيئاً أعلى من النخلة والكرمة نظراً لأنهما تمثلتا ذلك الشيء الذى هو أعلى من مملكتهما ، وتجاوزتا بلطف حدود عالمهما الخاص وطورتا نفسيهما ارتقاء إلى اتجاه أعلى) .

ويعلق جرونيباوم ، على هذا الرأى بقوله : (ودهشتنا لعظمة تلك الرؤيا تعادل دهشتنا لذلك التهاون الذى بسطت به[1] ؟ ؟) .

وجاء ابن خلدون بعد النظام العروضى بنحو قرنين ونصف ، فجدد القول بنظرية النشوء والاتقاء ، وجعلها رأياً يقيم عليه الكثير من آرائه ، بل ويدعم به معتقده الدينى .

يقول ابن خلدون :

(إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته) .

(١) جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام — ترجمة عبد العزيز جاويد — ص ٤٢١ .

ثم يقول : (انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج .

آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له .

وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط .

ومعنى الإتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالإستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية[1] ...) .

لقد جعل ابن خلدون الإنسان حلقة منطورة من سلسلة الموجودات ، التى بدأت من عالم الجماد ، ثم تدرجت شيئاً فشيئاً إلى عالم النبات ، فالحيوان ، فالإنسان .

وإذا كان داروين قد أرجع الإنسان إلى فصيلة القردة ، فان ابن خلدون قد نزل بنسبه إلى ما دون القردة ، فان عالم القردة — فى رأى ابن خلدون — متطور من عالم أسفل منه ، وهذا العالم ناشىء عن عالم آخر دونه ، وهكذا ، حتى يصير إلى عالم الطحالب فى النبات ، ثم ينزل إلى عالم الجماد فى المرجان ، ثم إلى عالم الجماد المطلق ... من الطين ... ؟ .

* * *

وتنتهى من هذا كله إلى قول واحد فى قصة خلق آدم ، وهو الاحتفاظ بها فى الإطار القرآنى . فآدم مخلوق من طين ، أو من حمأ مسنون ، أو من طين لازب ، أو من سلالة من طين ... فهذا هو الذى يقوله القرآن فى خلق آدم ..

وإن مصير العلم وما يقع له من حقائق ثابتة فى هذا الشأن ، لا بد أن ينتهى إلى تلك الصورة التى رسمتها الآيات القرآنية له ...

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٤ .

ادريس عليه السلام

هو إدريس[١] بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم عليه السلام . واسمه فى التوراة العبرية خنوخ وفى الترجمة العربية أخنوخ .

قال الله تعالى :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا » .

قال الحافظ بن كثير فى البداية والنهاية — وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام — وذكر ابن اسحق أنه أول من خط بالقلم .

جاء فى كتاب تاريخ الحكماء — وهو — مختصر الزوزنى المسمى بالمنتخبات الملتقطات — من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ما نصه[٢] .

(إدريس) : — قد ذكر أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير من أخباره ما أنا فى غنى عن إعادته وأنا ذاكر ما قاله الحكماء خاصة :

اختلف الحكماء فى مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة . فقالت فرقة : ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة ، ومولده بمنف . وقالوا هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس معنى ارميس عطارد .

وقال آخرون إسمه باليونانية طرميس وهو عند العبرانيين خنوخ وعرب أخنوخ . وسماه الله عز وجل فى كتابه العربى المبين إدريس .

وقال هؤلاء إن معلمه إسمه الغوثا ذيمون وقيل اغثاذيمون المصرى ولم يذكروا من كان هذا الرجل إلا أنهم قالوا كان أحد الأنبياء اليونانيين

---

(١) سمى « إدريس » بهذا الإسم لكثرة درسه الكتب وصحف آدم (انظر قصص الأنبياء للثعلبى) .

(٢) نقلا عن كتاب قصص الأنبياء « لعبد الوهاب النجار » .

والمصريين وسموه أيضاً أورين الثانى وإدريس عندهم أورين الثالث . وتفسير غوثازيمون السعيد الجد .

وقالوا وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها وذلك بعد إثنتين وثمانين سنة من عمره .

وقالت فرقة أخرى إن إدريس ولد ببابل وبها نشأ وأنه أخذ فى أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه لأنه إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان ابن أنوش بن شيث . قال الشهرستانى : إن اغثاذيموس هو شيث . ولما كبر إدريس أتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بنى آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم فقالوا له : وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل . ؟ وبابل بالسريانية النهر . وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات .

فقال : إذا هاجرنا لله رزقنا غيره . فخرج وخرجوا وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذى سمى بابليون فرأوا النيل ورأوه وادياً خالياً من ساكن فوقف على النيل وسبح لله . وقال لجماعته بابليون . واختلف فى تفسيره فقيل نهر كنهر وقيل نهر كنهركم ، وقيل نهر مبارك . وقيل أن يون فى السريانية مثل أفعل التى للمبالغة فى كلام العرب وكأن معناه نهر أكبر فسمى الأقليم عند جميع الأمم بابليون . وسارت فرق الأمم على ذلك إلا العرب فانهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان . والله أعلم بكل ذلك .

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الله عز وجل . وتكلم الناس فى أيامه باثنين وسبعين لساناً وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانهم ورسم لهم تمدين المدن وجمع له طالبى العلم بكل مدينة فعرفهم السياسة المدنية ؛ وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مدنا فى أرضها فكانت عدة المدن التى

أنشئت فى زمانه مائة مدينة وثمانيا وثمانين أصغرها الرها . وعلمهم العلوم . وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فان الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط إجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب . وأقام للأمم سنناً فى كل إقليم سنة تليق بأهله .

دعا إدريس إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب فى الآخرة بالعمل الصالح فى الدنيا . وحض على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها . وأمرهم بصيام أيام معلومة من كل شهر وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم وأمرهم بزكاة الأموال للضعفاء وغلظ عليهم فى الطهارة من الجنابة والحمار (لعله الخنزير) والكلب . وحرم السكر من كل شىء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد .

ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده عدة . وعرفهم صفة النبى فقال : يكون بريئاً من المذمات والآفات كلها كاملا فى الفضائل الممدوحات لا يقصر عن مسألة يسأل عنها مما فى الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم . وأن يكون مستجاب الدعوة فى كل ما يطلبه وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذى يصلح به العالم .

نوح عليه السلام

ذكرت قصة نوح(١) بالتفصيل فى القرآن المجيد فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة المؤمنون وسورة الشعراء وسورة القمر وسورة نوح .

كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير الله العلى القدير واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دونه .

فاختار الله تعالى نوحا من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله إذا تمادوا فى غيهم وضلالهم .

فقال الملأ من قومه : إنا لنراك فى غمرة من الضلال ، أحاطت بك إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا ؟ ود — سواع — يغوث — يعوق — ونسرا — إن هذا لضلال مبين . قال نوح مجيبا لهم : ليس بى ضلالة ، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله ، وعبادته وحده لاشريك له . ولكنى رسول من رب العالمين أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى مافيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، أبلغكم رسالات ربى من التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وثواب وعقاب . وأبلغكم الأحكام العامة ، من عبادات ومعاملات .. وأعلم من الله مالا تعلمون ، فوعظى لم يكن عن جهل . وإنذاركم عاقبة الشرك كل ذلك عن علم فنصحى لكم عن علم يقينى لاتعلمونه . أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر ووعظ من ربكم ، على لسان رجل منكم ؟

لقد أنف الملأ أن يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحاً من الضعفاء . وزعموا أنهم إنما اتبعوه من غير روية ولا إحكام رأى وطلبوا إليه أن يطرد الذين

---

(١) سمى نوح بهذا الإسم لكثرة نوحه على نفسه (انظر قصص الأنبياء للثعلبى) . ويقول عبد القادر المغربى فى تفسير سورة نوح إن (معنى نوح : الرحمة والتعزية) ، (راجع تفسير جزء تبارك — طبعة دار الشعب) .

آمنوا به تقززا من أن يجتمعوا معهم فى دين . فأبى عليهم خوفاً من الله وبين لهم أنه إذا طردهم لايجد ناصرا يدفع عنه عقاب الله تعالى . وبين أنه لايطلب بدعوته إياهم أجرا من جاه أو مال وإنما يطلب أجره من الله عز وجل .

بذل نوح أقصى جهده لكى يؤمن قومه بالله وأن يذروا عبادة الأصنام وطال الزمن وهو يدعو قومه فى السر والعلانية وهم لا يزدلدون إلا اعراضا عن طريق الحق ، مع بيان المسرات المترتبة على الإيمان والنعم التى تنتظرهم فى حياتهم الدنيا من إرسال المطر لسقياهم وسقيا أرضهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية .

ويضرب لهم الأمثال ويوجه نظرهم إلى صنع الله بخلقهم أطواراً مختلفة وعنايته بهم فى حياتهم الجنينية وحياتهم فى الدنيا وخلقه السموات والأرض وأن من بدأهم قادر على إعادتهم ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها قادر على إعادتهم ومجازاتهم .

وكانوا يتبرمون به وينالونه بالأذى فعصوه واتبعوا بعض كبرائهم الذين لايزيدونهم إلا خسارا . ومكروا فيما بينهم مكرا عظيما إلى أن نفدت حيلته ويئس من صلاحهم وبيتوا فيما بينهم ألا يتركوا عبادة أصنامهم وقالوا فى تبرم وأنفة : إنك قد أكثرت الجدل وإنا لن نترك ما نحن عليه فأتنا بالعذاب الذى تخوفنا نزوله بنا . فرد عليهم بأن أمر عذابهم بيد الله الذى أرسله لابيده .

ولما بلغ نوح درجة اليأس من إيمان قومه بعد خمسين وتسعمائة سنة أقامها فيهم يدعوهم ولا يألوهم نصحا كان ماقصه الله بقوله :

« وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قد آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[1] » .

---

(١) سورة هود : ٣٦ .

وتوجه إلى ربه بالدعاء عليهم فقال :

« رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(١) » .

أمره الله تعالى بصنع الفلك لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق أن يأتى على القوم . فصاروا إذا مروا عليه سخروا منه ومن عمله . ولعل أكثر ما أثار سخريتهم منه أن علموا أنه يصنع تلك السفينة لينجوا بها ومن معه من العذاب النازل بهم استبعادا منهم لوقوعه قال نوح مجيباً لهم : إن تسخروا منا اليوم لصنعنا شيئاً هو فى ظنكم خرق وحماقة فانا نسخر منكم كماتسخرون جزاء وفاقا ، فلسوف تعلمون قريبا من يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا بالغرق ، ويحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة .

كان يصنع السفينة جاداً فى عمله ، متألماً من سخريتهم حتى إذا جاء أمر الله ، وفار التنور ، وجاءت السماء بالمطر مدراراً ، وتفتحت العيون بماء غزير «ففتحناأبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر»

وأمره الله تعالى أن يحمل فى السفينة من كل نوع من الأحياء زوجين إثنين ذكراً وأنثى ، واحمل فيها أهل بيتك ذكورا وإناثا ، إلا ماستثنى منهم ممن سبق عليه القول فصار فى عداد الكفار المغرقين واحمل فيها من آمن معك من قومك ، وما آمن معه إلا قليل .

ونادى نوح إبنه وكان فى معزل عنه وقال :

- يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين

قال :

- سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء .

(١) سورة نوح : ٢٦ — ٢٧ .

فقال نوح :

- لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقعلى واكفى عن المطر وامنعيه ، وغاض الماء . وقضى الأمر ، ونجا المؤمنون ، وهلك الكافرون .

ولما رأى نوح خاتمة القصة ... بهلاك الكافرين ومنهم ابنه ساورته أحاسيس العطف على ابنه والأسف الشديد على نهايته فنادى ربه فقال :

— رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .

قال :

— يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين .

فقال نوح :

— رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين .

وقيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم وذلك لكفرهم وعنادهم .

هود عليه السلام

ذكر هود فى القرآن الكريم سبع مرات . فذكر فى سورة الأعراف فى الآية ٦٥ وفى سورة هود فى الآيات ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٢٤ .

ويقال إن هودا هو ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وعلى هذا الرأى محمد بن اسحق وبعض القائلين بهذا يقولون إن هودا ابن عم أبى عماد وقيل ابن عوص بن أرم بن سام بن نوح وقيل عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوض بن أرم بن سام .

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده إن « عاد(١) جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون أنه من ولد عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وسواء صح النسب أم لم يصح ، فقد كان ذلك الجيل معروفاً باسم عاد ، ويلقب أيضاً بأرم ، وبقى مشهوراً عند العرب بذلك » . وكانت عاد تسكن الأحقاف « فى شمال حضرموت وغربى عمان » وكانت قبيلة ذات قوة وبطش وأصحاب زرع وضرع ، زادهم الله بسطة فى الجسم والمال ، وهم خلفاء قوم نوح .

« وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً . فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ » .

(١) تفسير جزء عم ، ص ٦١ – طبعة دار الشعب .

كان قوم هود أصحاب أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ضاهوا فى عبادتها قوم نوح حين عبدوا ود — سواع — يغوث — يعوق — ونسرا — وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنما يقال له صمود وصنما يقال له الهتار فبعث الله إليهم هوداً . وكان هود من قبيلة تدعى الخلود ، وكان من أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً ، وكان فى مثل أجسادهم أبيض بادى العنفقة طويل اللحية ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وأن يكفوا عن ظلم الناس[1] فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا « من أشد منا قوة »

وكان فى قبيلة عاد مترفون ألفوا التعالى على الغير ، واستمتعوا بالنعم حتى امتلأت قلوبهم بغيا وكبرا وضلالا ، وهؤلاء هم أعداء الحق دائما إذ يرون فى النبوة نورا يعمى أبصارهم ، ويفتح أذهان العامة فيأخذون حقهم ، فتكسر شوكتهم وتضيع دولتهم لذلك نرى مع كل نبى أن أول كافر به منكر له هم أشراف قومه إذ كيف يخضعون لواحد منهم بشر مثلهم .

قال هؤلاء: أجئتنا لنعبد الله وحده ونترك ماكان يعبد آباؤنا ؟ إنا إذاً لفى ضلال مبين ، ما أنت إلا شخص لك غرض خاص فى هذه الدعوة .

فرد عليهم هود : ياقوم لاأسألكم على ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ونبذ الشرك ، لاأسألكم عليه أجراً من مال أوجاه حتى تتهمونى بطلب المنفعة، إن أجرى إلا على الذى خلقنى على الفطرة السليمة ، وهدانى إلى الحق الذى أدعو إليه أفلا تعقلون .

وياقوم استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا إليه توبة نصوحاً إنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيراً فأنتم فى حاجة إليه ، ويزدكم قوة وعزة ، وإياكم والإعراض عن دعوتى فان فيها الخير والفلاح .

قالوا : إنا لنراك فى سفاهة، وخروج عن جادة الصواب وإنا لنظنك من الكاذبين .

(١) تفسير المنار ، ج ٨ ، ص ٤٩٧ .

قال هود : ليس بي سفاهة وكيف أكون ذلك وأنا رسول رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين .

اشتد الأمر بعد ذلك ، وقالوا : ياهود ما جئتنا بحجة بالغة تدل على أنك رسول من الله ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين.

إن نقول إلاأصابك بعض آلهتنا بسوء حين تعرضت لهم ؛ وإنك اليوم مصاب بخبل فى العقل .. وجنون فى الرأى.. !!

قال هود : إنى أشهد الله أنى بلغت ماكلفت به ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون به . وتحداهم وآلهتهم أن يكيدوه إذا كان ذلك فى قدرتهم وأن يسرعوا إلى ذلك مبادرين دون أن ينظروه فانه واثق من إلهه الذى بيده نواصى كل ما على الأرض من دابة وأنه سينصره ويمنعه أن يصلوا إلى مسه بأذى .

وأعلنهم هود بأنهم إذا تولوا معرضين عن قوله ولم يستمعوا لنصيحته ، فإنه قد قام بواجبه الذى كلف به من ربه وأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوماً غيرهم وأن هذا لايضر الله شيئاً لأنه على كل شىء حفيظ ،وقائم ورقيب .

فقالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين .

فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التى أقامها هود على صدقه فى أنه مرسل من الله عز وجل واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة فى انذارهم أحل الله تعالى

بهم نقمته فى الدنيا بأن أمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا وكان كلما نزل بهم الجهد ذكرهم هود بدعوته وأنه لاينجيهم من البلاء سوى الاستماع إليه والعمل بنصائحه فكان ذلك يزيدهم عتوا إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ونجى الله تعالى هودا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الشديد .

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع وقيل هم ثمود .

صالح عليه السلام

ذكر اسم صالح فى القرآن الكريم تسع مرات ، فى سورة الأعراف فى الآيات ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، وفى سورة هود فى الآيات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩ ، وفى سورة الشعراء فى الآية ١٤٢ .

وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود .

وثمود هى القبيلة التى منها صالح سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن أرم بن سام وقيل ثمود بن عاد بن عوض بن أرم .

وقيل سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل[1] .

وكانت مساكن ثمود بالحجر « بكسر الحاء » وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادى القرى . وهى قبيلة من قبائل العرب البائدة ، وكانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله ، فورثوا أرضهم وديارهم ، وآتاهم الله نعماً كثيرة . وأرسل الله إليهم صالحاً واعظاً لهم ومذكراً لهم بنعم الله عليهم وآياته الدالة على توحيده وأنه لاشريك له .

وقال : يا قوم قد جاءتكم حجة من ربكم وآية منه دالة على صدق هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولاتحولوا بينها وبين ما تطلب ، ولاتتعرضوا لها بسوء .

« وَهٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » .

ثم ذكرهم بنعم الله التى توجب الشكر والعبادة لله وحده ، وخاصة بعد أن قامت الحجج على صدق رسالته فقال : واذكروا نعم الله عليكم إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم عاد ، فى الحضارة والعمران ، وأورثكم أرضهم ، وأنزلكم منازلهم تجعلون بدل سهولها قصوراً فخمة ، ودوراً عالية .

(١) الثعلبى : قصص الأنبياء ص ٦٦ .

بما ألهمكم من صناعة اللبن والآجر ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فقد علمكم صناعة النحت وآتاكم القوة والصبر .

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للمستضعفين الذين آمنوا منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من عند ربه ؟

قال المستضعفون المؤمنون : نعلم إنه مرسل من عند ربنا ، وإنا بما أرسل به مؤمنون .

قال الذين استكبروا : إنا بما آمنتم به كافرون .

وعقروا الناقة وتمردوا واستكبروا عن امتثال أمر ربهم الذى أمرهم به على لسان نبيه صالح ، من قوله :

« فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ » .

وقالوا : ياصالح أئتنا بما تعدنا من العذاب ، إن كنت رسولا من الله ، وتدعى أن وعيدك تبليغ عنه . وأن الله ناصرك على أعدائه ، إن كان هذا حقاً فعجل ذلك لنا ! فأخذتهم الرجفة « فأخذتهم الصيحة » كما فى سورة هود » فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » كما فى سورة حم السجدة ، والمراد أنه نزلت بهم صيحة شديدة القوة ، ارتجفت لها القلوب ، واضطربت من حولها الأرض وتصدع ما فيها من بنيان ، « إن بطش ربك لشديد » فأصبحوا فى دارهم جثثاً هامدة لاحراك بها وسقطوا صرعى الصاعقة .

قال لهم صالح ، بعد أن جرى ما جرى : لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولم أدخر وسعاً فى ذلك ، ولكنكم لاتحبون الناصحين ، فحقت عليكم كلمة العذاب .

ونداؤه لهم بعد الموت ، كنداء الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل بدر أصحاب القليب إذ قال لهم : (يا أهل القليب . بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم : كذبتمونى وصدقنى الناس . وأخرجتمونى وآوانى الناس . وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

يا أهل القليب . يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة . ويا أبي بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام (وعدد من قتل من قريش) . . هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ! فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً) .

وسأل عمر بن الخطاب : يارسول الله . أتكلم قوماً موتى ؟

فأجاب الرسول : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى .

ابراهيم عليه السلام

ابراهيم هو خليل الرحمن ، وأبو الأنبياء . .

اختلف المفسرون فى اسم أبى ابراهيم — فقال بعضهم أن لفظ «آزر» فى الآية ٧٤ من سورة الأنعام بدل من لفظ «أب» فى «أبيه» ويكون مقول القول (أتتخذ أصناماً آلهة) ألخ . . وقال آخرون اسمه «تارح» وأن لفظ «آزر» كلمة ذم فى لغته ومعناه الأعرج ، وقال آخرون إن معناه الخاطىء والخرف ، وقيل معناه ياشيخ أو هى كلمة زجر عن الباطل(١)

وقد رأيت أن آخذ بما جاء فى القرآن الكريم دون تلك المحاولات التى بذلت بحسن نية لأنى أومن بما يؤمن به اليهود السامريون بصحة الاصحاحات التى نزلت على موسى ، أما ماجاء بعد موسى فهو من قبيل تسجيل اليهود لتاريخهم(٢) ، ولأنى قرأت كذلك فى كتاب الله :

« ..... إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » .

وقد ذكر يوسبيوس المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا ابراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم سنكلر تسديل أن للإسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار(٣) .

كان ابراهيم فتى من أهل « فذان آرام » بالعراق ، وكان قومه أهل أصنام ، وكان أبوه ينحت الأصنام ويبيعها . وأن ابراهيم كان قد أنار الله

---

(١) راجع مادة «آزر» فى دائرة المعارف الإسلامية ج ١ . طبعة دار الشعب .

(٢) عبد الحميد جوده السحار : إبراهيم أبو الأنبياء ص ٣٤٧ .

(٣) جاء فى التورة أن إبراهيم بن تارح .

بصيرته وهداه إلى الرشد فعلم أن هذه الأصنام لاتسمع ولاتبصر ولاتضر ولا تنفع .

وقال ابراهيم لأبيه أزر : أتتخذ أصناماً وأوثاناً تعبدهم من دون الله ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

« فَلَمَّا جَنَّ الليل رأى إبراهيم كوكبا فقال : هذا ربى . فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1] » .

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

أضمر ابراهيم الشر فى نفسه لهذه الآلهة ، وأقسم بالله لابد أن يلحق بها الأذى ، وهذه طريقة أراد بها أن يفهم القوم مركز آلهتهم حيث لم تدفع عن نفسها ضرراً ، وأن يقيم الحجة عملا على أنها لايمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها ، أو تكسبهم خيراً إذا عبدوها ، والبرهان العملى أوقع فى النفس وأبعد عن التأويل والشك حيث لم يجد المنطق .

(١) سورة الأنعام ٧٦ ، ٧٨ .

وقال في نفسه : « وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِين . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لمِنَ الظَّالِمِينَ . قالُوا سمِعْنَا فتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لهُ إِبْرَاهِيمَ . قالُوا : فأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لعَلَّهُمْ يَشْهَدُون . قالُوا . أأَنْت فعَلْت هَذا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قالَ بَلْ فعَلهُ كبِيرُهُمْ هَذا فاسْأَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنْطِقُون . فرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُون . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لقَدْ عَلِمْت مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُون » .

حينئذ ظهرت حجة إبراهيم واضحة . ورأى الفرصة سانحة لالزامهم الحجة قال : « أَفتَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ أفلَا تَعْقِلُون » .

فلما أعيتهم الحيل كلها فى ابراهيم وإسكاته ، ووجدت موعظته منهم قلوباً غلفاً وأذاناً صماً ،عمدوا إلى ما يلجأ إليه القوى الجبار الذى لاحق معه بازاء المحق الضعيف .

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين(١)) .

كان هؤلاء القوم يعبدون ملوكهم مع آلهتهم . يدل على ذلك المحاجة التى كانت بين ابراهيم وبين الملك ، فأحب الملك أن يرجع ابراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه وأن يعبده وآلهته .

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٨ — ٧٢ .

وقد قص الله ذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قال إِبْرَاهِيمُ رَبِّى الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ . قالَ : أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ . قالَ إِبْرَاهِيمُ فإِنَّ الله يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كفَرَ واللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

وكانت مواقف ابراهيم مع قومه متعددة . فتارة يحاج والده وتارة يحاج القوم . وتارة يحاج الملك . وتارة يفعل ما يستفزهم به إلى محاجته كتحطيم الأصنام ليكلموه فى شأنها إلى أن أوقدوا النار لتحريقه فنجاته منها بعد أن ألقى فيها ... فهجرته .

قال تعالى فى سورة الصافات :

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَأِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذا تَعْبُدُون أَئِفْكًا آلِهَةً دُون اللهِ تُرِيدُون . فمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . فنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ . فقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ . فتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فرَاغ إِلَى آلِهَتِهِمْ فقَالَ أَلَا تَأْكُلُون ؟ مَا لكُمْ لَا تَنطِقُون . فرَاغ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . فأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون . قالَ أَتَعْبُدُون مَا تَنْحِتُون . وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون . قالُوا ابْنُوا لهُ بُنْيَانًا فأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ . فأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ . وَقالَ إِنِّى ذاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِين » .

تدل هذه الآيات — أيضاً — على أنهم كانوا يأتون بالطعام إلى آلهتهم ولعل السدنة كانوا يأخذونه ويوهمونهم أن آلهتهم رضيت عنهم فأكلت طعامهم .

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُون . قالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فنَظَلُّ لهَا عَاكِفِينَ . قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُون . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّون ، قالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كذَٰلِك يَفْعَلُون . قالَ أفرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُون . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُون . فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ العَالمِينَ . الَّذِى خَلقَنِى فهُوَ يَهْدِين . وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِين ، وَإِذا مَرِضْتُ فهُوَ يَشْفِين . وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُم يُحْيِين . وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّين . رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِى لِسَان صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ . وَاجْعَلنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيم . وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كان مِنَ الضَّالِّينَ . وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُون . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُون . إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيم »

كان ابراهيم حليماً رقيق القلب رءوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه . وأنه كلما باعد والده بينه وبينه تلطف هو فى التودد إليه وترفق فى دعوته وهدايته وتحذيره ولكن ذلك كله لم يفد .

يقول الله تعالى فى سورة مريم :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ

عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَاعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا » .

ان ابراهيم بعد أن بذل أقصى الجهود وأصدقها فى سبيل هداية قومه وبعد أن حاول أن يقنعهم بكل وسائل الإقناع لم يفز من قومه بطائل وجفاه قومه وألقوه فى النار فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً عليه .

وأوحى الله إلى ابراهيم أن أخرج ، لقد غادر أورمن قبل وها هو ذا يغادر حران ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط ومع لوط زوجه .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

وسكن ابراهيم ولوط فلسطين وكانت أرض الكنعانيين وأقام فى شكيم وهى مدينة نابلس .

ثم جاء ابراهيم إلى مصر فى عهد ملوك الرعاة—الهكسوس— فأهداه الملك هاجر.. كانت سارة زوج ابراهيم عاقراً لم تلد ، فتألمت إذ لم تجد لابراهيم نسلا وهى قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أما . فأتمرت مع ابراهيم . وكان عاقبة ذلك أن دخل ابراهيم على هاجر فأتت منه بغلام هو اسماعيل..

من مواقف ابراهيم أنه رأى ثلاثة رجال فى البرية فاستقبلهم . وكان ابراهيم يحب قرى الأضياف . فمالوا إليه . فصنع لهم طعاماً وعمد إلى عجل سمين فذبحه وشواه فى النار وجاء به حنيذا قد أثرت فيه النار وجعلت لونه الحمرة . وقربه إليهم . فلم تمتد إلى طعامه أيديهم . فارتاب فى شأنهم وأوجس منهم خيفة ، فخاطبهم فى هذا الشأن فعلم أنهم ملائكة أرسلهم الله تعالى للانتقام من أهل سادوم وعامورة[١] وهم المعبر عنهم بقوم لوط .

---

(١) سادوم وعامورة مدينتان تقعان فى دائرة الأردن ، فى مكان البحر الميت .

خاف ابراهيم من هذا العذاب النازل أن يمس ابن أخيه فقال لهم :
— إن فيها لوطا .
فقالوا له :
— نحن أعلم بمن فيها وأنه وأهله من الناجين .

كان ابراهيم رجلا رقيق القلب . فلما علم أن قوم لوط هالكون . وأن الملائكة قادمون لانفاذ الأمر فيهم . أخذته الشفقة عليهم . فأخذ يجادل فى شأن قوم لوط ويستنزل الرحمة بهم . رجاء أن ينظر الله إليهم نظر رحمة . قال الله تعالى :

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

وهذه المجادلة عنهم لم تفصل فى القرآن المجيد[1] .

---

(١) ولكنها فصلت فى التوراة — سفر التكوين ١٨ على النحو التالى : « وانصرف الرجال — الملائكة — من هناك وذهبوا نحو سدوم . وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب .

فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة . أفتهلك ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك . أديان كل الأرض لا يصنع عدلا . فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينة فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم . فأجاب إبراهيم وقال : إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون بارا خمسة أتهلك المدينة بالخمسة ؟ . قال : لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين .

فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال إنى شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال : لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط . عسى أن يكون هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة . وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه .

والبشرى التى بشر بها إبراهيم هى أن الملائكة قالوا له : إننا جئنا لنبشرك بغلام عليم .

فراجعهم قائلا : أبشرتموني على أن مسنى الكبر وامرأتى عاقراً .

وكانت سارة تسمع كلام الملائكة لابراهيم فضحكت من هذه البشرى العجيبة وقالت : كيف ألد وأنا عجوز عقيم .

فقالت الملائكة : كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم .

يقول الله تعالى :

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

وفى سورة الذاريات :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا ، قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ .

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا : كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » .

وقد أوحى إلى ابراهيم أن الله سيحيي الموتى ويبعثهم ليوم لاريب فيه فأحب أن يرى كيفية الإحياء للموتى فسأل الله ذلك . فقال الله له : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير ويقطعهن قطعاً ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوها فانه سيجدها آتية إليه .

يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

«إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ، وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » :

* * *

ذكرنا أن الملائكة بشروا ابراهيم بابنه اسحق ، وأن سارة ضحكت من هذه البشرى عجباً من أن يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر وان الملائكة قالوا لها إن هذا وعد من الله العلى القدير (قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .

ولما ولدت ساره ، أطلقت على ولدها « يصحق » ومعناها يضحك تريد أن كل من سمع بولادة هذا الولد من أبويه هذين يضحك لما فى هذه الولادة من الغرابة . وقد آل أمره إلى أن يكون نبياً .

يقول الله تعالى : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » .

ويقول : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

ويقول : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » .

لم يجر لوفاة ابراهيم ذكر في القرآن الكريم ولكن ذلك ورد في الإصحاح الخامس والعشرين تكوين من أول الآية السابعة إلى آخر الآية العاشرة وتتلخص في أن ابراهيم عاش مائة وخمسة وسبعين سنة ولما مات دفنه اسماعيل وإسحق في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صرصر الحثي وفيها دفنت سارة من قبل وهو الموضع الذى عليه مقام الخليل في حبرون وتسمى مدينة الخليل . وكانت تعرف في عهد الفتوحات الإسلامية باسم « مشهد الخليل » .

وحول هذه المغارة — مغارة المكفيلة — التى تضم ابراهيم أبو الأنبياء وتضم كذلك رفات ذريته اسحق ويعقوب وزوجاتهم ، أقام النبى سليمان سوراً ضخماً . « ونجد من المراجع[1] ما يقول إن سليمان عليه السلام قد أمر الجن ببناء ذلك السور . وقيل إن بانى السور هو هيرودس ، وفى رأى ثالث أن القديسة هيلانة والدة امبراطور الرومان قسطنطين هى التى أمرت ببنائه .

وإذا كان الخلاف يثور حول بانى السور العظيم الذى أقيم فوق المغارة ويبلغ طول ضلعه ١٩٨ قدماً وعرض ضلعه ١١٢ قدماً وارتفاعه ٤٠ قدماً فان الأمر الذى لاخلاف فيه أنه أقيم فوق مغارة المكفيلة التى دفن فيها ابراهيم عليه السلام و زوجته وذريته .

لم ينسب لابراهيم الخليل قبر غير هذا القبر الموجود فى المغارة ، وقد أخذ المؤرخ المشهور الحافظ حجر الهيثمى ، الذى عاش فى أوائل القرن

(١) عن مجلة العربى العدد ٦٣ (فبراير ١٩٦٤) .

التاسع الهجرى ، بالإجماع والتواتر على صحة وجود القبر فى هذه المغارة ، وقال فى ذلك شعراً :

ولم تعلم مقابرهم بأرض يقيناً غير ما سكن الرسول
وفى «حبرون» أيضاً ثم غار به رسل كرام والخليل

وقد عنى بذلك أنه لم تعلم مواقع مقابر الأنبياء والرسل ، فيما عدا قبرى محمد صلى الله عليه وسلم وابراهيم عليه السلام على وجه الجزم واليقين . أما قبر محمد ففى المدينة المنورة ، وأما قبر ابراهيم الخليل ففى « حبرون » .

يشاهد الزائر إلى الحرم الشريف أول ما يشاهد سوره الضخم المبنى من الحجارة الصلدة البالغة الضخامة التى قد يصل طول الواحد منها سبعة أمتار وارتفاعه متراً ونصف المتر . ويعلو السور جزء يحتوى على شرفات ، وقد بنى هذا الجزء فى وقت لاحق على بناء السور ، وهى بناء إسلامى محض .

والحجارة الضخمة التى بنى بها السور منحوتة الأطراف مصقولتها ، إلا أوسط الوجه الظاهر منها فقد ترك بارزاً مخشوشنا قليلا . وقد رص بعضها فوق بعض بدون ميلاط .

وتعلو السور منارتان : احداهما فى الشرق منه ، وثانيتهما فى جهة الغرب.

ويؤدى إلى داخل الحرم بابان ، يقع أحدهما فى الجهة الجنوبية الغربية ، ويقع ثانيهما فى الجهة الشمالية الغربية ، ينفصل منها إلى مراق عظيمة تؤدى إلى رواق معقود فى الجهة الشرقية يحتوى على باب صغير للحرم فى وسط السور الشرقى .

فاذا دخلت الحرم من الباب الصغير الموجود فى وسط السور الشرقى رأيت على يمينك صحناً مكشوفاً يقسم المكان إلى قسمين غير متساويين ، أحدهما فى الجنوب ، ويحتوى على الجامع المعقود الذى يضم ضريحى ابراهيم وسارة ، فى قبتين مسدستى الأضلاع ، بينهما رواق مربع صغير ، معقود له فى جداره الجنوبى باب زينت جوانبه بالفسيفساء ، يدخل منه الداخل إلى الجامع .

ويصدر الجامع محراب بديع الصنعة مرخم زين أعلاه بالفسيفساء المذهبة ، وفوقه فتحت نافذة ركب فيها زجاج ملون .

وإلى جانب المحراب يرتفع منبر يعود تاريخه إلى سنة ٤٨٤ هجرية ، وهو مصنوع من خشب الجوز التركى المحفور ، وبعض ألواحه الأمامية من خشب الأبنوس وهى مطعمة بالعاج تطعيماً يعد غاية فى الفن والاتقان .

وتقول الكتابة الكوفية التى حفرت فيه أنه صنع فى زمن المستنصر بالله أبى تميم معد الفاطمى خليفة مصر ليوضع بمشهد عسقلان « قرية بالقرب من المجدل على بعد نحو ٢٠ كيلومتراً من شمال غزة . هى الآن فى فلسطين المحتلة » الذى قيل إن رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما موجود فيه .

وفى سنة ١٩٣٦ ظهر السوس فى بعض ألواح المنبر الخشبية ، فاهتم المجلس الإسلامى الأعلى بالأمر ، وأحضر مهندساً مصرياً قام باصلاح المنبر ، واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات ، وتم إصلاحه على نسق ماكان عليه دون تغيير أوتبديل ، ومنها الكلمات المحفورة عليه بالخط الكوفى المذهب على مدخل المنبر وهى :

(بسم الله الرحمن الرحيم . نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه معد أبى تميم عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه البررة الأكرمين ، صلاة باقية إلى يوم الدين . مما أمر بعمل هذا المنبر السيد الأجل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناظر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى النجم بدر المستنصرى ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، أدام الله قدرته وأعلى كلمته ، للمشهد الشريف . بثغرعسقلان ، مسجد مولانا أمير المؤمنين أبى عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب . فى شهور سنة أربع وثمانين وأربع مابة) .

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبى قد أمر بنقل هذا المنبر من ثغر عسقلان بعد تدميره ليحفظ بمقام ابراهيم عليه السلام .

فى الجهة المقابلة للمنبر والمحراب توجد دكة للمؤذنين مرفوعة على عمد من الرخام ، وبالقرب من الدكة توجد قبة جميلة ترتفع على أعمدة فوق مدخل الغار . وباب الغار أوالمغارة مستدير وهو من الرخام ، وله غطاء من النحاس أيضاً فيه قنديل معلق عند فوهته .

أقيمت أضرحة فى ساحة الحرم ، وهى ضريح ابراهيم ، يقابله ضريح زوجته سارة ، ويفصل بينهما رواق . وفى وسط الجزء المغطى داخل الجامع ضريح اسحق عليه السـلام ، ومقابله ضريح زوجته رفقة فى غرفتين مربعتين صغيرتين متقابلتين .

وفى القسم الثانى من البناء الواقع فى الجهة الشمالية من الحرم يوجد ضريح يعقوب عليه السلام وآخر لزوجته «لائقة» فى قبتين متقابلتين أيضاً بينهما رواق .

وبين الجزئين الشمالى والجنوبى من البناء رواق مستطيل إلى الجهة الغربية فيه مصلى للنساء . وفى وسط هذا الرواق باب يؤدى إلى ضريح يوسف عليه السلام ، نقل إليه بعد وفاته فى مصر . وهذا الضريح موجود داخل قبة جميلة واقعة خلف السور وملاصقة له من جهة الغرب ، ويؤدى إلى هذا الضريح باب فتح فى السور تقع مراقد الأنبياء فى داخل المغارة ، أو الغار الشريف كما يسمونه . وما الأضرحة العليا إلا إشارات لهذه المراقد ، وللمغارة ثلاثة أبواب أومداخل : إثنان منها مسدودان ، أحدهما بازاء المنبر ، والثانى بين ضريحى اسحق وزوجته . أما الثالث فهو كما ذكرنا موجود تحت القبة وله غطاء من النحاس .

ويذكر ياقوت الحموى(١) نقلا عن الهروى أنه قال :

(دخلت القدس فى سنة ٧٦٥ ، واجتمعت فيه وفى مدينة الخليل بمشايخ حدثونى أن فى سنة ٥١٣ ، فى أيام بردويل انخسف موضع فى مغارة الخليل ، فدخل إليها جماعة من الفرنج باذن الملك ، فوجدوا فيه ابراهيم واسحق ويعقوب

---

(١) فى كتاب معجم البلدان .

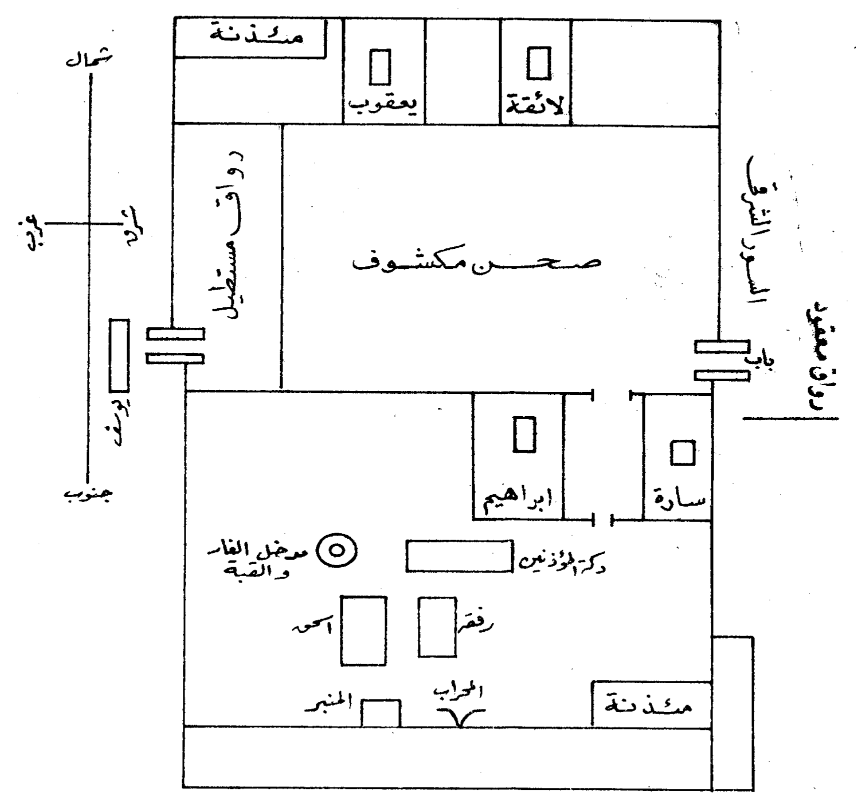
عليهم السلام ، وقد بليت أكفانهم ، وهم مستندون إلى الحائط ، وعلى رؤوسهم قناديل ورؤوسهم مكشوفة ، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع .

قال : وقرأت على السلفى أن رجلا يقال له الأرمنى ، قصد زيارة الخليل ، وأهدى لقيم الموضع هدايا جمة ، وسأله أن يمكنه من النزول إلى جثة ابراهيم عليه السلام ، فقال له أما الآن فلا يمكن ، لكن إذا أقمت إلى أن ينقطع الجئل وينقطع الزوار فعلت . فلما انقطعوا قطع بلاطة هناك ، وأخذ معه مصباحاً ، ونزلا فى نحو سبعين درجة إلى مغارة واسعة ، والهواء يجرى فيها ، وبها دكة عليها ابراهيم ، عليه السلام ، ملقى ، وعليه ثوب أخضر ، والهواء يلعب بشيبته ، وإلى جانبه إسحق ويعقوب . ثم أتى به إلى حائط المغارة فقال له : إن سارة خلف هذا الحائط ، فهم أن ينظر إلى ما وراء الحائط فاذا بصوت يقول : إياك والحرم قال : فعدوت من حيث نزلت) .

بنى سور الحرم فى زمن بعيد فى القدم كما أسلفنا ، وقام بعض ملوك البيزنطيين ببناء بيعة لهم على جزء من الحرم وترك الباقى لتعبد غيرهم . ويذكر صاحب الأنس الجليل أن أعلى المسجد الحالى « المغطى » هو بقية بناء الروم ، وأنهم الذين فتحوا باب السور بعد أن بقى مسدوداً مدة طويلة . على هذا كان حال الحرم فى العهد السابق على الإسلام .

ولما فتح العرب فلسطين فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب قام المسلمون بترميم مقام ابراهيم عليه السلام ، وكان الفرس قد خربوه فى إحدى غاراتهم سنة ٦١٤ ميلادية . وفى عهد الدولة الأموية تم تشييد القباب التى فوق مراقد ابراهيم ويعقوب وزوجتيهما . أما فى العصر العباسى فقد فتح الخليفة المهدى باب السور الحالى من جهة الشرق وبنيت له المراقى الجميلة من ناحيتى الشمال والجنوب . وأمر المقتدر بالله ببناء القبة التى على ضريح يوسف الصديق .

احتل الصليبيون مدينة الخليل ، وجعلوا منها أسقفية ، كما حولوا الحرم إلى كنيسة ، و لكن صلاح الدين الأيوبى استعاد المدينة منهم عام ١١٨٧ م ،



رسم تقريبى للحرم الابراهيمى الشريف يبين السور والمئذنتين وأماكن أضرحة الأنبياء وزوجاتهم والمحراب والمنبر ودكة المؤذنين ومدخل الغار

وجلب المنبر الفاطمى من عسقلان ، ووضعه فى الحرم ، كما عمر المحراب ودكة المؤذنين .

وأعاد الملك الظاهر بيبرس بناء مسجد الخليل وعمل له الشرفات الموجودة فوق السور[١] . وقد حظر هذا الملك على غير المسلمين دخول الحرم .

وقام الملك المنصور قلاوون بترخيم الحجرة الشريفة الخليلية سنة ٦٨٦ هـ . وأدخل ابنه السلطان محمد الناصر من العمارة والزينة على المسجد ما جعله من أفخم المساجد فى العالم . وذلك على يد الأمير تناكز ، كافيل الممالك الشريفة الشامية . فهو الذى رخم جدران المسجد وزين محرابه بالرخام والفسيفساء . وفتح نافذتين زينتا بالزجاج الملون ، كما شيد القبة اللطيفة التى فوق باب الغار الشريف . وإلى هذا العهد أيضاً يرجع إنشاء الرواق الشرقى ، والأبواب المزخرفة والسبل التى بجوار الحرم .

وجدد اليغمورى ، ناظر أوقاف الخليل ، فى زمن السلطان الظاهر برقوق بناء ضريح يوسف عليه السلام بعد أن فتح له بابا فى السور الغربى .

للحرم الشريف أوقاف كثيرة من جميع خلفاء المسلمين وملوكهم . وهى منتشرة ، وقد أوقفت الضياع والعقارات على نفقة الحرم الإبراهيمى وتعميره . وهناك أراضى عشر قرى فى لواء الخليل ،وقرى كثيرة يبلغ عددها المائتين فى ألوية أخرى يقع معظمها الآن فى الجزء المغتصب من فلسطين ، موقوفة وقفاً صحيحاً على الحرم الإبراهيمى بحجج شرعية ثابتة ومحفوظة فى صندوق فى الحرم إسمه « صندوق العمل » . وهناك عشر عائلات خليلية تقوم على خدمة الحرم ، منها المشايخ والمدرسون والمؤذنون والسدنة وحاملوا الأعلام . وقد منحت هذه العائلات شرف خدمة الحرم منذ حوالى سبعمائة سنة[٢] .

والحرم تديره مديرية الأوقاف العامة التى يرأسها قاضى قضاة الأردن وتقوم هذه المديرية بانتقاء وتعيين موظفى الحرم الشريف .

---

(١) ذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه « الظاهر بيبرس » أن بيبرس رمم مقام الخليل عليه السلام وجدد قبته وأصلح أبوابه وميضاته » .

(٢) مجلة العربى العدد ٦٣ (فبراير ١٩٦٤) .

اسماعيل عليه السلام

لم تقص فى القرآن قصة إسماعيل وإنما ذكر إسمه فى القرآن وأثنى عليه الله تعالى بقوله فى سورة مريم :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » .

وجاء فى القرآن قصة ذبح إبراهيم لولده وهمه بذلك إلى أن نودى بالكف عن ذبحه وأنه فدى بكبش يذبح عوضاً عنه .

إن رؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة . وقد رأى إبراهيم فى منامه أنه أمر أن يذبح ولده فقال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين(١) .

فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم لا تذبح ولدك فقد صدقت الرؤيا ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . ورزقناه ما يذبح بدلا عنه وفداء له ، ومنة . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه فى شجرة . فتم به المرئى فى المنام المقصود به القربان لله .

والآيات الخاصة بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد ولكن سياق الكلام وذكر تبشير إبراهيم باسحق بعدها لا يكاد يبقى شكا فى أن الذبيح إسماعيل

(١) قال الرازى : الحكمة فى مشاورة الأبن فى هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثناء الحسن فى الدنيا . وقوله : « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » أى على الذبح ، أو على قضاء الله .

يقول الله تعالى فى سورة الصافات :

« وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ : يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذَا تَرَى ، قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرْ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِين . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وباركْنا علَيْهِ وعلَى إِسْحٰق » .

وقال الإمام ابن القيم فى « زاد المعاد » :

وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه اسحق فباطل بأكثر من عشرين وجها . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم . فان فيه إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) ، وفى لفظ (وحيده) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذى غر أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم (اذبح ابنك إسحق) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنها تناقض قوله (بكرك) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب . ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحق ، والله تعالى قد بشر أم إسحق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن

الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى« لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب(١) » فحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة . فتناول البشارة لاسحق ويعقوب فى اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فان قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على اسحق ، فكانت القراءة (ومن وراء إسحق يعقوب) أى ويعقوب من وراء إسحق . قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص . وهى أول خبر سار صادق . وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة . بل حقيقة البشارة هى الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولا ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى . وقلنا لها من وراء اسحق يعقوب . والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك (مررت بزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر ، فلا يفصل بينه وبين المجرور . كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور . ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه فى سورة الصافات ، قال : (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) ثم قال (٢) (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) فهذا بشارة من الله له ، شكراً على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول . بل هو كالنص فيه ، فان قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ، جازاه الله على ذلك ، بأن أعطاه النبوة .

---

(١) هود : ٧٠ - ٧١ .   (٢) الصافات : ١١٢ .

قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده . وأن يكون نبياً . ولهذا ينصب « نبياً » على الحال المقدر أى مقدراً نبوته . فلا يمكن إخراج البشارة أن يقع على الأصل ، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على النبوة ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة ، من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم ، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضاً فان الله سبحانه سمى الذبيح حليماً لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه . ولما ذكر إسحق سماه عليماً فقال(١) : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون) إلى أن قال(٢) (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) وهذا إسحق ابلا ريب ، لأنه من امرأته وهى المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية . وأيضاً فانهما بشرا به على الكبر واليأس من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فانه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فان الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلا . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل . فأمره الخليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه ، وكانت

---

(١) الذاريات : ٢٤ — ٢٥ .

(٢) الذاريات : ٢٨ .

محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة . إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والإختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، ما يقتضى الأمر بذبحه . وهذا غاية فى الظهور . وأيضاً فإن سارة إمرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ، ليبرد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فكيف يأمر بعد هذا بذبح إبنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب الست على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة ، رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع نبياً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارهما وموطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره .

قال تعالى[١] : « ونُرِيدُ أَنْ نمُنَّ علَى الَّذِين اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ونجْعلَهُمْ أَئِمَّةً ونجْعلَهُمُ الْوارِثِين » « ذَلِكَ[٢] فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفضْلِ الْعظِيمِ » .

(١) القصص : ٥ . (٢) الحديد : ٢١ .

وقال السيوطى فى « الأكليل » : واستدل بقوله تعالى بعد : « فَبشَّرْناهَا بِإِسحٰقَ(١) » .

من قال إن الذبيح إسماعيل . وهو الذى رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة : منها وصفه بالحلم وذكر البشارة باسحق بعد ذلك . والبشارة بيعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهى أمور ظنية لا قطعية .

ثم قال : وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع أو ما يقرب منه — ولم أر من سبقنى إلى إستنباطه — وهو أن البشارة وقعت مرتين ، مرة فى قوله(٢) .

« إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ » فهذه الآية قاطعة فى أن هذا المبشر به هو الذبيح . ومرة فى قوله : « وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ(٣) فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ » .

فقد صرح فى هذه الآية أن المبشر به إسحق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم . بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك فى الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو فى آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله ... فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين ، بغلامين . أحدهما بغير سؤال وهو اسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره . فقطعنا أنه إسماعيل وهو الذبيح(٤) .

* * *

---

(١) الصافات : ١١٢ .
(٢) الصافات : ٩٩ — ١٠٢ .
(٣) هود : ٧١ .
(٤) عن كتاب تفسير القاسمى الجزء الرابع عشر ص ٥٠٥٣ (لمحمد جمال الدين القاسمى).

لم تفصل رحلة إسماعيل وهاجر إلى مكة فى القرآن المجيد ولم يذكر منها فيه سوى قوله تعالى على لسان إبراهيم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

والوادى الذى لا زرع فيه هو الوادى الذى به مكة اليوم ولم يبن بمكة شيء بعد البيت إلا فى القرن الثانى قبل الإسلام فى عهد قصى بن كلاب فانه بنى دار الندوة وتبعته قريش تبنى حول المسجد . وكان المسجد ساحة فبنوا حوله وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام(١) .

جاء إبراهيم وإسماعيل وهاجر إلى الوادى ... وعمد إبراهيم إلى موضع الحجر فأنزل إسماعيل وهاجر فيه . وانصرف ... فاتبعته هاجر وقالت : إلى من تكلنا ؟ فجعل لا يرد عليها شيئاً . فقالت : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم ؟ فقالت : إذا لا يضيعنا .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يريانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

— ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

وراحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش إبنها وراح يتلبط .

ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست نياط قلبها تتمزق وكاد عقلها يطيش ، إنها لا تستطيع أن تنظر إلى ولدها وهو يبكى من الألم ...

وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر واحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٠ .

المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشا . وما دار بخلدها فى تلك اللحظة الرهيبة أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليداً لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت :

— صه ؟

تريد نفسها ، ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضاً ، فانطلقت إلى حيث كان ابنها فاذا الماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقائها وشربت وأرضعت ولدها ، وإذا بالملك عند زمزم فقال لها :

— لا تخافى الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا : إن هذا الطير لحائم على ماء ، فأشرفوا ، فاذا هم بالماء . فقالوا لهاجر : إن شئت كنا معك فآنسناك والماء ماؤك . فأذنت لهم . فنزلوا معها . وهم أول سكان مكة .

تزوج اسماعيل صدا بنت سعد ، ومرت الأيام وإذا بصدا برمة بعيشها لا تطيق ما هى فيه من حرمان . إن زوجها يتنكب قوسه كل صباح ويخرج للصيد ثم يعود بما رزقه الله ، إنها حياة شاقة لا تطاق .

وجاء إبراهيم يزور هاجر وإبنه وزوجة إبنه فهو لا ينقطع كثيراً عن زيارتهم ليشد الأواصر بين إسماعيل وإسحق وبين سارة وهاجر ، وتبادل أهل بيته الزيارات . ولكن هذه كانت أول مرة يزور إسماعيل بعد زواجه . ووقف إبراهيم أمام بيت إسماعيل وقال :

— السلام عليكم ياأهل البيت .

فلم ترد عليه صدا .

وأقبلت عليه تحدق فيه ولم يكن فى نظراتها ود ولا ترحيب ، قال لها :

— هل من منزل ؟

— لا .

— كيف طعامكم ولبنكم وماشيتكم ؟

— نحن فى ضيق . أما الطعام فلا طعام . وأما الشاة فلا تحلب الشاة بعد الشتاء المضير (اللبن) ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ .

— فأين رب البيت ؟

— فى حاجته .

— فاذا جاء فأقرئيه السلام وقولى له : غير عتبة بيتك .

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟

قالت : نعم ، جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه .

قال : فما قال لك ؟

قالت : قال : إقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه .

قال : فذاك أبى . وقد أمرنى أن أفارقك . إلحقى بأهلك . فطلقها .

* * *

تزوج إسماعيل فتاة من مصر(١) . وذات يوم أقبل إبراهيم از يارة إبنه فانطلق إلى بيته فألقى زوجه فقال :

— السلام عليكم يأهل البيت ورحمة الله .

— وعليكم السلام تفضل .

— هل من منزل ؟

— نعم إن شاء الله ، انزل رحمك الله فأطعم واشرب .

---

(١) جاء فى الأصحاح الحادى والعشرين من التوراة : « وأخذت له أمه زوجة من مصر » وقال ابن هشام إنها عائكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى إنها شامة بنت مهلهل .

— ما طعامكم ؟

— اللبن واللحم .

— فما شرابكم ؟

— اللبن والماء .

— هل من حب ؟

— يكون إن شاء الله ونحن فى نعم .

— بارك الله فى طعامكم .

وهبط إبراهيم وانطلق معها إلى زمزم فأخذت تغسل له رأسه فقال لها :

— أين إسماعيل ؟

— خرج مع أمه يرعيان الغنم .

— فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل قال :

— هل أتاكم من أحد ؟

— نعم . أتانا شيخ حسن الهيئة — وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته . فسألنى كيف عيشنا فأخبرته انا بخير .

— فأوصاك بشىء ؟

— نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .

— ذاك أبى . وأنت العتبة . أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ماشاء الله — ثم جاء بعد ذلك . واسماعيل يبرى نبلا له قريبا من زمزم . فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال :

— ياإسماعيل . إن الله أمرنى بأمر .

قال :

— فاصنع ماأمرك ربك .

— وتعينني ؟

— وأعينك .

— فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا — وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

وقام ابراهيم واسماعيل بتخطيط البيت وطوله اثنان وثلاثون ذراعا وعرضه واحد وعشرون ذراعا . وشرع ابراهيم واسماعيل وهاجر ومعهم المؤمنون يقطعون الحجارة من جبل حراء وجبل قبيس، وراح ابراهيم يقول :

— رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

فأوحى الله إليه :

— ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير .

وعكفوا على العمل ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . وأمر الله ابراهيم : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام .

ووقف إبراهيم على الحجر واستقبل اليمن ونادى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات تلبي :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .

ثم استقبل المشرق فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، حجوا ياعباد الله . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المشرق :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .

ثم استقبل المغرب فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ألا إن ربكم قد اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ، يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المغرب :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .

ثم استقبل الشام فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا ياعباد الله ، حجوا إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

والكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى .

قال تعالى فى سورة آل عمران : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

وفى سورة البقرة : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ

هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وفى سورة إبراهيم : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

وفى سورة الحج : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ

من الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » .

وفى آية ٣٥ منها : « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » .

* * *

وقد بعث الله عز وجل إسماعيل إلى العماليق وقبائل اليمن يدعوهم إلى عبادة الله العلى القدير وترك عبادة الأصنام .

وعاش إسماعيل فيما ذكر مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن فى الحجر عند قبر أمه هاجر[١] .

(١) الطبرى ج ١ ص ٣١٤ .

لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام . وإنما سمي لوطا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام أي تعلق به ولصق[1] وكان إبراهيم يحبه حباً شديدا.

بعث الله عز وجل لوطا إلى أهل سدوم ، وكانوا أهل كفر وشرك بالله ، وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات مالم يسبقهم إليه أحد من خلق الله . وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء . يستعلنون بذلك ولا يستترون ولايرون في ذلك سوءا . وأن لوطا قد وعظهم ونصحهم وخوفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا . فلما ألح عليهم بالعظات والإنذار هددوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج من بينهم . إلى أن جاء إلى لوط الملائكة (الذين مر ذكرهم في قصة إبراهيم وبشروه بابنه اسحق) وقد جاءوا إلى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه فجاء أهل القرية إلى لوط طالبين ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة . وقد جهد لوط في ردهم وقال : ياقوم هؤلاء بناتي لصلبي أو بنات القوم جميعا من ثيبات وأبكار تحت طلبكم وفي مقدوركم ، وهن أطهر لكم .

(والمراد هؤلاء تحت طلبكم فتزوجوا العذارى . وآتوا نساءكم في الحلال) .

قالوا : لقد علمت مالنا في بناتك من حاجة ولا أرب فلا معنى لعرضك علينا هذا وإنك لتعلم مانريد من الاستمتاع بالذكران .

قال لوط مخاطبا ضيوفه : لو أن لي بكم قوة تقاتل معي هؤلاء القوم . وتدفع شرهم عني ..

---

(١) الثعلبي : قصص الأنبياء ص ١٠٣ .

وكان لايعلم أنهم ملائكة إلى ذلك الحين . وحينئذ أعلمه الملائكة بحقيقة أمرهم وأنهم جاءوا للتنكيل بأولئك القوم . ولما حاول أهل القرية أخذ أولئك المردان بالقوة ، وهجموا على بيت لوط فطمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا إلى مكان يقتحمون منه عليه وعلى من معه .

وأخرج الملائكة لوطا وابنتيه وزوجه من القرية وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد وأن يمضوا حيث يؤمرون فصدعوا بالأمر إلا امرأته فانها التفتت إلى القرية لترى ماحل بها وكان هواها مع أهل القرية فحل بها من العذاب ماحل بهم . وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقلبت ديار القوم وجعل عاليها سافلها .

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف :

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ . ومَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » .

وفى سورة هود : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا : يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ

مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » .

وفى سورة الحجر : « فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ . وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ . قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ . قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيهم حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ » .

وفى سورة الشعراء : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُم لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِي لَكُمْ رَسولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

وفى سورة النمل : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » .

وفى سورة التحريم : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ » .

يعقوب عليه السلام

هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام .

كان يعقوب أثيراً عند أمه — فلما دعا إسحق ليعقوب وهو يظنه — عيسو — وجاء عيسو وقد علم بذلك غضب أشد الغضب . وخشيت أمه على يعقوب أن يبطش به عيسو . فأشارت عليه أن يذهب إلى خاله لابان . فذهب إلى فدان ارام وأقام عند خاله يخدمه فى مقابل أن يزوجه ابنته راحيل — بيد أن خاله أدخله على ابنته ليئة التى لا يريدها يعقوب — فكلم خاله فى ذلك فقال له : اخدمنى عشر سنين أخرى لأزوجك راحيل ففعل وتزوج أيضاً من جاريتيهما زلفا وبلها ومنهن كان أولاده وقد ولد له أولاده جميعاً فى آرام إلا بنيامين ثم جاء إلى فلسطين بمال كثير ونعم جليلة وأهدى إلى أخيه بعضها وهو خائف أن يبطش به . ولكن عيسو قابله مقابلة كريمة (١) .

(١) هذه الحكاية لم تذكر فى القرآن الكريم ولكن هذا ملخص موجز لما فى التوراة .

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب اسرائيل الله بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام .
كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولداً ذكراً وهم :

١ — رأوبين	٢ — شمعون	٣ — لاوى
٤ — يهوذا	٥ — ويساكر	٦ — زبولون
٧ — يوسف	٨ — بنيامين	٩ — دان
١٠ — نفتالى	١١ — جاد	١٢ — أشير .

كان يوسف جميل الصورة تبدو عليه مخايل الشرف والكرامة والخلق الرضى وتلوح عليه أمارات النبوة والرسالة ، ولذا كان مقرباً لدى أبيه ، أثيراً عنده خصوصاً بعد الرؤيا التى كانت سبباً فى محنته والتى هى خير وبركة فى النهاية عليه وعلى شعب مصر . ذكر اسم يوسف فى ٢٦ آية من الكتاب الكريم ، ٢٤ آية فى سورة يوسف ، وآية فى سورة الأنعام ، وآية فى سورة غافر . والقصة أن يوسف كان صغيراً ، فرأى فى منامه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له . فهم يعقوب من هذه الرؤيا أنه سيكون ليوسف شأن عظيم وسيسود قومه حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته بها فيحسدوه ويكيدوا له كيداً فنهاه عن أن يقص رؤياه على إخوته :

« قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

رأى أبناء يعقوب من إيثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه ما لم يكن منه لواحد منهم فغاظهم ذلك . وأضمروا له الشر فقالوا لأبيهم : مالك لا تأمنا

على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غـداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

وكأن يعقوب قد أحس الشر الذى يضمره بنوه لأخيهم ، ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم فقال : انى ليحزننى أن تذهبوا به . ثم ترقى فى تعليل ضنه به قائلا : وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون .

فقالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون .

وذهبوا به . . وقد استبد بهم الحسد وغلب على عقلهم وتشاوروا . . وقالوا : اقتلوا يوسف حتى لا يلقاه أبوكم أبداً أو اطرحوه فى أرض بعيدة عنا حتى ينقطع خبره عن أبيه إن فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين .

قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف ، وإذا أردتم التخلص منه فألقوه فى غيابات البئر يلتقطه بعض السيارة فيتم لكم غرضكم وهو إبعاده عن أبيه حتى يخلو لكم وجهه إن كنتم فاعلين الصواب فهذا هو الصواب .

وجاءوا أباهم فى وقت العشاء وانتشار الظلام فى الأفق يبكون ففزع يعقوب وقال : مالكم يابنى ؟ وأين يوسف ؟

قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

قال : أرونى قميصه . فأروه ، « وجاءوا على القميص بدم كذب » . . .

فقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم من هذا ، أكل ابنى ولم يشق له جيباً ولا خرق له شقاً . وصاح صيحة وخر مغشياً عليه فلما أفاق بكى بكاء شديداً ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله .

وجاءت هذا المكان جماعة مسافرون قيل إنهم من العرب الاسماعيليين فأرسلوا رائدهم يبحث عن الماء ويأتيهم به فأرسل دلوه فى البئر فتعلق به يوسف حتى خرج .

قال : يابشرى هذا غلام وسيم الطلعة ، صبوح الوجه فاستبشروا به .
وأخفوه عن أعين الناس حتى لا يعلم به أحد لأجل أن يكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر والله عز وجل لا يغيب عنه شئ فهو عليم بما يفعل هؤلاء ؛ وباعته السيارة بثمن قليل دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .

بيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر — قطفير — ولما جاء يوسف عند سيده ألقى الله على سيده محبته فقال لامرأته : اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .

وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه فقالت له :

— ما أحسن شعرك .
— هو أول شئ يبلى إذا مت .
— يا يوسف ما أحسن وجهك .
— ربى تعالى صورنى فى الرحم .
— يا يوسف قد أنحلت جسمى بصورة وجهك .
— الشيطان يعينك على ذلك .
— يا يوسف ضع يدك على صدرى تشفينى بذلك .
— سيدى أحق بذلك منى ,
— أما سيدك فأسقيه كأساً فيه ذئبق الذهب لا يعلم به أحد من الناس وأوليك ملكه .
— الجزاء يوم الجزاء .

يقول الله تعالى :

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ قَالَ : مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ،

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » .

لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول وكان معه ابن عمها أرادت أن تشفي غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به — تقدمت نحو زوجها باكية قائلة : « ما جزاء من أراد باهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » . وأفهمته أنه راودها عن نفسها وأنها رفضت .

أما يوسف فقال : هي راودتني عن نفسي وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها إلى أن نازعتني ثوبي .

وهنا ظهرت فراسة ابن عمها في تحقيق الحق من قولهما. فقال : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . ظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز بأن رأوا قميصه قد من دبر .

يقول الله تعالى :

« قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ » .

شاع في المدينة نبأ امرأة العزيز مع فتاها . وقد أصبح حديث المجالس خصوصاً في مجالس كبار المدينة . ودوى صدى هذا القول في أذن امرأة

العزيز فأخذت فى الكيد لهن ليعذرنها فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها العاذلات وأعدت لهن مكاناً أنيقاً يجلسن فيه وقدمت إليهن طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين وآتت كل واحدة منهن سكيناً . وفى تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن . فبهرهن جماله . وألهاهن عن أن يحسَّن قطع الفاكهة التى بأيديهن فصرن يقطعن أيديهن . وشغلن بمطالعة محاسن خلقه والتأمل فى جماله وقلن :

« مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

حينئذ باحت امرأة العزيز لهن بما يكنه فؤادها من اللوعة . وقالت لهن :

« فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » .

قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

ولما فشت القالة بذلك رأى العزيز وحسن له مشيروه أمراً هو أنه لا يخلصهم من العار ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلا زجه فى السجن ليخيل للناس أنه مازج فى السجن إلا لأنه آثم كاذب فى ادعاء البراءة وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به .

دخل يوسف السجن على غير جريمة أتاها ودخل معه السجن فتيان أحدهما رئيس الخبازين عند الملك والثانى رئيس سقاته . وأتاه صاحب شراب الملك وأخبره أنه رأى فى منامه أنه يعصر فى كأس الملك الخمر . وقال الخباز له : إنى رأيت فوق رأسى طبقاً من الخبز والطير تأكل من ذلك الخبز . وطلبا إليه أن ينبئ كل واحد منهما بتأويل ما رأى فى منامه .

انتهز يوسف هذه الفرصة ليعلن لهم دينه ويدعوهم إليه . أخذ يوسف يدعوهما إلى التوحيد بعد أن قدم مقدمة كالمعجزة الدالة على صدقه فقال :

إسمعوا ، إنه لا يأتيكما طعام ترزقانه من أى مكان إلا ونبأتكما بتأويله وتفسيره من أين يأتى ؟ ولأى غرض أتى ، وفى أى وقت سيأتى ؟ كل ذلك قبل أن يأتيكما ، وذلك بعض ما علمنى ربى بوحيه — وقال :

« يَاصَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

بعد أن تكلم يوسف مع صاحبيه فى شأن التوحيد تكلم فى تأويل رؤياهما فقال : — يا صاحبىّ أما أحدكما — الذى رأى أنه يعصر خمراً — فيسقى ملكه خمراً . وأما الثانى — وهو الذى رأى أنه يحمل خبزاً تأكل الطير منه — فيصلب فتأكل الطير آكلة اللحوم من رأسه ، لاتناقشا ! ! قد قدر الله الأمر وسبق الحكم الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك وسيدك الملك .

فأنسى الشيطان صاحبه أن يذكر يوسف عند الملك فلبث فى السجن بضع سنين .

فلما انتهت محنة يوسف ودنا فرجه رأى ملك مصر رؤيا عجيبة فهالته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف هزيلات ، ورأى سبع سنبلات خضر وأخرى سنبلات يابسة مهيأة للقطوف ، يأيها الملأ من قومى أفتونى فى رؤياى هذه إن كنتم تعبرون الرؤية وتنقلون الخيال والرموز إلى الواقع والحقائق .

قالوا : هى أحلام مختلطة ، وخيالات غير منتظمة وهذه أضغاث أحلام لا تأويل لها ولا تفسير .

قال الذى نجا من السجن : يا قوم لا تبحثوا فإنى أنبئكم بتأويل هذا الحلم فأرسلون إلى السجن فإن فيه فتى قد خبرته ووقفت منه على أسرار .

فأرسلوه إلى يوسف فقابله وقال له :

— يوسف أيها الصديق أفتنا فى رؤيا رآها الملك تتلخص فى سبع بقرات سمان أكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات . أخبرنى فإنك بتأويل الرؤيا من العالمين .

أخبره يوسف بتأويل ذلك . وهو أن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة ثم سبع سنين مجدبة تأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها . ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرّغد وأن عليهم أن يقتصدوا فى سنى الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن القوت فى سنبله ، حتى إذا حل الجدب وجدوا فى مخازنهم ما يسد الرمق إلى أن يأتى الخصب .

عاد رئيس السقاة إلى الملك بتأويل الرؤيا فسر بها وعلم أنه تأويل مناسب متفق مع الرؤيا . فقال الملك : ائتونى بيوسف .

فلما أرادوه على ذلك رفض أن يخرج من السجن حتى يعرف أمره على حقيقته وطلب إلى الرسول أن يعود إلى الملك ويسأل عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن . ولابد أن يكون قد سماهن بأسمائهن . فلما أحضرهن الملك وسألهن عن شأن يوسف . قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء وأنكرن أن يكن قد سمعن شيئاً عن شأنه وشأن امرأة العزيز .

يقول الله تعالى :

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ : مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » .

« قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ » .

قال الملك حينما عرف حقيقة أمر يوسف : ائتونى به أجعله خالصاً لى ، وموضع ثقتى ومشورتى . فلما حضر يوسف وكلمه الملك . ووقف على عقله الراجح وحنكته ، وأمانته وحسن تصرفه قال له : إنك اليوم عندنا ذو مكانة رفيعة ومنزلة سامية ، فأنت من الآن صاحب التصرف فى أمر البلاد .

قال يوسف : اجعلنى أيها الملك على خزائن الأرض ، حتى أنقذ البلاد من شر المجاعة المقبلة التى رأيت رؤياها — ولا تعجب من طلبى هذا إنى حفيظ شديد المحافظة خبير عليم بإدارة السياسة المالية والاقتصادية .

يقول الله عز وجل :

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ . قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وكان الزمن زمن جدب وقحط عم مصر وما جاورها من البلاد كبلاد كنعان « فلسطين » لكن يوسف قد أرسل لمصر لإنقاذها من الجدب ، بل وفر من أقواتها ما كان يباع لجيرانها . ولما علم يعقوب وبنوه بخيرات مصر ، وكانوا فى أمس الحاجة إلى الطعام أرسل أبناءه العشرة ليبتاعوا من عزيز مصر القوت ويعطوه الثمن بضاعة كانت معهم . وكان يوسف لا يعطى الفرد إلا حمل بعير فقط توفيراً للمؤن .

وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم لم يعرفوه . ولما أصلحهم بعدتهم التى جاءوا لأجلها ، قال لهم :

— ائتونى فى الدفعة المقبلة بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أتمم لكم الكيل وأنا خير المنزلين للأضياف ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تدخلوا بلادى .

قالوا :

— سنحاول أن نراود عنه أباه ، حتى يسلم لنا بنيامين الذى يعتز به أبوه فهو خلف لأخيه المفقود ، وإنا لفاعلون ذلك إن شاء الله .

وقال يوسف لغلمانه :

— ضعوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا رجعوا إلى أهلهم ، عساهم يرجعون .

فلما رجع هؤلاء الأخوة إلى أبيهم قالوا :

— يا أبانا منع الملك منا الكيل إلا إذا استصحبنا أخانا الصغير بنيامين فأرسله معنا لنكتال وإنا له لحافظون .

قال :

« هل آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ولما فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم التى كانوا دفعوها ليوسف فى مقابل ما أخذوه من الطعام قد ردت إليهم ، قالوا :

— يا أبانا ماذا تريد بعد هذا ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا فنتقوى بها ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك الذى نأتى به مكيل قليل .

قال أبوهم :

— لن أرسله معكم حتى تعطونى عهداً من الله لتأتننى به إلا أن تغلبوا على أمركم ، فلما أعطوه عهدهم قال : الله على ما نقول وكيل .

ثم قال لهم :

— يا أولادى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة — وكانوا ذوى جمال وأبهة ؛ فخاف عليهم النظرة — وما أدفع عنكم من الله شيئاً ، ما الحكم إلا له يصيبكم إذا كتب لكم ذلك ولا ينفعكم ما أنصحكم به ، عليه توكلت فليتوكل المتوكلون .

ولما دخلوا إلى مصر من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم ما كان ذلك ليدفع عنهم شيئاً مما قضاه عليهم ، ولكنها حاجة فى نفس يعقوب قضاها . إنه لذو علم وبصر بالأمور لما علمه ربه بالوحى والإلهام وتأويل الرؤيا الصادقة . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

ولما دخلوا على أخيهم ضم إليه أخاه بنيامين وأسر إليه بأنه أخوه .

وعندما جهز إخوته للسفر جعل مشربة الملك فى أمتعة أخيه ، ثم نادى مناد : بأنكم أيها الراحلون سارقون . فلما سألوهم عن الذى فقدوه ، أخبروهم بأنها مشربة الملك . قالوا : والله ما جئنا لنفسد فى الأرض وما نحن بسارقين . قال :

— فما جزاء من توجد فى أمتعته ؟

قالوا : جزاؤه أن يؤخذ فيه .

فبدأ يفتش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين ، ثم استخرجها من وعائه .

قالوا : إن يسرق فقد سبق أن سرق أخ له من قبل ! ! فأخفى يوسف هذه التهمة فى نفسه ، وقال فى نفسه أيضاً :

— أنتم شر منزلة إذ سرقتمونى من أبى . والله أعلم بمبلغ صدقكم فيما تقولون.

قالوا :

— يا أيها العزيز إن لهذا الغلام أبا شيخاً لا يقوى على مفارقته ، فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

قال :

— معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده ، إنا إذن لظالمون .

فلما يئسوا انفردوا يتناجون .

فقال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً لتحافظن عليه ولتمنعنه حتى يحاط بكم ، ومن قبل بنيامين ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح هذه الأرض حتى يأذن لى أبى بالرجوع أو يحكم الله بالخروج منها وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم . فقولوا له يا أبانا إن ابنك سرق . وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمنا ذلك عن مشاهدة ، إذ وجدنا الصواع فى أمتعته ، وما كنا للغيب عالمين . فلم ندر ، حين أعطيناك الموثق ، أنه سيسرق ، أو أنك ستفرط فى حبه كما أفرطت فى حب يوسف .

قال إخوة يوسف لأبيهم :

— واسأل القرية التى كنا فيها وأصحاب الإبل التى جئنا عليها فإنا صادقون .

قال :

— بل زينت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل لعل الله يأتينى بهم جميعاً ، إنه عليم بحالى ، حكيم فى تدبيره .

وأعرض عنهم واشتد أسفه حتى ابيضت عيناه وقال له بنوه :

— لا تزال تذكر يوسف حتى تمرض فلا تستطيع النهوض ، أو تكون من الهالكين .

قال :

— إنما أشكو ما بى إلى الله، وأعلم منه مالا تعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من رحمة الله، إنه لا ييأس من رحمته إلا الكافرون.

فرجعوا إلى عزيز مصر ، فلما دخلوا عليه قالوا :

— لقد مسنا وأهلنا الجوع ، وجئناك ببضاعة رديئة فأتم لنا الكيل ، وتصدق علينا إن الله يحب المتصدقين .

قال :

— هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه حين كنتم تجهلون شناعته ؟

قالوا له :

— أأنت يوسف ؟

قال :

— نعم أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا :

— والله لقد اختارك الله علينا ، ولقد علمنا أننا كنا خاطئين فيما فعلناه معك .

قال :

— لا لوم ولا تأنيب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . ارجعوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يرتد بصيرا كما كان وأتونى بأهلكم أجمعين .

ولما انفصلت القافلة عن أرض مصر قال أبوهم لمن كان معه :

— إنى لأشم ريح يوسف ، ولولا خوفى من أن تنسبونى إلى ضعف العقل لقلت لكم إنه قريب منا .

قال الحاضرون له :

— تالله إنك لفى خطئك القديم ، وحبك العميق ليوسف ، واعتقادك فيه أنه حى يرزق .

فلما جاء البشير الذى أرسله أبناؤه بالقميص ، وهو أحدهم ، ألقاه على وجه يعقوب فرجع مبصراً كما كان .

قال :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ منَ الله مَالَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

قال إخوة يوسف :

— يا أبانا اطلب لنا من الله المغفرة إنا كنا خاطئين .

قال :

« سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

فلما دخلوا على يوسف ضم إليه أباه وخالة له كان قد تزوجها أبوه بعد وفاة أمه ، وقال :

« ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ » .

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » ، وهو سرير الملك ، وخر إخوته سجدا على عادتهم فى تحية الملوك ، وقال يوسف :

« يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاى مِنْ قَبْل قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » .

حكيم يفعل كل شيء على أقصى وجوه الإحكام . رب قد منحتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل العلوم والرؤى ، خالق السموات والأرض ، أنت متولى أمرى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

قيل عاش معه يعقوب أبوه أربعا وعشرين سنة ، ولما حضر يعقوب الموت :

« قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَاسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وقد مات يعقوب بعد أن أوصى أن يدفن عند أبيه وجده — فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه فحنطوه وحمل إلى فلسطين ودفن هناك .

شعيب عليه السلام

ذكر شعيب فى القرآن المجيد عشر مرات — فى سورة الأعراف فى الآيات ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ وفى سورة هود فى الآيات ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، وفى الآية ١٧٧ من سورة الشعراء ، وفى الآية ٣٦ من سورة العنكبوت .

أما قومه فهم شعب مدين ، ويعبر عنهم فى التوراة بمديان ، وكانوا يسكنون الحجاز مما يلى الشام . وكانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش ، وهم مع ذلك أهل تجارة وكانوا يعبدون غير الله تعالى ويفعلون الشرور ولا يكفون . فكانوا يطففون المكيال والميزان ، وعاثوا فى الأرض الفساد . فأرسل الله لهم شعيبا من أوسطهم نسباً وأعلاهم خلقاً ، فقال لهم :

— يا قومى، اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، مالكم من إله غيره . ولا تنقصوا الكيل والميزان فيما تبيعون . وإن ما أبقاه الله لكم من المباحات خير لكم من المحظورات التى نهاكم عنها .

قالوا متهكمين به :

— أصلاتك يا شعيب تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا وأن لا نتصرف فى أموالنا على ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد .

قال :

— يا قوم أرأيتم إن كنت على حجة واضحة من ربى ، ورزقنى منه رزقاً حـــلالا ، فهل يسوغ لى مع هـــذه النعم الجزيلة أن أتقاعس عن تنفيذ أمره وتبليغ وحيه ؟ ولست أريد أن آتى ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم . ما أريد إلا الإصلاح جهد استطاعتى ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا تكسبنكم معاداتى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق ، أو قوم هود من الريح ، أو قوم صالح من الرجفة ، وما قوم لوط ببعيدين عنكم زمانا ولا مكاناً . واستغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا إليه

واعملوا صالحاً من الأعمال ، وإن ربي وربكم عظيم الرحمة كثير المودة ، فإنكم إن فعلتم ذلك يمتعكم متاعاً حسنا فى الدنيا والآخرة .

قالوا :

— ياشعيب ، ما نفهم كثيراً مما تقول فهما عميقاً ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة فى الدين والدنيا . على أنا لو أردنا البطش بك لما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك وما أنت علينا بعزيز .

قال :

— يا قومى أرهطى وأسرتى أعز وأكرم عليكم من الله الذى أدعوكم إليه ؟ وأشركتم به وجعلتم مراقبته والخوف منه . وأمره ونهيه وراءكم ظهريا كالأمر الذى يهون على صاحبه فينساه ولا يحسب له حساباً ، إن ربي بما تعملون محيط علما وسيجازيكم على عملكم .

ويا قومى اعملوا ما استطعتم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب .

ولما أحرج شعيب قومه بدعائهم إلى مالا يريدون من الإيمان بالله والاستقامة على الجادة ، اجتمع قومه وهددوه هو والذين آمنوا معه باخراجهم من القرية إذا لم يدخلوا فى دين قومهم . فراجعهم بقوله أو لو كنا كارهين ؟ إنا نكون قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد أن نجانا الله منها بالهداية إلى أقوم السبل وإن العود إلى ملتكم ليس بملكنا ولكن ذلك يكون إذا أراد الله خذلاننا وابعادنا عما جاءنا به من الحق — وهذا مالا سبيل لنا إلى علمه وإنما يعلمه الله الذى وسع كل شيء علما وهو الذى نتوكل عليه .

وقال الملأ من قوم شعيب يحذرون الناس من اتباع دين شعيب قائلين :

(لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون) لأنه يمنعكم التطفيف فى الميزان والكيل وهذا مما يزيد فى ثروتكم .

بذل شعيب أقصى ما يستطيع من الجهد لهداية قومه إلى طريق الحق والرشاد ، ولكنهم رفضوا أن يستمعوا إليه ، أو يؤمنوا به .

(فأَخَذتْهم الرجْفة فَأَصْبحُوا فى دَارهِم جَاثمين. الذينَ كذَّبُوا شُعيبَا كأَنْ لَمْ يغْنَوَا فيها الَّذِينَ كذَّبُوا شُعيبا كَانُوا هُمْ الخَاسرين) .

— — —

أرسل الله رسوله شعيبا إلى أصحاب الأيكة . وهم قوم كانوا أصحاب غيضة وشجر وزرع وثمر ، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين ، فلما نهاهم عما هم فيه قالوا :

— إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين .

قال :

— ربى أعلم بما تعملون .

فأخذهم عذاب يوم الظلة يوم استظلوا من الحر المنبعث عليهم تحت سحابة فأمطرتهم ناراً فأحرقتهم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين .

يقول الله تعالى فى سورة الإعراف :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ . وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ . فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ » .

وفى سورة هود :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ . قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ : يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » .

وفى سورة الحجر : « وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِأَمَامٍ مُبِينٍ » .

وفى سورة الشعراء : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا

الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ . قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِن السَّماءِ إنْ كُنْتَ مِن الصَّادِقِين . قَال ربِّى أَعْلَمُ بِما تعْملُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخذَهُمْ عذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يومٍ عظِيمٍ ، إنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين . وإنَّ ربَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

وفى سورة العنكبوت : « وإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعيْبًا فَقال : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وارْجُو الْيوْم الْآخِر ولَا تعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِين . فَكَذَّبُوه فَأَخذَتْهُمُ الرَّجْفةُ فَأَصْبحُوا فِى دارِهِمْ جاثِمِين » .

موسى عليه السلام

(١)

جاءت الأسرة الثامنة عشرة المصرية . وطردت ملوك الرعاة الذين كانوا فى مصر وشغلوا من تاريخها نحو أربعة قرون . من الأسرة الرابعة عشر إلى الأسرة الثامنة عشرة . وجاء أحمس رأس تلك الأسرة وطرد الرعاة ومزقهم كل مزق . وبنوإسرائيل فى أمكنتهم .

ومرت الأيام ...

ونسى بنو إسرائيل ربهم فأنساهم أنفسهم ، اصطبغوا بالصبغة الفرعونية وعبدوا آمون والعجل آبيس وسجدوا للأفعى وقالوا : إنها رمز الذكورة المخصبة وممثلة الدهاء والحكمة والخلود ، وأشركوا بالله بعد أن هداهم إلى التوحيد .

وضربت الذلة على بنى إسرائيل وأصبحوا عبيداً للمصريين .. إنهم غرباء عن البلاد جاءوا فى أعقاب العرب الذين وثبوا على الحكم فى مصر وتغلغلوا فى ربوعها واستولوا على منابع الثروات فيها ؛ أصبحت الأراضى ملك يمينهم والصناعات تحت سيطرتهم وتسربت الأموال من جيوب الشعب إلى خزائنهم .

أوجس خلفاء أحمس خيفة منهم بعد أن خرج الهكسوس من مصر ، فضموا أراضيهم إلى أراضيهم وأموالهم إلى خزائنهم وجعلوهم عبيدا لهم وضيقوا عليهم فى أعمالهم وعلى الرغم من ذلك كان تحتمس الأول يخشى أن يثوروا يوما منتهزين فرصة انشغاله فى حروبه مع السوريين ولو فعلوا لضربوه ضربة قاصمة ، لذلك كان يضع يده القوية على رءوسهم حتى لا يرفعوها ليوقى نفسه ومملكته ثورة العبيد .

وعاد تحتمس الأول من سورية ظافرا منتصرا ، وفى منف ، انطلق إلى طيبة ليقدم الشكر لإلهه آمون الذى أيده بنصره ... وقال رئيس الكهنة للملك : إن الإله يأمر ابنه الإلهى بذبح الذكور من بنى اسرائيل حتى يأمن الفتنة وتكون كلمة آمون هى العليا ، ويستتب الأمر لتحتمس ولأبنائه من بعده .

واستجاب الملك لنصيحة رئيس الكهنة ، وأمر بذبح كل الذكور من بنى اسرائيل .

(٢)

فى أثناء تلك العاصفة الهوجاء التى مرت ببنى اسرائيل فى مصر .. ولد موسى .. فلما خافت عليه أمه أوحى إليها :

« أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

فجاءت بسفط من البردى ووضعت ابنها فيه ثم ألقت به فى النهر . وما حمله التيار وبعد عنها حتى همت بالعدو خلفه والبحث عنه لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين .

وقالت لأخته :

— قصيه .

فسارت أخته على الشاطىء تتبع أثره لتعلم خبره وهى ترمقه من طرف عينها وتتظاهر أنها غافلة عنه حتى لا ينكشف أمرها ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون .

وحمله التيار إلى قصر الملك وقد خرجت الملكة مع جواريها يغتسلن فى النيل ، فلمحت بين الأشجار سفطا به غلام صغير ، فهرعت إحداهن إليه وانتشلته . ونظرت الملكة . — امرأة فرعون — إليه فوقعت عليه رحمتها وألقى الله فى قلبها حبه فضمته إليها وقبلته فى حنان شديد .

وأقبل فرعون ، فلما رأى الطفل قال :

— ما هذا ؟

— طفل التقطناه من اليم .

— إنه ابن من أبناء العبريين ، اقتلوه .

— « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ . لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .

واستوهبته إياه فوهبه لها .

وبكى الطفل فالتمست له المراضع فلم يأخـذ من أحد من النساء . وقالت أخته :

— « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ » .

وأعاد الله لأم موسى ولدها لتكون ظئرا له وتتقاضى على إرضاعه أجراً وهى آمنة كيد الكائدين وسعى الساعين .

وأطلقت عليه امرأة فرعون اسم « موشا » لأنها وجدته بين الماء (مو) والشجر (شا) .

ترعرع موسى فى القصر . ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما ، كان يرى كل من فى القصر يسجدون لآمون ويقدمون له القرابين ، ولكن الله كرم وجهه فلم يسجد لإله من آلهة المصريين . وكان يحز فى نفسه أن قومه الذين اهتدوا إلى رب السموات والأرض ارتدوا إلى عبادة العجل والأفعى والثور .

وفى ذات يوم أقبل إلى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه فقيل إنه خرج إلى منف ، فركب موسى فى أثره ودخل منف وكان النهار قد انتصف ، وقد أغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد . وبينما هو يمشى فى ناحية من المدينة إذ رأى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر

من قصر فرعون ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال :

— هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

وأحس بندم شديد فرفع وجهه إلى السماء وقال :

— « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى » .

« فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

« رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِين » .

« فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » .

يخشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن هذا القتيل إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى اسرائيل ، فلو علموا ذلك لشكوا فى أنه منهم ولتعذر عليه أن يبقى فى القصر ليعمل على ما فيه مصلحة بنى اسرائيل .

وفيما هو سائر . . رأى ذلك الإسرائيلى الذى نصره بالأمس يقاتل رجلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

— موسى ، انصرنى يا موسى .

فقال له موسى :

— « إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ » .

وأقبل نحوهما فلما لمح الإسرائيلى الشر فى عينى موسى خاف منه وقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » .

سمع المصرى ما قاله الإسرائيلى فذهب إلى القصر وأفشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وكان خباز الملك . وبلغ النبأ مسامع فرعون فقال :

— خذوه واقتلوه بجنايته .

وكان أحد أنصار موسى عند فرعون لما أصدر أمره بقتله . فخرج يغذ السير ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال :

— ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين.

فخرج موسى من مصر خائفاً يترقب ، وفي وسط هذه المحنة الشديدة ، قال :

— رب نجني من القوم الظالمين .

(٣)

خرج موسى من مصر بلا زاد ولا راحلة !

توجه جهة أرض مدين — وهي بلاد واقعة حول خليج العقبة من جهة الشمال قريباً من شمال الحجاز وجنوب فلسطين — وهو على هذا الوضع الشديد . . فتضرع إلى ربه القوى المتين :

« عَسى رَبِّى أنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

ولما وصل مدين . . رأى على الماء جماعات كثيرة من الناس يسقون ماشيتهم ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن ورود الماء ، فاقترب موسى منهما وقال :

— « ما خَطْبُكُما ؟ » .

« قالتا » : « لَا نسْقى حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبُونا شيْخٌ كبِيرٌ » .

نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة كبيرة ، فتقدم فرفع تلك الصخرة وحده وكان لايرفعها إلا عشرة رجال ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ورد الحجر كما كان . وتولى موسى إلى ظل الشجرة وبطنه لاصق بظهره من شدة الجوع وقال :

— « ربِّ إنِّى لِما أنْزلْت إلَىَّ مِنْ خيْرٍ فقِير » .

سورة القصص .

وعادت الفتاتان إلى أبيهما فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعاً ؟

قالتا :

— عاوننا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

— يبدو ياأبى أنه جائع مكدود .

فأمرها أبوها أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءت تمشي على استحياء حتى إذا بلغته وهو فى ظل الشجرة قالت له :

— « إِنَّ أَبِى يدْعُوك لِيجْزِيلَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » .

فقام معها وقال لها :

— امضى .

فمشت أمامه فضربتها الرياح فبدت مفاتن جسدها ، فقال لها :

— امش خلفى ودليني على الطريق .

واستمر فى سيره حتى دخل على شعيب ، وراح يقص عليه ما جرى له فى مصر فلما انتهى من قصته قال له الشيخ :

— « لَا تخفْ ، نجوْت مِن الْقوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وقالت صفورة ابنة الشيخ :

— ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين .

فقال لها الشيخ :

— وما علمك بهذا ؟

— إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال .

— وما أدراك بأمانته ؟

— إنى مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني فى نفسي وأمرنى أن أمشي خلفه .

سورة القصص ٢٣ ، ٢٥ .

فقال شعيب لموسى :

« إنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتيَّ هَاتيْنِ علَى أَنْ تأْجُرَنِى ثَمَانِى حِجَجٍ ، فإِنْ أَتْممْتَ عشْرًا فَمِنْ عِنْدِكِ ، وما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّالِحِين » .

قال :

— « ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فلَا عُدْوانَ عَلَيَّ ، واللهُ علَى ما نقُولُ وكِيلٌ » .

وتزوج موسى صفورة وقد أجر نفسه للشيخ ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، وبقى موسى يرعى الغنم . ويعبد الله العلى القدير .

فلمَّا قَضَى موسى الأجل وسار بأهله ، آنس من جانب الطور نارا موقدة ، فلما أبصرها ، وكان فى ليلة شاتية باردة (قَال لِأَهْلِهِ : « امْكُثُوا إِنِّى آنسْتُ نارًا لَعلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبر أَوْ جذْوة مِنَ النَّارِ لَعلَّكُمْ تَصْطلُون . فلمَّا آتاها نُودِىَ مِنْ شاطِىءِ الْوادِ الْأَيْمنِ فِى الْبُقْعةِ الْمُباركةِ مِن الشَّجرةِ » .

« يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّك فَاخْلعْ نَعْليْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقدَّس طُوًى . وأَنا اخْترْتُك فاسْتَمِعْ لِما يُوحى . إِنَّنِى أَنا اللهُ لَا إِلٰه إِلَّا أَنا فَاْعْبُدْنِى وأَقِمِ الصَّلَاة لِذِكْرِى . إِنَّ السَّاعة آتِيةٌ أَكادُ أُخفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نفْسٍ بِما تسْعَى . فلَا يصُدَّنَّك عنْها منْ لَا يُؤْمِنُ بِها واتَّبع هَواهُ فَترْدَى » .

وخلع موسى نعليه ولم يذهب عنه الخوف ، فقال له الله مؤنسا فهو يعلم ما فى يده وما يخفى صدره .

– « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى ؟ » .

قال :

« هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ولِيَ فِيهَا مآرِبُ أُخْرَى » .

قال :

– « أَلْقِهَا يَا مُوسَى » .

« فأَلْقَاهَا فإذا هِيَ حيَّةٌ تَسْعَى ... فلمَّا رآها تهْتزُّ كأَنَّها جانٌّ ولَّى مُدْبِرًا ولمْ يُعقِّبْ) . فناداه ربه العزيز الحكيم :

« يا مُوسى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يخافُ لَدَيَّ الْمُرْسلُونُ » أقبل ولاتخف إنك من الآمنين . فلما رجع ورأى الحية تسعى بقى على خوفه فقال الله له : « خُذْها ولَا تخفْ سنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولَى » .

فمد يده إلى الحية فإذا هى قد عادت عصا كما كانت ، وقال له الله : « اسْلُكْ يدك فِى جيْبِك تخْرُجْ بيْضاءَ مِنْ غيْر سُوءٍ ، واضْمُمْ إليْك جَنَاحَك مِن الرَّهْبِ » .

فوضع موسى يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، وشغل فكره بالعصا التى صارت حية تسعى وبيده التى أضاءت كالبدر فقال له الله :

« فَذَانِكَ بُرْهانَانِ مِنْ ربِّك إِلَى فِرْعوْن وَمَلئِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسِقِين » .

فقال موسى :

« ربِّ إنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نفْسًا فأَخافُ أَنْ يَقْتلُونِ . وأَخِى هارُونُ هُو أَفْصحُ مِنِّى لِسانًا فأَرْسِلْهُ معِى رِدْءًا يُصدِّقُنِى إنِّى أَخافُ أَنْ يُكذِّبُون »

قال : « سَنَشُدُّ عضُدك بِأَخِيك ونجْعلُ لكُمَا سُلْطانًا فلَا يصِلُون إليْكُمَا بِآيَاتِنَا ، أَنْتُما و منِ اتَّبعكُما الْغالِبُونَ » .

فقال موسى فى ابتهال :

« ربِّ اشْرحْ لِى صدْرى . ويسِّرْ لى أَمْرى ، واحْلُلْ عُقْدةً مِنْ لِسانِى . يفْقهُوا قوْلِى » .

وسار موسى وأهله وهو يفكر فى فرعون الذى طغى ، ودخل موسى وأهله مصر خلسة . وانطلق إلى أمه ففرحت به فرحاً عظيماً ، وقص على أخيه هارون قصته ثم قال :

— ياهارون انطلق معى إلى فرعون إن الله قد أرسلنا إليه .

(٤)

دخل موسى وهارون على فرعون ، فراح فرعون ينظر إلى موسى ثم قال :

— ماذا تريد ؟

— إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ

وعرف فرعون موسى فقال له :

— أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ؟ .

وعرف موسى أنه يحدثه عن المصرى الذى قتله فقال :

— فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ

لِي ربِّى حُكْمًا وجعلنِى مِن الْمُرْسلِين » .

قال فِرْعوْنُ : وما ربُّ الْعالمِين ؟ .

قال : ربُّ السَّمٰواتِ والْأَرْضِ وَمَا بيْنهُما إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين .

قال فرعون لمن حوله : « أَلَا تسْتَمِعُون ؟ » .

قال موسى : « ربُّكُمْ وربُّ آبائِكُمْ الأَوَّلِين » .

قال فرعون : « إنَّ رسُولكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إليْكُمْ لمجْنُونٌ » .

قال موسى : « ربُّ الْمشْرِقِ والمغْرِبِ وما بيْنهُما إنْ كنْتُمْ تعْقِلُون »

فقال فرعون : « لئِنْ اتَّخذْت إلٰهًا غيْرِى لَأَجْعلَنَّكَ مِن الْمسْجُونِين »

« قَال أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ؟ » .

« قَال فَأْتِ بِهِ إنْ كُنْتَ مِن الصَّادِقِين » .

فَأَلْقى عصاهُ فَإِذَا هِى ثُعْبانٌ مُبِينٌ . ونَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ .

فنظر فرعون فى دهشة فقال له موسى وهارون :

« إنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، إنَّا قَدْأُوحِيَ إِلَيْنَاأَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

« قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ » .

« قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

قال : « فَمَا بَالُ الْقُرُون الأُولَى ؟ » .

قال موسى : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى . الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

فقال فرعون :

« أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنَ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ؟ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى »

قال : « مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » .

وجمع فرعون السحرة . . .

قال لهم موسى : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى » .

قال فرعون : « إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى » .

قالوا : « يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى »

قال موسىٰ : « بَلْ أَلْقُوا » .

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه :

« لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَاصَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا :

« آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ » .

وثار فرعون ، فقد خشى أن يفلت زمام الشعب من يده ، فقال للسحرة :

« آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » .

قال السحرة : « لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

* * *

هجر بنو اسرائيل عبادة آمون والعجل وما كان يعبد المصريون ، وعبدوا الله وحده لا شريك له .

وقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ :

ـ «أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟» .

قال : « سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

أمر فرعون بقتل أبناء بنى اسرائيل فحاق بهم ضيق شديد وكرب عظيم .

قال موسى لقومه :

« اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

قالوا : « أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » .

قال : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

قال فرعون لمن حوله : « ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه :

« أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ » .

قال فرعون : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ »

قال الذى آمن : « يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ .

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »

قال فرعون لوزيره : « يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » .

« وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ .

وقال الذى آمن : « يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ ؟ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

(٥)

أخذت فرعون العزة بالإثم ، وتمادى فى تكذيب موسى واستمر فى إعنات بنى إسرائيل وإيقاع ضروب الإذلال والإهانة بهم . فأمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه وامتناعهم عن إطلاق بنى إسرائيل .

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف :

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » .

* * *

تأهب بنو اسرائيل للخروج سراً ولكن كيف يخرجون وهم أقنان الأرض . ذهب موسى وهارون وأكابر بنى اسرائيل إلى فرعون ، يرجونه أن يأذن لبنى اسرائيل فى الخروج إلى عيد لهم فلم يقبل ، فظلوا به يرجون ويلحفون فى الرجاء حتى قبل وهو كاره .

فرح بنو اسرائيل لقرب الخلاص وخرجوا متظاهرين بالاحتفال بالعيد، وذهب موسى وهارون وبعض القوم إلى حيث وضع تابوت يوسف الصديق وأخرجوه ثم حملوه فيما بينهم ، فقد عزموا على أن يذهبوا به ليدفنوه هناك فى الخليل إلى جوار ابراهيم وإسحاق ويعقوب . . .

ولما جاء الليل . . خرج بنواسرائيل يتسللون واجتمعوا خارج المدينة ، ثم انطلقوا إلى الشمال ليسلكوا نفس الطريق الذى تسلكه بعثات التعدين إلى سيناء .

بلغ بنواسرائيل ساحل البحر الأحمر على خليج السويس واطلع عليهم مع شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم فسكن موسى روعهم وضرب البحر كما أمره الله تعالى فانفلق حتى ظهرت أرضه وأمر بنى اسرائيل بالعبور فيه .

وأشرف فى ذلك الوقت فرعون على الموضع الذى عبر منه بنواسرائيل فرأى طريقاً فى البحر لاوعورة فيه . فطمع أن يعبر فى أثرهم فيردهم هو وجنوده . فاقتحموا الطريق اليابس فى البحر خلف بنى اسرائيل . فلما جاز بنو اسرائيل البحر ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة . وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق عليهم البحر وعاد كما كان أولا . وغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحد، فى ذلك الوقت الذى أدرك فيه فرعون الغرق قال :

« آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

(٦)

جاوز بنواسرائيل البحر وساروا فى سيناء أرض عبادة إله القمر سين . كان بنواسرائيل قد ألفوا وثنية المصريين وقلدوهم فى وثنيتهم ، فحنوا إلى أن يجعلوا لله أصناماً بعد أن عرفوا الله رب السموات والأرض .

فجاءوا إلى موسى وقالوا له :

– « اجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

فغضب موسى وقال لهم :

– « إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وباطِلٌ ما كَانُوا يعْمَلُونَ . أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وهُو فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِين ؟ » .

وسار موسى بقومه صوب الأرض المقدسة ، إنه لن يدخلها حتى يقاتل أهلها فقال :

– « يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ علَيْكُمْ إِذْ جعل فِيكُمْ أنْبِياء وجعلَكُمْ مُلُوكًا وآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحدًا مِن الْعالَمِين . يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْض الْمُقدَّسةَ الَّتِى كَتَب اللهُ لَكُمْ ولَا ترْتَدُّوا علَى أَدْبارِكُمْ فَتنْقلِبُوا خاسِرِين » .

قالوا :

– « يامُوسىٰ إِنَّ فِيها قَوْمًا جبَّارِين . وإِنَّا لَنْ ندْخُلَها حتَّى يخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ » .

قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما :

– « ادْخُلُوا علَيْهِمُ الْباب فَإِذَا دخلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وعلَى اللهِ فَتوكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » .

قالوا :

– « يا مُوسىٰ إِنَّا لَنْ ندْخُلَها أَبدًا ما دامُوا فِيها ، فَاذْهبْ أَنْتَ وربُّكَ فَقاتِلَا إِنَّا هٰهُنا قَاعِدُونَ » .

قال :

— « ربِّ إنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نفْسِى وأَخِى فَافْرُقْ بيْننا وبيْن الْقوْمِ الْفاسِقِين »

قال :

« فَإِنَّها مُحرَّمةٌ علَيْهِمْ أَرْبعِين سنةً يتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ ، فَلَا تأْسِ علَى الْقوْمِ الْفاسِقِين » .

وبقى بنو اسرائيل فى التيه فى صحراء سيناء القاحلة ، وراحوا يبحثون عن الماء فلم يجدوه فشكوا إلى موسى متذمرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط من الأسباط عين تجرى بالماء يشرب منها . وأحسوا الجوع فهرعوا إلى موسى يلتمسون الطعام فدعا موسى ربه أن يطعمهم فساق إليهم أسراب المن والسلوى .

وضاق كثير من بنى اسرائيل بحياتهم الجديدة فقالوا لموسى :

« ياموسىٰ لَنْ نصْبِر علَى طَعامٍ واحِدٍ . فَادْعُ لَنا ربَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبتُ الْأَرْضُ مِنْ بقْلِها وقِثَّائِها وفُومِها وعدسِها وبصلِها » .

قال موسى :

— « أَتسْتبْدِلُونَ الَّذِى هُو أَدْنَى بِالَّذِى هُو خيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ ما سأَلْتُمْ » .

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقبل أن يذهب موسى ليأنس بالله عز وجل ويناجيه قال لأخيه هارون : : « اخْلُفْنى فِى قَوْمِى وأَصْلِحْ ولَا تتَّبِعْ سبِيل الْمُفْسِدِين » .

وانطلق موسى لميقات ربه إلى جبل طور سيناء .. كلمه ربه فناداه وقرّبه . فقال موسى :

« ربِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » .

قال :

« لَنْ تراني ، ولٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجبلِ فَإِنْ اسْتقرَّ مكَانَهُ فَسوْفَ تراني »

« فَلَمَّا تجلَّى ربُّهُ لِلْجبلِ جعلَهُ دكًّا وخرَّ مُوسى صعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَال : سُبْحانكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وأَنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِين » .

فقال الله :

« يا مُوسى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ علَى النَّاسِ بِرِسالَاتِي وبِكَلَامِي . فَخُذْ ما آتيْتُكَ وكُنْ مِن الشَّاكِرِين » .

وكتب الله له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء .

قال الله لموسى : « وما أَعْجلَكَ عنْ قَوْمِكَ يا موسىٰ ؟ » .

قال : « هُمْ أُولَاء علَى أَثَرِى وعجلْتُ إِلَيْكَ ربِّ لِترْضى » .

قال : « فَإِنَّا قَدْ فَتنَّا قَوْمكَ مِنْ بعْدِكَ وأَضَلَّهُمْ السَّامِرِىُّ » .

« فَرجع مُوسى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفًا » .

كان موسى قد ذهب لميقات ربه وكان قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما أتمها بعشر ولم يعد جاء السامرى وقال لهم :

— إن موسى قد احتبس عنكم ، إنه ليس براجع إليكم فينبغى لكم أن تتخذوا إلهاً .

وصادف قول السامرى هوى فى نفوسهم . وجاءهم بعجل له خوار وقال لهم السامرى :

« هذَا إِلٰهُكُمْ وإِلٰهُ مُوسى فَنَسِىَ » .

فقال لهم هارون : « ياقَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وإِنَّ ربَّكُمْ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِى وأَطِيعُوا أَمْرِى » .

قالوا : « لَنْ نبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » .

وَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا . . وقال لهم :

« بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ » . قال :

« يَا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنى ، فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاء وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

قال موسى : هل قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ؟ .

قال : « يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ، إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى » .

قال موسى : « رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

وسأل موسى السامرى : « مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ ؟ » .

قال : « بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يُبْصِرُوا بِهِ » ، بصوت جبريل فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها على العجل وكذلك سولت لى نفسى .

قال : « فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا » .

ونسف موسى العجل وقال لقومه :

« إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » .

وأطرق بنو إسرائيل خجلاً فقال لهم موسى :

« يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

ورأى بنواسرائيل أن يستغفروا ربهم فكلموا موسى ، فاختار موسى سبعين رجلا من علماء بنى اسرائيل وانطلقوا ليعتذروا عن بنى اسرائيل ، واقتربوا من الجبل فصعد موسى يكلم ربه وصعد بنواسرائيل يسمعون .

وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجل ، ثم رجع إلى قومه فقالوا له :

— ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السماء فماتوا جميعاً ، فقال موسى لربه :

« رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . وَاكْتُبْ لَنَا فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » .

قال : « عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ »

وظل موسى يناجى ربه حتى بعثهم من بعد موتهم ، فعادوا فى التيه لايفكرون فى الدخول إلى الأرض المقدسة فانها محرمة عليهم أربعين سنة : ومضت السنوات . . فمات هارون ومات بعده موسى(1) فالتفوا حول فتاه يوشع بن نون .

وانقضت سنوات التيه فخرج بنواسرائيل بقيادة يوشع لغزو الكنعانيين ودارت بين الفريقين معارك رهيبة .

وتأخر فتح أورشليم فغضب ذو النون من ربه وذهب مغاضباً فظن أن لن يقدر الله عليه . واستمر القتال وحاق الغم بذى النون ولم يجد له ملجأ إلا الله فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجاب له ربه ونجاه من الغم وجاء النصر . . ودخل بنواسرائيل بيت المقدس .

(٧)

كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر وله ابن فقتله أبناء عمه ليرثوا أباه ، ثم جاءوا يطالبون بديته ودمه وتخاصموا فى ذلك فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة

---

(١) جاء فى التوراة سفر العدد ١٦ : (أخذ قورح بن بصهار بن لاوى وداثان وأبيرام ابنا ألياب وأدن بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل مائتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوى إسم ، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب ؛ فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟)

كانت هذه بداية مؤامرة دبرها الخارجون على موسى وهارون ، ولكن الله عجل لهم العذاب وأنزل عليهم العقاب (وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال . فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة) وعلى ما يبدو فإن المؤامرة كانت جماعية ، يقرها جميع بنى إسرائيل الذين أتوا موسى مجتمعين . (تذمر كل جماعة بنى إسرائيل فى الغد على موسى وهارون قائلين : أنتما قتلتما شعب إسرائيل) وأراد الله أن ينصر الذين نصروه ويحق القول على بنى إسرائيل فقد قال لموسى وهارون (أطلعا من وسط هذه الجماعة فإنى أفنيهم بلحظة) .

أى بقرة كانت فلم يسرعوا إلى الامتثال، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، وقالوا:
— أتتخذنا هزواً .

قال موسى : « أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

قالوا : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ » .

قال : « إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ[١] بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ » .

قالوا : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ » .

قال : « إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »

قالوا : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » .

قال : « إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا »[٢] .

قالوا : « الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » .

وطلبوها فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير ، وكان أبوه من الصالحين وكان له عجلة فأتى بها إلى غيضة وقال :

— اللهم إنى استودعك هذه العجلة لابنى حتى يكبر .

ثم مات الرجل الصالح وشبت العجلة فى الغيضة حتى صارت عواناً وكانت تهرب من كل من رآها . فلما كبر الإبن وكان باراً بوالدته قالت له أمه :

(١) أى إنها بقرة ليست صغيرة ولا كبيرة ، بل وسط بين هذا وذاك .

(٢) أى أن البقرة لم يسبق لها عمل فى حرث الأرض ولا سقيها سليمة من العيوب ليس فيها لون مخالف .

— يا بنى إن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا واستودعها الله تعالى ، فانطلق إليها وأعزم عليها باله ابراهيم وإسماعيل وإسحق أن يردها عليك .

فأتى الفتى الغيضة فرآها ، وأخذها . . فلما أمر الله قوم موسى بذبح البقرة لم يجدوها بكمال وصفها إلا عند الفتى البار بأمه واشتروها بملء جلدها ذهباً . وذبحوها وأخذوا جزءاً منها فضربوا القتيل فعاش فسمى لهم قاتله ثم مات مكانه — قال الله تعالى — كذلك يحيى الله الموتى — كما أحيا القتيل بعد موته — ويريكم آياته — دلائل قدرته وشواهد حكمته — لعلكم تعقلون .

(٨)

خطب موسى فى بنى اسرائيل فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وإستخلفهم فى الأرض . قال : وكلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه ، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفهم إياها ؛ فقال له رجل منهم :

— قد عرفنا الذى تقول . فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله ؟

قال :

— لا .

فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه . وأوحى الله إليه ، أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى :

— يارب . فكيف لى به ؟

قال :

— تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو هناك .

فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا صخرة ، ووضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت وسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فصار الماء عليه مثل الطاق وكأنه دخل فى كوة الحائط .

فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كانا من الغد :

قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » .

قال : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » .

واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا أثار عجب الناس .

فقال موسى : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى .

وقال :

« هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟ » .

قال : « إِنَّكَ لَنْ تَستَطِيعَ مَعِى صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟ » .

قال : « سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا » .

قال : « فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرا » .

« فَانْطَلَقَا . . حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا »

قال موسى : « أَخَرَقْتَهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » .

قال : « أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِى صَبْرًا » .

قال : « لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا » .

فَانْطَلَقَا . . حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ :

« أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا » .

قال : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » .

قالَ : « إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . «فَانْطَلَقَا .. حَتَّى إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ » .

قال : « لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » .

فقال : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » .

(٩)

علمنا من هذه القصة ماكابده موسى وهارون فى معالجة شؤون بنى اسرائيل وسياستهما لتلك الجماعة المشاغبة . وأن هارون مات فى جبل هور وأن موسى مات ودفن فى جبل نبو بعد أن أشرف على فلسطين . وقد أثنى الله تعالى ثناء عاطراً على موسى وهارون لما كابدا من عنت وإرهاق قومهما وشدة مراسهم مع ماكانا عليه من الإيمان العميق والإخلاص التام .

يقول الله تعالى فى سورة مريم :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا » .

وفى سورة الصافات :

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » .

وفى سورة غافر :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَابِ » .

داود عليه السلام

لما دخل بنو اسرائيل فلسطين مع يوشع بن نون وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم إلى وفاته . وأقاموا على ذلك يقيم لهم أمرهم قضاة منهم وليس فيهم ملك ستا وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام .

بعث الله صمويل نبياً إلى بنى اسرائيل ، فأخذ بدعوهم إلى عبادة الله وحده وهجر السيئات ، وكانوا يصغون إلى دعوته ولكنهم ماكانوا يعملون بما يقول فقد أغرتهم الحياة الدنيا وصاروا عبيد اللذات .

وتأهب الكنعانيون أهل فلسطين لقتال بنى اسرائيل ، وتأهب بنواسرائيل لقتالهم ودارت معركة رهيبة بين الفريقين ، فانهزم بنواسرائيل هزيمة ساحقة ، واجتمع شيوخهم يفكرون فيما حاق بهم فأرجعوا سبب تخلى الله عنهم إلى أنهم خرجوا للقاء أعدائهم دون أن يأخذوا معهم التابوت المقدس الذى وضعوا فيه بعض ألواح التوراة ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

إنهم ماجاءوا أعداءهم ومعهم التابوت إلا أيدهم الله بنصر من عنده ، فبعثوا الرجال ليحضروه ليبعث فى قلوبهم الأمن والطمأنينة ويقلب الهزيمة نصراً ، وما أن رأوا التابوت حتى دبت الحماسة فى صدورهم وتطلعوا إلى معركة الثأر من الأعداء .

وهجم الكنعانيون على الأعداء، ففر بنو اسرائيل مفزوعين، فقدكانت قلوبهم خواء وماكانت هتافاتهم المدوية للتابوت إلا صيحات جوفاء أطلقتها الحناجر لتذهب فى الهواء . وتداعى بنو اسرائيل قتلى تحت سيوف الكنعانيين ونجا بجلده من أطلق ساقيه للريح ، وسقط التابوت المبارك فى أيدى الأعداء . .

ومرت السنون وصمويل يدعو بنى اسرائيل إلى الله الواحد القهار . وأن يعبدوه وحده لاشريك له ، يخلصهم من أعدائهم وينصرهم عليهم .

فقالوا له : تبنا إلى الله وأنبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم تطهيراً لأنفسهم وتقرباً إلى الله ليؤيدهم بنصر من عنده ، ونشب القتال بين بنى اسرائيل وبين الكنعانيين أهل فلسطين فانتصر بنو اسرائيل بعد أن طهرهم صمويل من رجسهم وبث فيهم روح التضحية والإقدام .

اجتمع شيوخ بنى اسرائيل وصمويل وقالوا له :

— نريد ملكاً يلم شملنا ونلتف حوله .

فقال لهم :

— أتعلمون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ يأخذ أبناءكم ليركضوا أمام مراكبه . ويجعل لنفسه آلاف الخدم والأقنان ليحرثوا أرضه ويحصدوا حصاده . ويأخذ بناتكم حظايا وسرارى ، ويستولى على أجود أراضيكم ليمنحها عبيده ، وستصبحون جميعاً عبيداً له ، وستضرعون إلى الله أن يخلصكم منه ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

قالوا :

— يانبى الله إننا نعلم كل ذلك ونقبله ، فكل ما نتمناه أن يكون علينا ملك يجمع كلمتنا ويقودنا لقتال أعدائنا الذين أذلونا .

فقال لهم صمويل :

« هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا » .

فقالوا : « وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا » .

قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » .

قالوا : « أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ » .

قال : « إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، واللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

قالوا وما أدرانا أن الله اختار طالوت ليكون ملكا علينا ؟

قال « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

وتحققت آية الله فإذا بهم يجدون التابوت المبارك أمامهم ، ففرحوا وهتفوا بحياة أول ملك فى إسرائيل .

وكان على بنى إسرائيل أن يستعدوا للقتال فجاء طالوت وقال لهم :

« إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ » .

وخرج إخوة داود مع الجيش وبقى داود يرعى غنم أبيه . .

سار جيش بنى اسرائيل حتى إذا وصلوا إلى النهر راح الرجال يشربون منه وعصوا أمر طالوت إلا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يقفلوا راجعين فلا خير فى جنود لايطيعون ما يصدر إليهم من أوامر دون تفكير .

وعبر طالوت والذين معه النهر وانطلقوا حتى أصبحوا أمام جيش جالوت حاكم الكنعانيين ، فلما رأوا جيش جالوت اللجب مشى الرعب فى أوصالهم فقالوا :

— لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال الجنود الذين يظنون أنهم ملاقو الله :

« كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »

وأصبح جيش طالوت أمام جيش جالوت وجها لوجه ، فدعا المؤمنون ربهم قالوا :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال جالوت : « يا طالوت .. أبرز إلىّ أو أبرز إلىّ من يقاتلنى ، فإن قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم » .

فشق ذلك على طالوت فنادى فى جنده :

« من قتل جالوت زوجته ابنتى وجعلت بيت أبيه حرا فى إسرائيل »

فلم يغر ذلك الوعد أحداً من بنى اسرائيل فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت يزف إلى القبر قبل أن يزف إلى ابنة طالوت .

وانقضت أربعون يوماً والحرب محتدمة وجالوت يخرج كل يوم بين الصفوف ، ويصيح بالرجال أن يخرجوا لقتاله فلا يجرؤ أحد على الخروج ، فكان يسخر بهم .

وفى ذات يوم ترك داود غنمه وذهب ليرى إخوته المحاربين ، فبلغ ساحة القتال فوجد الجيشين اصطفا للنزال وخرج جالوت بين الصفوف وراح يصيح فى اعتداد :

— أما من أحد يريد أن يقاتلنى ؟

وكان الصمت هو الجواب . وغضب داود فقد رأى المؤمنون يخافون جالوت رأس الكفر ولا يخجلون من الله الذى يحاربون فى سبيله ، فانطلق داود من بين الصفوف وصاح :

— أنا أقاتلك .

وألبس طالوت داود درعا وأعطاه سلاحاً وفرساً . فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زهوا فانصرف وعاد سريعاً إلى طالوت فقال من حوله :

— جبن الغلام .

وقال طالوت :

— ما شأنك ؟

فقال له داود :

— إن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئاً . فدعنى أقاتل كما أريد .

فقال له طالوت :

— افعل ما تريد .

فأخذ داود مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت . وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم . وكان له فرس أبلق مثله فى الشدة والقوة . فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب ، فقال له :

— أنت تبرز إلى . ؟

قال داود :

— نعم .

وكان جالوت راكباً على فرس أبلق وعليه السلاح التام فقال له :

— يا بنى تأتينى بالحجر والمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر ؟

قال :

— أنت أشر من الكلب .

أدار داود المقلاع وأرسل الحجر فأصاب به عين جالوت فسقط ، فخف داود إليه وقعد على صدره وحز رأسه فانبعثت أصوات الهلع والفزع من صفوف الفلسطينيين وأصوات التهليل والفرح من صفوف بنى اسرائيل .

وعاد طالوت ظافراً منتصراً فخرج بنو اسرائيل لاستقباله ، ولكن طالوت كان يشعر بالكدر فلم يكن يريد أن يزوج ابنته لداود راعى الغنم ، ونسى طالوت أنه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكاً لبنى اسرائيل .

وعين طالوت داود قائداً لجيوشه فكان لايخرج إلى غزوة إلا عاد منها منتصراً . واشتهر داود وعلاذكره ولكن لم يتملكه الغرور ، كان يصلى لله ويصوم ويعتكف أياماً ليتعبد ، وأحب الشعب داود ، وتزوج ابنة الملك .

وزاد حب الشعب لداود وتعلق به كل من فى القصر حتى أهل بيت الملك فأحس طالوت غيرة وراحت تلك الغيرة تزداد على الأيام حتى فكر فى قتل داود .

وفى ذات يوم أفضى إلى يوناثان ابنه وولى عهده أنه سيقتل داود ليبقى على الملك فى أسرته فقد أصبح داود خطراً على العرش ، فقلوب الناس تلتف حوله والزمن حليفه فاذا ترك حياً فلن يحول بينه وبين الملك حائل .

كان يوناثان يحب داود وكان يؤمن بصلاحه وتقواه فأفضى إلى داود بما يدبره له الملك . فهرب داود من وجه طالوت .

وخرج داود لقتال الكنعانيين فانتصر عليهم وعاد إلى بنى اسرائيل ظافراً فاستقبلوه استقبالا رائعاً ، فتحركت الغيرة فى صدره وراحت تعذبه .

وهرب داود إلى بيته وذهب إلى زوجته ميكال يقص عليها خبره ، فأشارت عليه بالهرب ، وساعدته على الخروج من فتحة فى الحائط فانطلق هارباً من الموت .

ووضعت ميكال فى فراش زوجها متاعا مغطى لتخدع الرجال الواقفين بالباب يتجسسون . وأرسل الملك رجاله لأخذ داود ، فقالت لهم ميكال :

— ماذا تبغون ؟

— مولانا يطلب داود .

— إن زوجى مريض .

وعاد الرسل إلى الملك فأمرهم أن يأتوا إليه بداود من فراشه ، وعاد الرسل وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا فراشه خالياً .

واشتد غضب الملك وصاح بأبنته :

— لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدى ؟

فانبرت الزوجة تدافع عن زوجها ، بيد أن دفاعها لم يذهب الغضب عن الملك فبعث رسله ينقبون عن داود .

وجاء إليه رجاله يخبرونه بمكانه فخرج إليه فى جنوده ، وما إن وصل إلى حيث كان حتى وقف ينظر لا يجرؤ على أن يتقدم خطوة واحدة . فقد كان داود والنبى شمويل يصليان فى خشوع وقد غمر المكان نور إلهى . وأحس طالوت كأن فيض النور قد غسل فؤاده مما فيه من حقد فتقدم إلى حيث كان داود وشمويل ، وخلع ثيابه وخر ساجداً لله رب العالمين يصلى له ويدعوه فى ذلة .

وسرعان ما عاد طالوت إلى ما كان فيه وعاد إلى حقده على داود وراح يلتمس الفرص لقتله ، وقابل داود يوناثان ولى العهد وقال :

— ماذا عملت وما هو إثمى حتى يلتمس أبوك طلبى ؟

— سامحك الله إن أبى قد عفا عنك .

— إنى أحس بالشر يحيط بى فى كل مكان .

— إن أبى لا يعمل أمراً كبيراً أو صغيراً إلا ويخبرنى به . فلو كان ينوى قتلك لحدثنى عن ذلك .

— لقد علم أبوك حبك لى فأخفى عنك عزمه .

— وماذا ترى ؟

— غداً أول الشهر وعلى أن أشارك الملك فى مجلسه فى الوليمة التى يعدها كل شهر ، ولكنى أرى أن أتخلف عن هذه الوليمة ، فاذا سأل أبوك عنى فقل له إن داود استأذننى فى الذهاب إلى بيت لحم ليقدم قرباناً إلى الرب ،

فاذا قال الملك : « حسناً » كان ذلك دليل السلام ، أما إذا غضب وثار كان ذلك آية على ما يضمر لى من شر .

واتفقا على أن يختبئ داود حتى يكتشف يوناثان خبيئة نفس أبيه ويخبره بما يضمر له .

وعرف داود أن الملك يدبر مؤامرة لاغتياله فراح يحث الخطا هارباً بحياته .

وصل داود إلى نوب مدينة الكهان ، وأعطاه إخيالك الكاهن سيف جالوت ، وخرج داود لينضم إلى أهله وتجمع حوله الرجال حتى اشتد ساعده واحتمى بالجبال ، فلما بلغ طالوت خروج الرجال إلى غريمه أمر جنوده بقتل أخيالك وأهل بيته .

وترامى إلى داود أن الفلسطينيين أغاروا على قعيلة الواقعة على الحدود بين أرض اسرائيل و الفلسطينيين فخرج إليهم وضرب أعداءه وانتصر عليهم .

وبلغ طالوت أن داود ورجاله دخلوا قعيلة فسار إليها بغية القاء القبض على داود ، ولكنه ما إن بلغ قعيلة حتى ألفى داود ورجاله قد خرجوا منها هاربين .

كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ففى ذات يوم خرج طالوت فى ثلاثة آلاف رجل يطلب داود ، واستمر فى البحث عنه حتى بلغ الكهوف وأحس التعب يسرى فى أوصاله ، فدخل إلى كهف ونام .

وكان داود ورجاله فى ذلك الكهف فلما رأوا طالوت نائماً قالوا لداود :

— هذا هو طالوت قد ساقه الله إليك فقم فاقتله .

فقال داود :

— حاش أن أقتل رجلا إختاره الله ملكاً لبنى إسرائيل .

وسار داود حتى إذا اقترب من طالوت الغارق فى سبات عميق قطع طرف جبته ، ثم عاد إلى مكانه ينتظر استيقاظ الملك .

ونهض طالوت من رقاده وانطلق صوب باب الكهف ، وما أن خرج منه حتى سمع صوتاً يناديه :

— مولاى .

— هذا صوت داود ، لأنت داود ؟

— أنا داود ، لماذا تلقى السمع إلى من يوسوسون لك أنى أريد أن أمد لك يد الأذى ؟ أنظر إلى طرف جبتك قطعته لأدلك على ولائى ، فما كنت أقتل ملكا اختاره الله ، إنى أتركك لله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

فقال طالوت :

— أنت أبر منى يا داود ، ظفرت بى وعفوت . إنى أسأت إليك يا ولدى وقتلت رهبان الرب دون ذنب . سأبتهل إلى الله وأدعوه عله أن يغفر لى ذنبى .

وخرج الفلسطينيون فى جيش ضخم لقتال إسرائيل وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهيبة وأخذ طالوت يقاتل فى شراسة ، وانخلعت قلوب بنى إسرائيل أمام هجوم الفلسطينيين فولوا مدبرين . وثبت طالوت وأبناؤه فى ميدان المعركة ...

وسقط يوناثان صريعاً فأحس طالوت بقلبه ينزف دما ، وسقط أبناؤه حوله صرعى ، وأصابه سهم فى عنقه فأرداه .

ونصب ابن طالوت ملكاً على إسرائيل ، ومرت السنون وداود فى حبرون يحكم عشيرته ويقضى بين الناس ويتلقى وحى السماء .

ولما مات ابن طالوت علم داود أن موعد تنصيبه ملكاً على إسرائيل قد حان . وجاء أكابر بنى إسرائيل إليه يدعونه ليكون ملكاً على كل الأرض ، ونودى بالنبى الكريم ملكاً على إسرائيل ، ولما كانت حبرون لا تصلح لتكون عاصمة للمملكة كلها خرج داود ورجاله وجنوده وانطلقوا إلى حصن أورشليم .

* * *

ذات يوم ... وداود في محرابه ... جاء رجلان يلتمسان مقابلته فقال لهما الحراس :

— إنه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم لأنه في يوم عبادته .

فانطلق الرجلان إلى السور وتسلقاه ودخلا على داود وهو غارق في عبادته ، فما شعر إلا وهما جالسان بين يديه فخاف منهما فقالا له :

— لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط .

فقال :

— قصا على قصتكما .

— إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب .

فقال داود دون أن يسأل الخصم الآخر :

— لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

— يا داود ما هكذا يكون القضاء ، حكمت قبل أن تسمع طرفي الخصومة .

وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب .

يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب[1] .

إن داود النبي الكريم أتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء .

يقول الله تعالى فى سورة سبأ :

---

(١) للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضاً إلى وزر ألم به داود عليه السلام ثم غفر له . ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير فإنه قال : هذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له ، فيما قيل ، تسع وتسعون امرأة ، وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل ، امرأة واحدة ، فلما قتل نكح ، فيما ذكر ، داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخر ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه ، وتاب من خطيئته .

وأما المذهب الثانى ، فهو ما جزم به ابن جزم فى (الفصل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بنى آدم ، بلا شك ، مختصمين فى نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهما على الآخر على نص الآية .

وقال : وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وظن داود أنما فتناه) وقوله (فغفرنا له ذلك) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . وقال البرهان البقاعى فى (تفسيره) : وتلك القصه وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام ، لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه .

(محمد جمال الدين القاسمى : محاسن التأويل جـ ١٤ ، ص ٥٠٨٨) .

وقد روى عن الإمام على بن أبى طالب أنه قال : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلده » فقد اعتبر الإمام على ما يرويه القصاص قذفاً فى حق نبى كريم من أنبياء الله . إن الآيات الكريمة الواردة فى القرآن عن تسور الخصمين محراب داود ، إنما أريد بها أن يعلم الله داود أسلم مبدأ للحكم بين الناس ما دام قد جلس للقضاء

« ولقدْ آتيْنا داوُد مِنَّا فضْلًا ياجِبالُ أَوِّبِى معهُ والطَّيْر وأَلنَّا لهُ الْحدِيد . أنْ أعْملْ سَابِغَاتٍ (المراد دروعا سابغات) وقدِّرْ فِى السَّرْدِ واعْملُوا صالِحًا إنِّى بِما تعْملُون بصِيرٌ » .

وفى سورة ص :

« اصْبِرْ علَى ما يقُولُون واذْكُرْ عبْدنا داوُد ذا الْأَيْدِ إنَّهُ أَوَّابٌ . إنَّا سخَّرْنا الْجبال معهُ يُسبِّحْن بِالْعشِىِّ والإِشْراقِ . والطَّيْر محْشُورةً كُلٌّ لهُ أَوَّابٌ . وشددْنا مُلْكَهُ وآتيْناهُ الحِكْمة وَفَصْلَ الْخِطَابِ » .

وفى سورة النمل :

« وَلقدْ آتَيْنا دَاوُدَ وَسُليْمَان عِلْمًا وَقالَا الْحَمْدُ لِله الَّذِى فضَّلنَا عَلَى كثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَورِثَ سُليْمَانُ دَاوُدَ وَقالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شىْءٍ إنَّ هَذا لهُوَ الْفضْلُ الْمُبِينُ » .

* * *

كان داود على علم ببيت الله المحرم الذى كرم الله به بنى إسماعيل ، وكان يقدسه وينظر إليه نظرة إجلال ويتمنى أن يكون لبنى إسرائيل بيت مقدس فى أورشليم عوضاً عن خيمة الرب التى شدت من جلود البقر ، ولكن استغراقه فى العبادة شغله عن أن يبنى الهيكل أو يقيم القواعد من البيت(١) .

ورزق داود بسليمان ومرت السنون فكبر داود وشاخ . وفى ذات يوم جلس للناس يحكم بينهم وكان سليمان حاضراً فجاء خصمان قال أحدهما :

— إن غنم هذا الرجل دخلت حقلى وأكلت ما فيه من الزرع .

فسأل داود صاحب الغنم :

---

(١) عبد الحميد جوده السحار : السيرة النبوية ج ٣ ص ٢١٤ .

— هل فعلت غنمك هذا ؟

— نعم .

— يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم مقابل زرعه الذى فسد .

كان سليمان فى الثانية عشرة من عمره فالتفت إلى أبيه وقال :

— غير هذا يا نبى الله .

— ما ذا ترى يا سليمان ؟

— يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى إذا عاد الحقل كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأخذ صاحب الغنم غنمه .

وتهللت أسارير داود لحكمة إبنه وقضى بما قال ، ولما انقضى مجلسه ودخل إلى أهله وأقبلت زوجه إليه أخبرها أنه سينصب ابنها سليمان ملكاً من بعده .

واستدعى داود رجاله وقال لهم :

— أركبوا سليمان على بغلتى وانفخوا فى الأبواق واهتفوا : يحيا الملك سليمان ، لقد نصبته ملكاً على إسرائيل .

وركب سليمان بغلة داود ونفخ فى الأبواق ، فجاء الناس من كل فج يهتفون بحياة الملك الجديد .

سليمان عليه السلام

ذكر سليمان فى القرآن المجيد ست عشرة مرة فى الآية ١٠٢ من سورة البقرة ،وفى الآية ١٦٧ من سورة النساء ، وفى الآية ٨٤ من سورة الأنعام ، وفى الآيات ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ من سورة الأنبياء ، وفى الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٤٤ من سورة النمل ، وفى الآية ١٢ من سورة سبأ ، وفى الآيتين ٣٠ ، ٣٤ من سورة ص .

كان سليمان أبيض جسيما وضيئاً جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البيض ، وكان خاشعاً متواضعاً يخالط المساكين ويجالسهم ويقول : مسكين يجالس مسكيناً . وكان أبوه فى أيام ملكه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنه لرجاحة عقله وغزارة علمه .

وكان رجل سلام وإن كان على استعداد لحمل السلاح ، فتزوج ابنة فرعون مصر[1] ليقوم السلام مكان الصدام بين مملكته ومملكة فرعون .

وراح يحاول أن يقضى على النزعة الانفصالية بين قبائل الأسباط الاثنتى عشرة وأن يؤلف منها شعباً واحداً ، بيد أنه أخفق فقدكانت النعرة العنصرية عميقة الجذور فيهم ، وكانت كل قبيلة تعتقد أنها أشرف مما عداها من القبائل وإن كانوا جميعاً ينتسبون ليعقوب ، وإن كان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب .

وبنى سليمان بيت الرب فى أورشليم ، وكان يضىء فى ظلمة الليل الحندس إضاءة السراج الزاهر لكثرة ماكان جعل فيه من الجواهر والذهب ، وجعل اليوم الذى فرغ فيه منه عيداً فى كل سنة ، فلم يكن فى الأرض عيد أبهى ولا أعظم خطراً منه ، ولا أحسن منظراً ، فلم يزل بيت الرب على مابناه سليمان حتى غزا بختنصر بيت المقدس — أورشليم — فدمرها ، ونقض بيت الرب ، وأخذ ماكان فيـــه من الذهب والفضة والجوهر فنقله إلى بابل .

---

(١) يستفاد من كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور تأليف بريستيد أن الفرعون الذى صاهره سليمان هو شيشق أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين .

ولما فرغ سليمان من بناء بيت الرب تجهز سائراً إلى تهامة ، يريد بيت الله الحرام ، فطاف به ، وكساه ، وذبح عنده ، وأقام سبعاً ، ثم سار إلى صنعاء(١) .

وكانت بلقيس تحكم شعب اليمن من قصرها فى صرواح ، وكانوا يعبدون النجوم والكواكب .

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . وورث سليمان داود وقال :

« يَـأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَىْء ، إنَّ هَذا لَهُوَ الْفضْلُ الْمُبِينُ » .

وحُشِرَ لِسُلَيْمَان جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ وَالطَّيْرِ فهُمْ يُوزعُون . حَتَّى إذا أَتوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قالتْ نَمْلَةٌ :

« يَـأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُون .

« فتبَسَّمَ ضاحِكًا مِنْ قوْلِهَا وَقالَ » :

« رَبِّ أَوْزِعْنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتى أَنْعَمْت عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا ترْضاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرحْمَتِك فِى عِبَادِك الصَّالِحِينَ » .

« وَتفقَّدَ الطَّيْرَ فقالَ » :

« مَالِىَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كان مِنَ الْغائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذابًا شدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَـأْتِيَنِّى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ » .

« فمَكث غيْرَ بَعِيدٍ فقالَ » :

(١) الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ٢١

« أحطتُ بما لمْ تُحِطْ بِهِ وجئتُك مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إنِّى وجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتْ مِنْ كُلِّ شىءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُون لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمَالَهُمْ فصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فهُمْ لَا يَهْتَدُون . أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخبءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلمُ مَا تُخْفُون وَمَا تُعْلِنُون . اللهُ لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرشِ الْعَظِيمِ » .

قال : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْت أَمْ كُنْت مِنَ الْكاذِبِين . إذْهَبْ بِكِتَابِى هَذا فأَلْقِهْ إلِيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظُرْ مَاذا يَرْجِعُون » .

قالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كرِيمٌ . إِنَّه مِنَ سُلَيْمَان وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُو عَلَىَّ وَأْتُونى مُسْلِمِينَ » .

قالت : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون » .

قالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّة وَأُولو بَأْس شدِيد ، وَالْأَمْرُ إلِيْكِ فانْظُرِى مَاذا تَأْمُرِينَ » .

قالت : « إِنَّ الْمُلوك إِذا دَخلُوا قرْيةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلوا أَعِزَّة أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّة فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » .

وعندما جاءوا سليمان قال :

« أَتُمِدُّونَنِ بِمَال فَمَا آتَانِى اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكَمْ ، بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُود لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

قال : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ؟ »

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ » .

قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » .

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُونِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ »

قال :

— « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ »

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ :

[أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟ »

قَالَتْ :

— كَأَنَّهُ هُوَ

« وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا : »

— أُدْخُلِى الصَّرْحَ .

فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ :

— (إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ)

قَالَتْ :

— « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَن اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ . فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ »

أيوب عليه السلام

كان أيوب عليه السلام نبياً غنياً من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وكانت أملاكه ومنزله في الجنوب الشرقي من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية[١] وكانت إذ ذاك خصبة التربة .

قال البستاني في دائرة المعارف[٢] : إنه رجل مشهور بالاستقامة والتقوى والصبر ولذلك لقب بالصديق وضرب به المثل بالصبر — ويقال إنه عوص بكر ناحور أخي ابراهيم وقيل هو يوباب حفيد عيسوبن اسحق .

وقال الثعلبي هو : أيوب بن أموص بن تاوخ بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام . قال الرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف في بلاد العرب» : إن أيوب من أهل عمان . وقال الكاهن عزراً في القرن الثاني عشر إن أيوب ظهر في نجد . وأجمع أغلب المؤرخين على أنه نبي عربي ولم يكن من أنبياء بني إسرائيل . ومما جعل بعض شراح التوراة يقدرون أن زمن أيوب كان حوالى ٢٣٠٠ ق.م أنه ذكر الأهرام والمدافن التي يبنيها الملوك لأنفسهم . وهذا الرأي لايستند إلا على استنتاج من اليسير دحضه ، فكما أن ذكر الأهرام ومقابر الملوك ونقد تلك الأعمال يمكن أن يكون في عصر بناة الأهرام فانه يمكن أن يكون بعد ذلك العصر بقليل أوكثير ، ولا ينهض حجة على أنه كان في نفس العصر[٣] والقرآن الكريم يهدم هذا الرأي فهو يقرر أن أيوب من ذرية ابراهيم :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ اسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل جـ ١٤ ص ٥١٠٧ .
(٢) المجلد الرابع ص ٨٠٤ .
(٣) عبد الحميد جوده السحار : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٩٤ .

مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَرُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) .

ورأى بعض شراح التوراة أن أيوب يسبق عهد خروج بنى اسرائيل من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التى دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهوه » فى صلب كتابه . وهذا الرأى قريب من رأى الإخباريين المسلمين ، فقد قال الطبرى إن أيوب كان نبياً فى عهد يعقوب وأنه جاء إلى مصر مع يعقوب والأسباط لما أرسل يوسف فى استدعاء أهله ، وقال الإخباريون إنه من نسل العيص بن اسحق بن ابراهيم .

ويقول عباس العقاد فى كتابه « ابراهيم أبو الأنبياء » : ولم تكن حجته — أى أيوب — قط فى الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على وعد الله للآباء والأسلاف . وقد جاء فى مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء فى الجزيرة العربية وكلهم متفقون على أنه من أبنائها وإن اختلفوا فى مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هى معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر وليست طبعاً على الطين المحروق أو خطوطاً على الأوراق والجلود ، ماعدا طين الخاتم الذى كان يطبع فى البلاد الشرقية جميعاً على نحو واحد .

وردت قصة أيوب فى « سفر أيوب » فى العهد القديم . وقد اختلف أهل الكتاب فى واضعه هل هم اليهود ، أو أيوب ، أو سليمان ، أو أشعيا ، أو رجل مجهول الإسم ، أو حزقيال أو عزرا .

واختلفوا أيضاً فى زمانه هل هو معاصر لموسى ؟ أو لأردشير ، أو لسليمان ، أو لبختنصر ؟ حتى قال أحد علماء البروتستانت : إن خفة هذه الخيالات دليل كاف على ضعفها .

أما القول الحق فهو : أيوب عبد صالح امتحنه الله فى ماله وأهله وولده وبدنه فصبر ثم منّ الله عليه بالعافية، وأعطاه أكثر مما فقد، وأثنى عليه ثناء جميلا فى القرآن الكريم وجعله نبياً :

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء :

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) .

وفى سورة ص :

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[1] فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) .

---

(١) كان أيوب قد حلف ليضربن امرأته مائة سوط ، فقال له الله خذ حزمة فيها مائة عود واضربها بها ضربة واحدة فلا تقع يمينك .

يونس عليه السلام

ذكر يونس عليه السلام باسمه فىالقرآن الكريم أربع مرات : فى سورة النساء آية ١٦٣ . وفى سورة الأنعام آية ٨٦ . وفى سورة يونس آية ٩٨ . وفى سورة الصافات آية ١٣٩ .

وذكر بوصفه فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى :

« وَذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا . . »

وذكر بوصفه أيضاً فى سورة القلم فى قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

وهو يونس بن متى ويقول أهل الكتاب إنه يونان بن أمتاى .

وقد أرسل إلى قومه فعصوه ، ولم يتبعه إلا القليل ، وكان ذلك مما يحز فى نفسه ويؤلمه أشد الألم . وكان يونس شديد الإخلاص لقومه كثير الحرص عليهم ولهذا كله كان يغضب .

يقول الله العلى القدير لمحمد (ص) :

(وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

وكثيراً ماكان يعالج القرآن ذلك عند الرسول الكريم فيقول :

(لَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) .

فيونس ذهب مغاضباً من أجل عصيان ربه . وكان فى خروجه من عند قومه فى صورة الآبق وهذا لا يليق بنبى كريم ولذا كان العقاب وكان وصفه لنفسه أنه من الظالمين ؛ وأما قوله تعالى : « أن لن نقدر عليه » فالمعنى فظن يونس أن لن نقدر عليه ونضيق بل نتركه يسير حيث أراد ، أوفظن أن لن نقدر عليه من القدر أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة . والذى ذكر

فى قصته أنه خرج بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم إلى سفينة ليركب منها إلى بلد أخرى . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس فهبت ريح شديدة . كادت تغرقهم . فاقترعوا ليعلموا بسبب من أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه فى البحر فالتقمه الحوت وهو مليم أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه . فلما قر فى جوف الحوت أدرك نفسه وعرف موقفه فنادى فى الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة جوف الحوت : أن لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاغفر لى يارب فغفر الله له ونجاه مما هو فيه .

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مَائِةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين)

أى أمرناه ثانية بالذهاب « إلى مائة ألف أويزيدون » وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولا . فسار إليهم ودعاهم إلى الله وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر والغى والضلال . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه « فمتعناهم إلى حين » أى إلى حين انقضاء آجالهم بالعيش الكريم والمقام الأمين ، ببركة الإيمان والعمل الصالح .

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ) .

وفى سورة الصافات :

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُون . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِين . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَة أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُم إِلَى حِينٍ) .

زكريا عليه السلام

لم يذكر نسب زكريا فى القرآن ولا فى كتب الأنبياء عند أهل الكتاب .

وكان زكريا ممن لهم شركة فى خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو لاوى .

وسيأتى أن امرأة عمران والدة مريم لما نذرتها لخدمة الهيكل جاءت بها إلى خدام الهيكل فكل واحد منهم أراد أن يكفلها وألقوا قرعة على ذلك فكانت مريم من نصيب زكريا فقام بأمرها كما قال تعالى « وكفلها زكريا » .

كان زكريا زوجاً لخالة مريم — اليصابات .

لما رأى زكريا آيات الله الباهرات وأكرامه تعالى لمريم ورزقها من حيث لاتحتسب كان يسألها :

— يا مريم أنى لك هذا ؟

فتقول :

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

كان زكريا قد بلغ من الكبر عتيا واشتعل رأسه شيباً وامرأته عاقرا . فحفزه ما يراه من اكرام الله تعالى لمريم أن يطرق باب الدعاء فقال :

(رَبِّ إِنِّى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

فرأى ملكا كريما يقول :

— (يَا زَكَرِيًّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِنْ قَبل سَمِيًّا) .

قال زكريا :

ـ (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا .)

قال الملك :

ـ (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا .)

قال :

ـ (رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)

(آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .)

وخرج زكريا إلى قومه ورمز إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى .

ولعل والد زكريا كان اسمه برخيا .

جاء فى انجيل برنابا أن المسيح قال لليهود :

ـ ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح .

ويذكر المفسرون أن زكريا والد يحيى قتل فى الحادث الذى قتل فيه ابنه .

يحيى عليه السلام

مرت الأيام وشب يحي[١] فى أورشليم . وكان حسن الوجه والصورة لين الجناح رقيق الصوت قوياً فى طاعة الله .

قال له أترابه من الصبيان :

— يايحي اذهب بنا لنلعب

فقال لهم :

— ما للعب خلقت .

وكان يحي زاهداً فى الحياة . وقد أتى بيت المقدس ، فنظر إلى خدام المعبد وعليهم مدارع الشعر والصوف فجاء إلى أمه فقال :

— يا أماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنساً من صوف حتى اتى إلى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فقالت له أمه :

— حتى يأتى نبى الله زكريا عليه السلام فاؤامره فى ذلك

فلما جاء زكريا أخبرته بما قال لها يحي . فقال له زكريا :

— يابنى مايدعوك إلى هذا ؟ إنما أنت صبى صغير .

فقال له يحي :

— يا أبت أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

---

(١) اختلف العلماء لم سمى يحيى . قال ابن عباس لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه . وقال قتادة لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والنبوة ، وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية . ودليله قول الرسول (ص) « ما من أحد يلقى الله عز وجل إلا وقد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعمل » . وقال أبو القاسم الجنيدسمى بذلك لأنه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون (راجع قصص الأنبياء — للثعلبى) .

نطق الصبي بالحكمة ، إنه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لآخراه ، إنه يريد أن يدخر ليوم شديد ، لا ينفع فيه إلا ما قدمت يداه ، ها إلى يوم يجد ما عمله من خير محضراً ، فانشرح قلب زكريا ، والتفت إلى زوجه ، وقال :

— انسجي له مدرعة من الشعر ، وبرنساً من الصوف .

وأوحى إلى يحيى وهو صبي : يا يحيى خذ الكتاب بقوة . فكان لايتقى حرجاً فى كلامه عن ذى خطيئة أودنس ، لايخشى فى الله لومة لائم . وسمع الناس به فذهبوا إلى نهر الأردن وألقوا إليه سمعهم قال :

— إن الله عزوجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . وأولاهن أن تعبدوا الله لاتشركوا به شيئاً ، فان مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أوذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولاتشركوا به شيئاً .

وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فاذا صليتم فلاتلتفتوا . وأمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابه ، كلهم يجد ريح المسك ، وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فاشترى منه نفسه بثمن معلوم فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فأعتق .

وأمركم بذكر الله عزوجل كثيراً ، فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

وذاع في جميع أرجاء البلاد أن نبياً خشناً قام في البرية يدعو إلى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء . ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد قالوا إن إيليا قد قام .

وجاء الناس من كل فج إلى الأردن ، وأقبل الفريسيون في كبريائهم الغرور يملؤهم فهم يعتقدون أنهم أهل علم وكتاب . . يستمعون إلى يحيى وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، ثم دنوا منه وقالوا :

— من أنت حتى نخبر من أرسلونا . آلمسيح أنت ؟

— لا .

— آلنبي أنت ؟

— لا . أنا صوت صارخ في البرية ، قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي .

فقالوا :

— فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟

كانوا ينتظرون مجيء المسيح وقيام ايليا ومبعث النبي العربي .

قال يحيى لمن كانوا يحسون غروراً أنهم الناس ومن عداهم أمم ، وأن الجنة لهم دون الناس جميعاً لأنهم أبناء ابراهيم :

— يا أولاد الأفاعي ، من دلكم على الهرب من السخط الآتي ؟ أثمروا ثمارا تليق بالتوبة . ولا يخطر لكم أن تقولوا في أنفسكم : إن أبانا ابراهيم لأني أقول لكم ، إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم .

* * *

جلس فيليبس ملك أورشليم على عرشه ، وجلست إلى جواره زوجته هيروديا ، وراحت ابنتها سالومي تنظر من النافذة ، ترقب طرقات المدينة العتيقة .

وأقبل هيرودس أخو الملك . وراحا يتجاذبان أطراف الحديث . لكن هيرودس كان يرنو إلى هيروديا في وله وإعجاب ، ويرمقها في اشتهاء . .

وكانت عيناه الوالهتان تتلاقيان وعينيها ، فكانت تحس حرارتهما ، وتفهم لغتهما ، فترف على شفتيها ابتسامة . . وتتألق عيناها ببريق السرور . وهام هيرودس بزوجة أخيه حباً ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان ، وملك حبه لها حواسه ، وسيطر عليه ، فلم يطق أن يشاركه فيها شخص آخر ، ففكر ثم دبر ، ثم أسر إلى هيروديا بما عقد عليه العزم . فوافقت على إنفاذ مادبر ، فقد كانت امرأة تهوى المغامرات .

وذات مساء . . انسل أعوان هيرودس إلى القصر ، وقتلوا فيليبس . . وفى الصباح . . أعتلى هيرودس عرش أورشليم وإلى جواره هيروديا .

علم يحيي أو يوحنا المعمدان ما فعله هيرودس بأخيه ، فغضب غضباً شديداً ، وأخذ يردد أن هيروديا لاتحل له ، واشتد فى نقد المرأة ، وكان كلما قابل جماعة من بنى اسرائيل أعلن سخطه على ما اقترف مغتصب الملك والزوجة .

وبلغ هيرودس ما يقول يحيي ، فثار ، بيد أنه لم ينفس عن ثورته فقد خشى أن يمد يده إلى يحيي بأذى خشية أن يثور الشعب لنبيه .

وحقدت هيروديا على يحيي ، فراحت تحرض الملك على التنكيل به ، ولكنه كان يتريث هيبة منه ، وخوفاً من أتباعه .

وأخيراً . . . لم يجد مفراً من أن يأمر جنده باحضار يحيي ، فلما مثل بين يديه قال له :

— ألا تكف عنا ؟

— حتى تكف عن معصية الله .

— وكيف ؟

— أن تهجر الفاجرة .

فصاحت هيروديا فى غضب شديد :

— أقتلوه . . أقتلوه .

وسأل الملك :

— ولماذا أهجرها ؟

— لأنها لاتحل لك .

فقالت هيروديا فى حنق عظيم :

— أقتلوه . . أقتلوه .

وقال الملك لحراسه :

— ألقوه فى غيابات السجن .

عاد يحيى إلى سجنه . . ومرت الأيام وجاء يوم العيد . .

الملك وهيروديا وكبار رجال الدولة والأعيان يعبون الخمر ويضحكون .

وبلغ يحيى فى سجنه أن المسيح ظهر ، وأنه أحيى الموتى ، وأبرأ الأعمى والأصم والأبرص ، فصاح :

— العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون .

ودوى صوته فى القصر ، فصمت الجميع ، وسأل أحدهم :

— ما هذا ؟

فقال هيرودس :

— إنه يوحنا .

— ماذا يقول ؟

— لا أدرى

فقالت هيروديا فى ضيق شديد :

— إنه يهرف .

وبلغ صوته آذان سالومى ، فامتقع لونها ، وتذكرت كيف أنها راودت يحيى عن نفسه ، فأبى . . واقترب منها الملك وقال :

— أرقصى يا سالومى .

— لاأشعر برغبة فى الرقص يامولاى .

فقال لها فى إغراء :

– إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

فخطرت لها فكرة ، إنها تستطيع أن تثأر من ذلك الذى جرعها كأس الهوان ، وانتقد أمها نقداً مرآ .

نرنت إلى الملك وقالت :

– حقاً ؟

– أقسم لك يا سالومى .

ورقصت سالومى فى خفة الطيف ، كانت ترقص فى حرارة تتدفق فى عروقها . وما انتهت من رقصتها حتى هرعت إلى الملك ، وأنحنت أمامه ، فقال لها فى انشراح .

– انهضى يا سالومى لأمنحك ما تطلبين . . ماذا تريدين ؟

– هدية فى طبق من فضة .

فظهرت الدهشة على وجه الملك ، وقال :

– هدية فى طبق من فضة ؟ وما هذه ؟

قالت :

– رأس يوحنا .

تهلل وجه هيروديا ، وقالت :

– أحسنت الاختيار يا أبنتى ، إنها خير هدية فى العيد .

فقال الملك فى جزع :

– لا . . لا يا سالومى . لاتسأليني ذلك .

قالت سالومى فى إصرار :

– أريد رأس يوحنا فى طبق من فضة . .

— لا . . لا . .

— لقد أقسمت .

وقالت هيروديا :

— لقد أقسمت ، بر بقسمك .

— اسكتى .

فقالت سالومى :

— أريد رأس يوحنا . .

وأيدها أصدقاؤها الرهبان والسادة الوالغون فى الإثم . وانكمش الملك فى عرشه ، ونزل به هم ثقيل ، وقال لجنده فى صوت خفيض :

— أعطوها ما طلبت . .

وخرج الجند ، وساد القاعة صمت رهيب ، ومر الوقت بطيئاً بطيئاً . . وقد استولى على الجميع رهبة وقلق . ثم عاد الجند يحملون طبقاً من فضة به رأس يحيى .

وزلزلت الأرض . . وانقضت صاعقة من السماء . . وسقطت سالومى صريعة . .

عيسى عليه السلام

كان عمران رجلا تقياً ورعا ، وكانت زوجته « حنة » امرأة عاقراً ، فرفعت صوتها بالدعاء إلى الله العلى القدير أن يهبها ذرية ، ناذرة أن تكرس ما يهبها الله من ذرية لخدمة المعبد .

وقالت امرأة عمران :

(رَبِّ إِنِّى نَذَرتُ لَكَ مَا فى بَطْنى مُحرَرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْت السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .)

ومضت الأيام ، وجاءها المخاض ، ووضعت ما فى بطنها ، فاذا به فتاة ، فنظرت إلى السماء وقالت معتذرة :

(رَبِّ ، إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى) .

(وَاللهُ أَعلَمُ بِمَا وَضَعَتْ . وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) ؛

وفكرت فى إسم لها ، وكانت مريم أخت موسى وهارون امرأة تقية صالحة ، فلماذا لاتسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ شخصت إلى السماء ثانية وقالت :

(وَإِنِّى سَمَّيتُهَا مَرْيمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .)

تقبل الله مريم[1] بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، فقد اصطفاها الله سبحانه لأمر جليل ، لذلك انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة .

كانت مريم تمضى سحابة يومها مع أمها فى خدمة البيت وتنطلق إلى البئر تجلب لها الماء من العين ، وتسقى الأغنام القليلة التى تملكانها ، وتذهب فى طرقات الناصرة تقضى حاجاتها . فاذا جن الليل جاء إلى البيت بعض الأقارب ،

(١) مريم بمعنى العابدة .

وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وكان حديثهم يدور حول الدين والأنبياء .

كانت مريم تستمع إلى ذلك الحديث بأذن صاغية ، وقلب متفتح ، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود ، فالمدن اليهودية تتحـــدث عن ملك اليهود المنتظر .

وكبرت مريم ، وصار على أمها أن تفى بنذرها ، فأخذت ابنتها إلى أورشليم ، لتسلمها إلى العباد المقيمين فى المعبد ، فكفلها زكريا عليه السلام .

وبينما كانت مريم فى المحراب . . أحست كأن شخصاً فى المحراب ، فتلفتت فلم تجد أحداً ، فمشى الخوف فى أوصالها ، وأرهفت حواسها ، ومس أذنها حفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

— من هناك ؟

وإذ بصوت رقيق عذب يقول :

— أنا رسول ربك إليك .

وغرق المحراب فى ضوء باهر ، فخفق قلبها فى شدة ، وانبهرت أنفاسها وتفصد العرق منها ، وانبعث صوت عذب مس شغاف قلبها :

(يَا مَرْيَمُ ، إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ، وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ .)

وقالت الملائكة :

(يَا مَرْيَمُ ، إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهاً فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ .)

قالت (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)

قال ـ (كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.)

واجتهدت مريم فى عبادتها، فصفت نفسها ورقت ... وذات يوم ... سمعت حركة بجوارها، فالتفتت خائفة، فإذا بشاب وسيم، فاضطربت وقالت:

ـ (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا.)

قال: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ، لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)

قالت: (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟)

قال: (كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ، هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

ونفخ الله فيها من روحه، فحملت بالمسيح[1].

غادرت مريم الناصرة، وصحبها يوسف النجار[2] فى رحلتها إلى بيت لحم تنفيذاً لمرسوم الامبراطور الرومانى «أغسطس قيصر» الذى فرض على الأهالى

---

(١) كلمة المسيح، إما أن تكون كلمة معربة أو كلمة عربية.

فإذا اعتبرناها معربة، فهى مأخوذة من كلمة «مشيحا» العبرية ومعناها فى تلك اللغة «كثير الصدق» وعيسى عليه السلام كان كذلك.

ونلاحظ أن العرب إذا أخذوا عن العبرية كلمات فى حروفها «شين» فانهم يقلبون الشين سيناً، كما فعلوا فى مشيحا فعربوها مسيحاً، وكما فعلوا ذلك فى موشى فعربوها موسى.

وإذا اعتبرنا كلمة المسيح كلمة عربية فإنها تكون فى هذه الحالة بديلا لماسح أو ممسوح. ومعنى أنه ماسح أنه عليه السلام كان كثير المسح للأرض .. كثير السياحة فيها، أو بمعنى أنه كان إذا مسح على ذى عاهة أبرأه الله سبحانه وتعالى كما يقرر ذلك القرآن الكريم. وإما أن الكلمة بديل لكلمة ممسوح فذلك يعنى أنه مسح بالبركة، مسحه زكريا عليه السلام، وقد كانت مريم فى حضانته ورعايته كما تشير إلى ذلك الآيات الكريمة فى سورة آل عمران. ويقول بعض المفسرين، إنما سمى المسيح مسيحاً لأنه كان ممسوح القدمين بمعنى أن باطن قدميه مستويتان. ولست أرتضى هذا التفسير لأن هذا يدخل فى باب العيوب الجسدية التى ينبغى أن ينزه عنها الأنبياء والمرسلون، كما أنهم منزهون عن العيوب النفسية.

(٢) من أبناء عمومة مريم.

أن يعود كل منهم إلى مسقط رأسه ليسجل إسمه فى الإحصاء والتعداد الذى الذى أمر باجرائه فى هذا العام .

سارت مريم فى طريقها إلى بيت لحم ، وقد أركبها يوسف على دابته ، أما هو فقد سار وراءها على قدميه . . ولم يمض وقت حتى شعرت بآلام المخاض ، فأسرع يوسف فى السير بها حتى وصلا إلى حدود بيت لحم ، ولما لم يجدا فى القرية مكاناً يلجآن إليه ، فقد ذهبا إلى مغارة من مغارات الرعاة فدخلت مريم إليها ، بينما أسرع يوسف إلى القرية ليحضر لها قابلة .

وطاف برأس مريم خاطر ، فعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها ، فماذا يقول الناس عنها ، فحزنت ودهمها هم ثقيل ، فقالت :

— يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نسْيًا مَنْسِيًّا

ووضعت ابنها ، وما لمس الأرض حتى ناداها من تحتها :

— أَلَّا تَحْزَنِى ، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكَ رُطَبًا جَنِيًّا ، فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى : إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا .)

وأتت مريم بابنها تحمله ، فقال قومها :

(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا .)

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا :)

—(كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فى الْمَهْدِ صَبِيًّا)

(قَالَ :)

— إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا

كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِيوَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

كانت الطمأنينة تلف كل شئ فى الناصرة ، فقرت عين مريم ، وسكن الهدوء قلبها ، ولكن هذه السكينة ما كانت لتدوم طويلا ، فما كان الله يدع من يعده للرسالة للراحة والدعة ؛ إن الله يحمله المشاق ، ليعوده الصبر ، ويقسو عليه بالحرمان ليغرس فى نفسه العطف ، ويرسله يضرب فى الأرض ، ليزيد فى كنوز قلبه الغالية .

ومن هناك ، من إصهيون جاء الفزع والهلع ، كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف خوفاً على عرشه . فهو يعرف أنه ارتقى العرش اغتصاباً . كان حفيد خادم فى هيكل اشقلون ، واغتصب الملك بمؤازرة قياصرة الرومان ، وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكاً عليهم ، فما كانوا يملكون إلا رجلا من بنى اسرائيل ، فأزهق أرواحهم ، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم .

كان ثلاثةمن المجوس[1] يرقبون نجوم السماء ، فبدا لهم نجم شديد التألق فجاءوا إلى اليهودية يهديهم النجم ، ولما وصلوا فى طريقهم إلى أورشليم سألوا : أين ولد ملك اليهود ؟ وسمع هيرودس ذلك فارتاع فجمع الكهنة والكتبة وسألهم :

— أين ولد المسيح ؟

فقالوا :

— فى بيت لحم .

فأحضر هيرودس المجوس وسألهم عن مجيئهم ، فقالوا إنهم رأوا نجماً فى المشرق هداهم إلى هناك فجاءوا بهدايا أحبوا أن يقدموها لملك اليهود الذى

(١) حكاية المجوس والمسيح انفرد بها متى من بين الأربعة وذكرها برنابا فى انجيله .

ولد . فأمرهم أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن الطفل وأن يعلموه به ، فذهبوا إلى بيت لحم وسجدوا للطفل يهديهم النجم وقدموا الهدايا وخافوا على الطفل من هيرودس فلم يرجعوا إليه بل ذهبوا إلى بلادهم .

ولما لم يعودوا علم هيرودس أنهم قد سخروا منه ، فأمر بقتل كل طفل ولد فى بيت لحم ، حتى يقضى على ذلك المولود الذى تطير به ، وأقلقه وأنزل بصدره المخاوف .

ورأى يوسف فى نومه من يهتف به :

— قم واحمل الطفل وأمه وأخرج إلى مصر ، فهيرودس يبحث عنه ليقتله .

فهب يوسف من نومه ، وانطلق إلى حيث كانت مريم ، وأخبرها بأن الله يأمرهما بالخروج إلى مصر .

وسار الركب الكريم إلى حيث أمره الله ، وأقاموا فى مصر إلى أن هلك هيرودس . ولما هلك أمر يوسف فى نومه بأن يأخذ الطفل وأمه إلى بلادهما ، لأن الذين كانوا يطلبون قتله قد هلكوا .

نشأ المسيح نشأة كريمة ، فتعلم ما شاء الله أن يتعلمه ، ونهل من المعرفة . واستلهم الحكمة من الله تعالى :

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) .

كانت دعوة المسيح تحارب فى قومه هذه الاتجاهات التى تأصلت فيهم :

١ — ادعاء أحبار اليهود وكهنتهم : أنهم الصلة بين الله وبين الناس فهم الوسطاء بينه وبينهم . وأنه بدون هؤلاء الأحبار لا تتم صلة العبد بربه . فبيدهم وحدهم مفتاح الخير والرحمة والمغفرة . وبيدهم وحدهم إلحاق الأذى والضرر .

كانوا يحرفون ما جاء من أحكام فى التوراة . ثم يكتبون للناس شرائع من الأوهام والخرافات ويزعمون أنها من عند الله خدمة لمآربهم الشخصية ومصالحهم الذاتية باسم الدين .

كانوا يتهالكون على جمع المال ، فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليحصلوا على ذلك المال . والناذرون والباذلون فى أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم .

جاء فى إنجيل برنابا فى الفصل الثانى والثلاثين :

« ودعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه . فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه وكثيرون من الكتبة ، انتظروه فى البيت ليجربوه . فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم . فدعا الكتبة يسوع قائلين : « لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزاً»

أجاب يسوع : وأنا أسألكم لأى سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم ؟ تقولون لأولاد الآباء الفقراء « قدموا وأنذروا للهيكل » . وهم إنما يجعلون نذوراً من النزر الذى يجب أن يعولوا به آباءهم . وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقوداً يصرخ الأبناء : « إن هذه النقود نذر لله » . فيصيب الآباء بذلك ضيق . أيها الكتبة الكذابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود ؟ كلا ثم كلا . لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبى ، هل آكل لحم الثيران وأشرب دم الغنم ؟ أعطنى ذبيحة الحمد وقدم لى نذورك . لأنى أن جعت لا أطلب منك شيئاً لأن كل الأشياء فى يدى وعندى وفرة الجنة . أيها المراءون إنكم إنما تفعلون ذلك لتملئوا كيسكم ولذلك تعشرون الذاب والنعنع . ما أشقاكم لأنكم تظهرون للآخرين أشهر الطرق وضوحاً ولا تسيرون فيها .

أيها الكتبة والفقهاء : إنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالا لا يطاق حملها ، ولكنكم أنفسكم لا تحركونها باحدى أصابعكم .

وقد ندب الله هذا بواسطة أشعيا قائلا : « حقاً إن هذا الشعب يعبدنى باطلا ؛ لأنهم أبطلوا شريعتى التى أعطاهم إياها عبدى موسى ويتبعون تقاليد شيوخهم . الحق أقول لكم إن أكل الخبز غير نظيفة لا ينجس إنساناً لأن

ما يدخل الإنسان لا ينجس الإنسان بل الذى يخرج من الإنسان ينجس الإنسان .

فقال حينئذ أحد الكتبة : إن أكلت لحم الخنزير أو لحوماً أخرى نجسة أفلا تنجس هذه ضميرى ؟ .

أجاب يسوع : إن العصيان لا يدخل الإنسان بل يخرجه الإنسان من قلبه ، ولذلك يكون نجساً متى أكل طعاماً محرماً . حينئذ قال أحد الفقهاء : يا معلم لقد تكلمت كثيراً فى عباد الأصنام كأن عند شعب إسرائيل أصناماً ، وعليه فقد أسأت إلينا .

أجاب يسوع : أعلم جيداً أنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب فى إسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد . فأجاب حينئذ جميع الكتبة بحنق : أنحن إذن عبدة الأصنام ؟ .

أجاب يسوع : الحق أقول لكم لا تقول الشريعة : أعبد . بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك . ثم قال يسوع : أصحيح هذا ؟ فأجاب كل واحد : « إنه لصحيح » .

٢ — كان فى اليهود فريق الصدوقيين الذين أنكروا يوم البعث ، وقالوا إن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها فى الحياة الدنيا وجزاء الأعمال السيئة أن يعاقبه الله فى الدنيا . فكان من مهمة المسيح أن يرد هؤلاء إلى عقيدة اليوم الآخر وهو يوم الجزاء ، وأن يثبت الإيمان بها فى قلوبهم ويحذر الناس من إتباعهم والزيغ عن سبيل الله إلى سبيلهم .

٣ — تهالك اليهود على المادة ، وعبهم من الملذات والشهوات فألهتهم الحياة الدنيا بزخرفها ، كل أولئك كانت أحوالهم تستدعى إصلاحاً قوياً ومصلحاً مخلصاً فجاء المسيح لتخليصهم جميعاً من الأوحال التى إرتطموا فى حمأتها ، فكان يوبخهم ويبكتهم جهده .

مضى المسيح يجوب البلاد . يبشر بنى إسرائيل بدعوته ، ويدعوهم إلى سبيل الله ، ويبصرهم بسبل الخير والصراط المستقيم . ويكشف أسرار الأحبار والكهنة . وينشر على الناس مخازيهم . فقال لهم كما حكى القرآن الكريم :

(...أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونَ . إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)(١)

وقد يتساءل القارئ لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟

يجيب عن ذلك ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » بقوله :

« كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب زمانه ، وكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه ، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله ، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له — أسلموا سراعاً ، ولم يتلعثموا ، وهكذا عيسى بن مريم ، بعث فى زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قام به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن الفصحاء

(١) سورة آل عمران : ٤٩ — ٥١ .

البغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لايقدرون . لافى الحال ، وفى الاستقبال ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل . والله لا يشبهه شئ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله » .

من هذا الكلام يتضح أن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم وإحياء الموتى ، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ، ليكون عجزهم حجة عليهم ، وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى معرفة الطب . ولكن المؤرخ الفرنسى « رينان » يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول :

« كانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم ، فان اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ . وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لابقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة يعنى الهستريا ، وفيه وصف هذه العلة وذكر دوائها إلا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب ، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين ، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية » .

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم إذن بالطب الطبيعى على رأى رينان .

والذى نراه تعليلا صحيحاً لكون معجزات المسيح جاءت على هذا النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لأنهم أطباء ، فناسبهم أن تكون المعجزة بالشفاء والأدواء ، بل لأن أهل زمانه قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء المسيح بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة

مصدق لما يأتي به الرسول ، وهو فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها ، هذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ، فكانت معه الحياة ؛ وهذا ميت قد أكله البلى ، وأخذت أشلاؤه فى التحلل ؛ وأوشكت أن تصير رميما ، أو صارت ، يناديه المسيح ، فاذا هو حى يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه بالحياة ، وهكذا ، فكانت معجزة المسيح من جنس رعايته ، وتناسب أخص رسالته وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والإيمان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن باحسانه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره ، أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر فى جحوده . قد سبق أن قلنا إن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة ، وعدم الإيمان باليوم الآخر ، إن لم يكن بالقول ، فبالعمل ، فكان إحياء الموتى ، صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملا ، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون(1)» .

ضاق اليهود ذرعاً بدعوة المسيح التى كانت تستهدف إثراء حياة الإنسان ، وتحريره من كل قيد ، فقد وجدوا فى هذه الدعوة الكريمة ما يقضى على الخرافة التى تعشش فى أدمغتهم من أنهم شعب الله المختار ، فراحوا يناصبونه العداء ، ويستعدون عليه السلطات الحاكمة .

كان الكتبة والفريسيون ينسجون خيوط مؤامرة محبوكة للايقاع به ، وكان يهوذا الاسخربوطى يكاد ينفجر من الحنق والغيظ . فالمسيح قد ركن إلى الهدوء ، ولن يخرج إلى الهيكل ، ويدعو الناس إلى ربه ، كأنما نفض يديه من رسالته !!

---

(1) محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٩ — ٢١ .

وقفزت إلى رأسه فكرة ، إذا كان المسيح قد ركن إلى الدعة والهدوء ، فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعدائه عليه ، سيرشدهم إلى مقره حتى يعود من جديد إلى الكفاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيل باذكاء روح المقاومة فيه .

وذهب يهوذا إلى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين ، وقعد بينهم يصغى إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى دورهم ، ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم إن خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد فى مكان خلاء ، بعيداً عن محبيه ، وأعجبتهم الفكرة ، ووافقوا عليها .

جلس المسيح على سفح جبل الزيتون ومن حوله تلاميذه ، وراح يوصيهم :

— هذه وصيتى ، أن يحب بعضكم بعضاً ، كما أحببتكم ، ليس هناك حب أعظم من أن يضع المرء نفسه لأجل أحبائه ، أنتم أحبائى إن فعلتم ما أوصيكم به ، بلغتكم كل ما أوحى الله إلى ، أوصيكم أن يحب بعضكم بعضاً .

أذكروا الكلام الذى قلته لكم ، ليس عبد أعظم من سيده ، إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم ، وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم ، ولكنهم يضطهدونكم من أجلى ، لأنهم لا يعرفون الذى أرسلنى .

لو لم أكن قد جئت ودعوتكم إلى الله ، ما كانت لكم خطية ، أما الآن فلا عذر لهم . الذى يبغضنى يبغض الله ، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات[1] من الله ما كانت لهم خطية ، أما الآن فقد رأوا آيات ربى ، وكفروا بالله وبرسوله .

---

(١) كانت آيات المسيح التى أمده الله بها لمجابهة المتكبرين من اليهود كما يلى :

١ — نطقه وهو طفل فى المهد على خلاف المعهود فى الأطفال .

٢ — خلق طير من الطين .

٣ — إبراء الأكمه والأبرص .

٤ — إحياء الموتى .

٥ — الأنباء بما هو مجهول من طعامهم ومدخراتهم .

٦ — إنزال المائدة للحواريين .

ومتى جاء (الفراقليط) (١) الذى سيرسله الله ، روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضاً ، لأنكم معى من الابتداء(٢) . قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجامع ، بل تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله ، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفونى ، كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى قلت لكم ، ولم أقل من البداية لأنى كنت معكم .

أما الآن ، فانى ماض إلى الذى أرسلنى ، ولا يسألنى أحد منكم أين تمضى ، ملأ الحزن قلوبكم . لى أمور كثيرة لأقول لكم ، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمعه يتكلم به . بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضاً تروننى ، لأنى ذاهب إلى الله .

فراح تلاميذه يتهامسون :

— ما هو الذى يقول لنا : بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضاً تروننى ، لأنى ذاهب إلى الله ، ما هو هذا القليل الذى يقول عنه ؟ لسنا نعلم بماذا يتكلم ؟ .

وفطن المسيح إلى ما يدور فى أذهانهم ، فقال لهم :

— أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ، لأنى قلت : بعد قليل لا تبصروننى ،

---

(١) كان المسيح يبشر باقتراب ملكوت السموات والمراد بذلك الشريعة الألهية التى يرسل الله بها النبى الأمى المذكور فى آية ١٥ وما بعدها من الإصحاح ١٨ سفر التثنية الذى وعد الله بنى إسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين إخوتهم ويجعل كلامه فى فمه ويخبرهم بكل الذى يوصيه الله به .

وكان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ النبى وبلفظ مسيا ويلفظ فارقليط وهو تعريب لفظ « بيريكلتوس » اليونانية ومعناها الذى له حمد كثير كما عبر عنه بعض الكتب بلفظ « إيلياء » . وإذا عرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسمائه أحمد ، عرفنا أن المسيح قد بشر به .

(٢) لم يشهد أن عيسى رسول الله إلا القرآن والحواريون والموحدون الأوائل .

ثم بعد قليل أيضاً ترونني ؟ الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون ، والعالم يفرح ، ثم أنتم ستفرحون ، سيتحول حزنكم إلى فرح .

وقال لهم فيما قال :

— هو ذا تأتي ساعة ، وقد أتت ، والآن تتفرقون فيها ، كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي ، وأنا لست وحدي لأن الله معي ، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم سلام ، سيكون لكم ضيق في العالم ، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

وقام المسيح يصلي ويبتهل إلى الله عز وجل .. وما كاد يفرغ من صلاته ، حتى سمع وقع أقدام تقترب ، فقام ينظر فاذا أضواء مصابيح ومشاعل ، وغمر الضوء المكان .. فهب تلاميذه في فزع ورعب .

وتقدم الجنود الرومانيون ، يحملون سيوفهم ، وحولهم خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم وقال لهم :

— من تطلبون ؟ .

— عيسى الناصري .

فقال لهم :

— إني أنا هو .

وشهر بطرس[١] سيفاً ، وضرب عبد رئيس الكهنة ، فقال له المسيح :

— رد سيفك إلى غمده .

---

(١) بطرس هو أحد تلاميذ المسيح ، وكانوا اثني عشر رجلا .

وقد ذكرت أسماء الحواريين (التلاميذ) في انجيل متى في الاصحاح العاشر وهم :

١ — سمعان الذي يقال له بطرس .
٢ — أندراوس أخو سمعان بطرس .
٣ — يعقوب بن زبدي .
٤ — يوحنا .
٥ — فيلبس .
٦ — برثولماوس .
٧ — توما .
٨ — متى العشار .
٩ — يعقوب بن حلفي .
١٠ — لباوس الملقب تداوس .
١١ — سمعان القانوي .
١٢ — يهوذا الأسخربوطي .

فوضع بطرس السيف فى قرابه ، واتسعت عيون التلاميذ رعباً ، فقال لهم المسيح :

— اذهبوا .

فانطلقوا لا يلوون على شئ ، وتركوا المسيح الذى هداهم إلى الحق ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . وتقدم المسيح خطوات . . فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق المسيح من بينهم دون أن يروه ، وذهب ليختفى .

وقام الجنود الرومانيون فى حنق وغضب ، ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا فى الظلام وحده، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه المسيح ،وأراد يهوذا أن يقاومهم ، ولكنهم انهالوا عليه ضرباً وسباً ، ثم شدوا وثاقه، ومضوا به إلى حيث تجرى المحاكمة .

وأجرى رؤساء الكهنة محاكمة سريعة لمن يحسبونه المسيح وحكموا عليه بالإعدام صلباً ، ونفذ فيه حكم الصلب بين الصخب والسرور . وهم يظنون أنهم صلبوه . لكن الله تعالى أظهر الحقيقة الواضحة ، فقال فى سورة النساء :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »(١) .

وقال فى سورة آل عمران :

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٢) .

---

(١) سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ . (٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

وقد اختلف مفسرو القرآن فى معنى قوله تعالى : « يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » . فمنهم من قال : إن عيسى توفى بالمعنى المتبادر إلى الأذهان والوارد فى القرآن بمعنى الموت . وعلى ذلك فان التوفى الذى ورد فى شأنه يعنى : أن الله وفاه أجله . وأماته كما يميت كل البشر. ثم رفع روحه إليه . فالرفع هنا : للروح . أى رفع روحه مكانة وقدر وشرف كما يقول الله تعالى عن المؤمنين : « نرفع درجات من نشاء » سورة يوسف .

ومنهم من قال : إن التوفى فى شأن عيسى هو أن الله مكنه من إبلاغ رسالته للناس . ووفاه مهمته . ثم رفعه إليه بالجسد والروح معاً . وأنه سينزل آخر الزمان . ويعتمدون فى ذلك على ما جاء فى حديث المعراج من أن محمداً صلى الله عليه وسلم حينما صعد إلى السماء وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له ويدخل ، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية .

ويستدلون على ذلك أيضاً بقوله تعالى : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » . آل عمران .

ويستدلون على نزول عيسى آخر الزمان بقوله تعالى :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ » سورة النساء .

ويقول أصحاب هذا الرأى أن الضمير فى : به ... وفى : موته ، لعيسى ، أى أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت وذلك بعد عودته آخر الزمان .

وقد جاء فى تفسير المنار عن الأستاذ الإمام محمد عبده بعد أن قرر الآية على ظاهرها وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ، ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان ، أحدهما : أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى لأنه من أمور الغيب . والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعى لأن المطلوب فيها اليقين وليس فى الباب حديث متواتر .

وثانيهما : تأويل نزوله وحكمه فى الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشور ما دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر الفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب(١) .

ويقول الشيخ شلتوت فى ختام بحث له(٢) :

« إنه ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .

وأن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه » .

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢١٨ .
(٢) الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٥٢ — ٥٨ .

محمد صلى الله عليه وسلم

فى أخريات القرن السادس الميلادى ، وقبيل أن يغمر نور محمد صلى الله عليه وسلم أرجاء البشرية ، كان العالم فى الشرق والغرب ، فى الشمال والجنوب يتعثر فى خطا الرجعية ، ويئن من وطأة الظلم والاستعباد ، ويعكف معظمه على عبادة الأصنام ، ويعبد بعضه النار أو الكوكب السيار .

شعوب بأكملها تستعبدها قلة من الرجال ، قد يلقبون بالأباطرة حيناً ، والقياصرة حيناً آخر ، وأمم كثيرة تضللها فئة أطلقت على نفسها رجال الدين واتخذت من هذا اللقب شعاراً تخدع به الجماهير حتى تظل أقناناً تعمل وتكدح من أجل صالح القلة المتحكمة فى مصائرها .

وحروب محتدمة الأوار ، تثار إشباعاً لنهمة الغزو والفتح فحسب ، حتى بات العالم على شفا جرف هار . . . .

بيد أن رحمة الله التى وسعت كل شئ ، قضت أن تهدى هذا العالم وترده إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، فاختارت محمداً العربى ليكون النبى الموحى إليه ، ليرد البشرية إلى الأمن والطمأنينة ، وإلى التراحم والتعاون ، وإلى الايمان واليقين .

وكانت رسالته من أشق الرسالات وأخطرها ، إذ انبرى محمد يدعو إلى الاسلام وسط ظروف متناهية فى صعوبتها وظلامها . . . .

يقول « جول لابوم » فى المقدمة التى كتبها على فهرست القرآن الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية :

(لم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان .

يقول دوزى فى كتابه « تاريخ عرب أسبانيا » كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والمسيحية والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم .

نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد منها فمنسوب إلى اليهود وحدهم .

أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يتعذر أن تسود على شعب حى كثير الاستهزاء .

أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، الذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم تتحقق أخبارهم بالمغيبات ، أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة .

وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخاصة الشمس فكنانة كانت تدين للقمر ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وبنو طى يدعون سهيلا ، وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية .

وكان العرب مغرمين بشرب الخمر ، ويوجد فى الشعر مايدل على أنهم يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح به وسائله المعيشية . وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه . وكانت الأرملة تعتبر ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجاً ممقوتا . وكان هناك أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهو وأد الأهل لبناتهم (أى دفنهم أحياء) .

هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى : والأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية

والذين كانوا مبعثرين هنا وهنالك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم .

فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية لا يرى فيهم اليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية .

أما المسيحيون فكانوا يفرون إلى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في الامبراطورية الرومانية ولكن لم يكن في حالهم نور يلفت النظر تألقه . . .

في عهد هذه الأحوال الحالكة وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة جاء محمد . . .)

جاء محمد يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد كان الخلق الرضي الكريم الذي تخلق به محمد ، والصبر الجميل الذي تحلى به طوال حياته ، والقوة الخارقة في الإعداد والتنظيم وما كان يمتاز به من بلاغة وفصاحة ، ومنطق قوي سديد ، كل أولئك مكن لرسالته ، وأصل لدعوته ، فآمنت به هذه الملايين من البشر إيماناً عميقا لايخبو ولا يفتر(١) .

كان محمد على خلق عظيم ، ومن هنا وصفه الله تعالى بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) . إن وساطة بين الله ورسله ، قد تكون عن طريق ملك ، أو إلهام ، أو رؤيا منامية أو كلام من وراء حجاب . وذلك هو وحي الله إلى أنبيائه ورسله .

وكان أول الوحي ومشرق النور على محمد صلى الله عليه وسلم هو قول الله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

(١) عن كتاب « مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله » للمؤلف . طبعة دار الشعب

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

(أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى ، الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق — أى جاءه الوحى — وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملونى زملونى . فزملوه (غطوه بالثياب) حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة — أخبرها الخبر — لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس — أى الوحى — الذى كان ينزل على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً — أى شاباً قوياً — ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم · أومخرجيّ هم ؟

فقال · نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم نزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلا. نِصْفَهُ أَو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

فى سكون الليل .. فى تلك اللحظات التى تكون فيها النفس مستعدة للتلقى والإشراق . . **يأمر الله تعالى رسوله أن ينقطع فيها للمناجاة وللذكر وللتسبيح ؛ قم الليل ، رتل القرآن :**

« وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ، وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ... » .

تلك هى ركائز الإعداد النفسى والصقل الروحى لتقوى نفس محمد على تحمل مشاق الرسالة . ثم كانت فترة .. فترة زمنية بعد نزول تلك الأوامر الإلهية السالفة ، كانت بمثابة إعداد وتهيئة لأجواء تفرخ فيها الدعوة وتنتج ، وتنتقل من طور إلى طور ، من طور السرية إلى طور العلنية .. فى تلك الفترة الإعدادية لم ينزل الوحى على محمد .

« وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . يقول : ما صَرَمَكَ فتركك وما أبغضك منذ أحبك : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » أى : لما عندى فى مرجعك إلىّ خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا : «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » من الفلج – أى الظهور والنصر والظفر – فى الدنيا والثواب فى الآخرة : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » .

يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ومنّه عليه فى يتمه وعيلته وضلالته واستنقاذه من ذلك كله برحمته(١) .

أمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من عند الله ، وأن ينادى الناس بأمره ، وأن يدعوهم إلى الله ، فكان يدعو من أول ما نزل عليه الوحى ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء .

ونزل قول الله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »(٢) .

فصعد رسول الله ، على جبل الصفا ، وقال : يا معشر قريش ..

فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : مالك يا محمد ؟

قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتنا ؟

فأنزل الله تبارك وتعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) سورة الشعراء : ٢١٤ — ٢١٦ .

شاع حديث الدعوة فى مكة منذ ذلك اليوم ، وتحدث الناس به فى مجالسهم وأنديتهم ، وجعلت نفوس أهل مكة تتهيأ لهذا الأمر ، فأخذوا يتساءلون عن هذا الذى يدعو إليه محمد ؟ فمنهم من صفت قلوبهم ، وسمت نفوسهم ، فآمنوا بدعوة الحق ، واستجابوا الداعى السماء . ومنهم من عميت بصائرهم ، وكتب عليهم الشقاء فأعرضوا عنها وكانوا فى ذلك فريقين : فريق وقف منها موقف الموادعة ، فلم يعرض لها بسوء ، وفريق وقف منها موقف العداء السافر فجعلوا كل همهم أن يقاوموها وأن يقضوا عليها. وقد واجهت الارستقراطية القرشية الخطر على مصيرها ، فخفت بقضها وقضيضها ، لإطفاء هذه الشعلة قبل امتدادها . وكان فى طليعتها عبد العزى بن عبد المطلب الذى لقبه القرآن الكريم بأبى لهب ، والحكم بن هشام المعروف بأبى جهل وهما من زعماء قريش .

عن عائشة قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت بين شر جارين ، بين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابى ؛ فيخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا . . ثم يلقيه بالطريق .

لقى الرسول الكريم من الارستقراطية القرشية العنت والإرهاق ، فقد جعلت على قلوبها أقفالها ، وأصروا على غيهم ، واستكبروا استكباراً .

عن ابن مسعود ، قال :

« بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور[1] بنى فلان ، فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد صلى الله عليه وسلم إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم[2] ، فأخذه ، فلما سجد النبى

(١) اللفافة التى يكون فيها الولد فى بطن أمه ، والجزور البعير أو خاص بالناقة المجزورة . والمراد أنهم ألقوا على ظهره الكريم ما فى حشا الجمل المذبوح .

(٢) هو عقبة بن أبى معيط .

صلى الله عليه وسلم ، وضعه بين كتفيه . قال : فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنبى صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة وهى جويرية — أى صغيرة السن — فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم ، تسبهم ، فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم صلاته ، رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال : « اللهم عليك بقريش(١) » ، ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » .. وذكر السابع ولم أحفظه(٢) ، فوالذى بعث محمداً بالحق ، لقد رأيت الذي سمي ، صرعي يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب ، قليب بدر) .

إن الطريق طويل شاق .. ومحمد رسول الهدى . يلقى العنت والإرهاق من الارستقراطية القرشية ، ولكنه لم يهن ، ولم يضعف .. بل مضى يبلغ رسالة ربه العلى القدير ، ويدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

اجتمع الوليد بن المغيرة ونفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وكان قد حضر الموسم ، فقال لهم :

— يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً .

قالوا :

— فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به .

---

(١) عليك بقريش : أى أخذلهم واصرف أذاهم عنى .

(٢) صرح البخارى بأن اسمه عمارة بن الوليد .

قال :

— بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا :

— نقول : كاهن .

قال :

— لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة(١) الكاهن ولا سجعه .

قالوا :

— فنقول : مجنون .

قال :

— ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته (٢) .

قالوا :

— فنقول : شاعر .

قال :

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا :

— فنقول : ساحر .

قال :

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

---

(١) زمزمة الكاهن كلام خفى لا يفهم ، وسجعه أن يجعل لكلامه المنثور نهايات كنهايات الشعر

(٢) الخنق : الاختناق الذى يصيب المجنون ؛ والتخالج : اختلاج الأعضاء وتحركها من غير إرادة ، والوسوسة : ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

قالوا :

— فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ .

قال :

— والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق(١) وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ؛ فجعلوا يجلسون بسبل الناس — حين قدموا الموسم — لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ؛ فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله : (٧٤ : ١١–١٦)

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا » أي خصيما .

(٧٤ : ١٧ — ٢٢) : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ » .

قال ابن هشام : بسر : كره وجهه .

(٧٤ : ٢٣ — ٢٥) : « ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » .

قال ابن إسحق : وأنزل الله تعالى « في رسوله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى » وفي النفر الذين كانوا معه يصنفون القول في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : (١٥ : ٩٠–٩٣) :

(١) العذق: الكثير الشعب والأطراف، ومن رواهغدق بالغين المعجمة والدال المهملة — فعناه كثير الماء . وقوله « لجناه » أي : فيه ثمر يجنى .

« كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ » أى : أصنافا .

« فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قال ابن إسحق : فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها(١) .

صمد محمد فى ميدان الدعوة ، وثبت أمام تكذيب قومه ، وتسلح بالصبر الجميل ليصل فى النهاية إلى النصر ، وإعلاء كلمة الله فى الأرض .

ويسير الوحى الإلهى يكلأ الدعوة والداعية .. يهدى ويرشد ويوجه ..

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ، لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ »(٢) .

« **قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ، وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** »(٣) .

ويقص القرآن الكريم ما لاقاه الرسل من قبله من الشدة والتكذيب ومن المؤامرات والسخريات ، ليثبت محمد كما ثبت زملاؤه من قبل :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » هود: ١٢٠

ويبين له الطريق الذى سلكه الأنبياء من قبل حيال مكذبيهم ليسلكه .

---

(١) ابن هشام : جـ١ ص ٢٨٦ . (٢) سورة القلم : ٤٨ — ٥٠ .
(٣) سورة يونس : ١٠٨ — ١٩٠ .

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا » (الأنعام ٣٤)

وصبر محمد . . وثبت فى ميدان الدعوة .. وأخذ الإسلام ينتشر بين قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

وبينما كانت وسائل التعذيب بالمستضعفين من المسلمين تجرى على قدم وساق ، لا فتور فيها ولا هدنة ، إذ بوسائل الإغراء تكال إلى محمد رسول الهدى وهذه صورة منها :

اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحرث بن كلدة أخو بنى عبد الدار ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ابن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف . وقال بعضهم لبعض :

— ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه .

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له :

— يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه

قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً — فربماكان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

ولما رأت الارستقراطية القرشية الخطر يهدد مصالحها الذاتية ، وأن دعوة محمد إلى تحرير الإنسان من الأوهام والأباطيل خطر على كيانها ، راحت تشكك فى الدعوة الكريمة ، والرسالة السامية .

وبعثت قريش النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لهما :

— سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض أقواله ، وقالا لهم :

— إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما أحبار يهود :

— سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ؛ فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهى؟

فان أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره مابدا لكم .

فأقبل النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط ، حتى قدما مكة على قريش ، فقالا :

— يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد (ص) ؛ قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها : فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

— يامحمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ماهى ؟

فقال الرسول :

— أخبركم بما سألتم عنه غدا . ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يذكرون — خمس عشرة ليلة لايحدث الله إليه فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا :

— وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه .

وحتى أحزن رسول الله مكث الوحى عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف : فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح .

قال رسول الله لجبريل حين جاءه :

— لقد أحتبست عنى ياجبريل حتى سوئت ظننا

فقال له جبريل (١٩ : ٦٤) :

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » .

(افتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذكر نبوة رسوله ، لما أنكروا عليه من ذلك ، فقال (١٨ : ١ — ٢٦)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، إنك رسول منى : أى تحقيق لما سألوا عنه من نبوتك :

« وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا » أى : معتدلا لا اختلاف فيه :

« لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ » أى : عاجل عقوبته فى الدنيا وعذابا أليما فى الآخرة من عند ربك الذى بعثك رسولا « وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » أى : دار الخلد لا يموتون فيها ، الَّذِينَ صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » يعنى قريشًا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله « مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى : لقولهم إن الملائكة بنات الله « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ » يامحمد « عَلَى آثارهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » أى : لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم ، أى : لا تفعل . « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » . ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَاب

الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى : قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك . ثم قال تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّء لنا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُم لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » ثم قال تعالى : « نَحْن نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) أى : بصدق الخبر عنهم : « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا ربُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطا » : أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم .

« هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ » .

قال ابن هشام : تزاور تميل . وتقرضهم ذات الشمال : تجاوزهم وتتركهم عن شمالها .

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ » أى : فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ، ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم ، فى صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِين وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » .

قال ابن هشام : الوصيد : الباب . والوصيد أيضا : الفناء .

« لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » إلى قوله : « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان والملك منهم « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ » يعنى أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم « ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى : لا علم لهم « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا » أى : لا تكابرهم « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أى : ولا تقولن لشىء سألوك عنه كما قلت فى هذا إنى مخبركم غدًا ، واستثن مشيئة الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل : عسى أن يهدين ربى لخير مما سألتمونى عنه رشدا ؛ فإنك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » أى : سيقولون ذلك : « قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا » .

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف (١٨ : ٨٣–٨٥) .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا » حتى انتهى إلى آخر قصة خبره .

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

فلما جاء الرسول بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه — حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر فقال قائلهم :

« لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

أى : اجعلوه لغوا وباطلا ، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك ، فانكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم .

كان الرسول الكريم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه لانفقه ماتقول ، وفى آذاننا وقر لانسمع ماتقول ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاعمل بما أنت عليه إننا عاملون بما نحن عليه ، إنا لانفقه عنك شيئا.

فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من قولهم (١٧ : ٤٥ — ٥١)

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا » إلى قوله « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » أى : كيف فهموا توحيدك ربك إن كنتُ جعلت على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وبينهم حجابا بزعمهم ، أى : إنى لم أفعل ذلك .

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » . أى : ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثتك به إليهم « أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا

فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى : أخطأوا المثل الذى ضربوا لك فلا يصيبون به هدى ، ولا يعتدل لهم فيه قول : « وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أى : جئت تخبرنا أنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظاما ورفاتا ، وذلك مالا يكون « قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

* * *

الحقد الأسود يمور فى قلوب أعداء الحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو إليها محمد بن عبد الله . وإذا كانت قريش قد جعلت على قلوبها أقفالها ، وأصروا على غيهم . فقد عزم على التماس قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته ، ويستطيع أن يجد فى بلدهم تربة أشد خصبا وصلاحية .

إن الجذوة التى اشتعلت فى قلبه لن تنطفئ .

وتعاليمه السامية لتحرير الانسان من كل قيد يعوق تقدمه لن تموت .

وانطلق إلى الطائف . . عله يجد قلوبا واعية ، وأدمغة متفتحة ، وآذاناً صاغية . .

وهناك راح يدعو الناس إلى دين الحق ، لكنهم قابلوه بالسخرية والاستخفاف ، فصموا آذانهم عن سماع دعوته ، وخذلوه وأغلقوا أبوابهم دونه . بل إنهم أغروا به العبيد والأجراء الذين يحمل لهم الخلاص ، ويدعوهم إلى الحرية ؛ فأخذوا يطاردونه ويصيحون به . حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة فاحتمى به من شدة ماأصابه من الشر والأذى . فلما استراح وردت إلى نفسه الطمأنينة رفع رأسه إلى السماء ضارعا فى شكاية وألم :

— (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتهجمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا

أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

ويعود إلى مكة وقد تقطعت فى نفسه وسائل الاستعانة بالناس فيتجه إلى الله وفى هذا الجو الربانى الخالص يمد الله يده إلى رسوله ويضمه إليه ، ويسرى به من المسجد الحرام إلى المسجدالأقصى فيريه من آياته الكبرى مايبدد عن نفسهسحائب هذا الجوالأرضى الخانق ويضىء له المستقبلبنصرةالحق..والعدل يقول الله تعالى :

« سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ؛ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

ويقول ، جل شأنه :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ، أَفَتُمَارُونَه عَلَى مَا يَرَى ؟ ! وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

هذه هى الآيات القرآنية ، عن الاسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية ، فانها كثيرة . وقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابياً ، يكمل بعضها بعضاً .

ونحن هنا ، لن نعرض الموضوع بكل تفصيلاته فهو معروف ، ولكننا، سنعرض الجانب الخلقى فيه ، وجانب المغزى منه .

قدم ابن اسحاق — حسبما يروى ابن هشام — لحديث الإسراء بكلمة جميلة مشرقة ، يقول فيها(١) :

(وكان فى مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين ، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته وما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد) .

وبجمل الأمر : أن الرسول الكريم ، بينما كان نائماً : أتاه جبريل ، فأيقظه ، وخرج معه : فاذا أمامهما دابة بيضاء ، هى البراق ، وركبها الرسول الكريم ، وسارت الدابة ، وجبريل ، معه — على حد تعبيره ، صلى الله عليه وسلم — « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى إلى بيت المقدس . فوجد فيه ابراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن . فأخذ الرسول الكريم إناء اللبن فشرب منه ، وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هديت للفطرة وهديت أمتك يامحمد ، وحرمت عليكم الخمر .

ولما انتهى الرسول الكريم ، من بيت المقدس ، عرج به إلى السماء ، وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعها إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك ، حيا الرسول صلوات الله عليه : ربه .

— (التحيات لله ، والصلوات والطيبات) .

وحياه الله ، سبحانه وتعالى :

— (السلام عليك : أيها النبى ورحمة الله وبركاته)

وقال الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢ .

— (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : اشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) .

وفى هذه اللحظات الخالدة ، فرض الله العلى القدير ، الصلاة على المسلمين .

عن ابن عباس — رضى الله عنه — فيما رواه الامام أحمد — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظعت أمرى ، وعرفت، أن الناس مكذبى .

قال : فمر عدو الله — أبو جهل — فجاء حتى جلس إليه .

فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

— هل كان من شئ ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم .

قال : ما هو ؟

قال : انه أسرى بى الليلة .

قال : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ .

قال : نعم .

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه ..

قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

فانطلق أبو جهل إلى قريش ، فقال :

— هيا يامعشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى أسرى بى الليلة .

قالوا : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ .

قال : نعم

فاذا القوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب . . زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت . »

قال : فجئ بالمسجد ، وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر إليه .

قال : فقال القوم : أما النعت ، فوالله ، لقد أصاب) .

وعن الحسن : انه فى يوم الحديث عن الأسراء ، ارتد كثير ممن كان أسلم[1] ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له :

— هل لك يأبا بكرفى صاحبك؟ يزعم أنه قدجاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه .

فقالوا : بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

---

(١) أنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك (١٧ : ٦٠) . « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

— يانبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال :

— نعم .

— يانبي الله فصفه لى فانى قد جئته .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرفع لى حتى نظرت إليه » فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر :

— صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً قال :

— صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أنت يا أبا بكر الصديق . فيومئذ سماه الصديق (١) .

هذا ما ترويه الكتب لهذا النبأ العظيم ، ويجدر بنا أن نقف عنده ونتأمله بعمق ، ونفكر فيه بامعان . . ونستخلص منه التوجيهات السامية . .

١ — لقد كان(٢) ، رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة : لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو . عن طريق الارشاد الإلهى ، وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، هو القرآن : خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنا عليها .

ولأن الرسول ، صلوات الله عليه : تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن ، أكمل رسول ، صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا كانت إمامته ، صلوات الله عليه ، بالرسل والأنبياء فى بيت المقدس ، لأنه ، صلوات الله عليه ، أكمل رسول : كان من أجل ذلك :

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥ .

(٢) عن كتاب الرسول «ص» للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٠٧ وما بعدها .

«أقرب المقربين إلى الله ، سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى ما لم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه ، عليه السلام ، لقد وصل ، صلوات الله عليه ، إلى (قاب قوسين أو أدنى) وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول ، صلوات الله عليه ، أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ : معنى مكانى ، فانه أيضاً — بل وبطريق أولى — معنى روحى : أى أن الرسول ، صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات ؛ قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت — فى روحانيتها — آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى ، عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . .

وهكذا حتى تجاوزت ، روحياً ، إبراهيم ، عليه السلام ، فى سمائه السابعة . ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه.

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الإلهى .. ينزل منحدراً ، فيجادل فى الإسراء والمعراج : أكان رؤية أم كان يقظة . استغفر الله ، وأتوب إليه ..

إن ذلك الجدل : إن دل على شئ ، فانما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

٢ — وإذا كانت التوجيهات السابقة : إنما كانت ، لتدلنا على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزداد بذلك تقديراً ، وحباً واتباعاً ، فان من هدى الله ، سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطاً محكماً ، بين الدين والأخلاق . »

« والواقع : أن الأخلاق فى جو الإسلام : مرتبطة بالدين ارتباطاً ، لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى ، لا يتجزأ : مصدرها هو مصدره : إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين : فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه : هما شكله ، ونزعته ، واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة : كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة ، إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن ، كأساس للأخلاق ، إنما هى : أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو اللذة ، أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد ..

أما وارد الشرق الإسلامى ، أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى ، فان مقياس الأخلاق فيه ، إنما هو : المبادئ الدينية ، إنما هو آيات القرآن ، إنما هو الفضائل التى أوحاها الله ، سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة ، مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة » :

سار ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى مسراه ، فمر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال ، صلى الله عليه وسلم ، لجبريل ، عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت ، كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شئ .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم .

قال : ما هؤلاء ؟ .

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب فى قدر طيب ، ولحم خبيث نئ فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الخبيث النئ ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ .

قال جبريل : هذا مثل الرجل من أمتك : تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها ، حتى يصبح ، ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيباً ، فتأتى رجلا خبيثاً ، فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا مثل الرجل من أمتك : يكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت ، كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شئ ..

قال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه : ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع ..

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع ردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتاً .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرفي ، واستبرقي ، وحريري ، وسندسي ، وعبقريي ، ولؤلؤي ، ومرجاني وفضتي ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحافي ، وأباريقي ، ومراكبي ، وعسلي ، ومائي ، ولبني ، وخمري ، فآتني ما وعدتني . .

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيني ، فهو آمن ، ومن سألني فقد أعطيته ، ومن أقرضني جازيته ، ومن توكل على كفيته ، انني أنا الله لا إله إلا أنا : لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين ..

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد ، فسمع منكراً ، ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ — « ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية ، والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ : انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة .

لقد كفر — عند سماع النبأ — من كفر بعد إسلامه ، وارتد من ارتد بعد إيمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة .

إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ؛ إن هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله ، سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهيئين ، لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية : إذاعة نبأ الإسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، إيمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إنبائه » .

« والمثل الأعلى فى كل ذلك : إنما هو سيدنا أبو بكر ، حينما يعلن ، فى غير تردد ولا فتور : (لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى : أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه) .

هذا الإيمان المطلق ، بالرسول ، هو الذى جعله ، صلوات الله عليه ، يطلق على أبى بكر ، رضوان الله عليه « الصديق » . و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان ، لا ينالها ، إلا من جاهد نفسه جهادا تخطى به إيمان العامة ، وسما فى إيمانه درجة درجة ، إلى أن أصبح قائماً بالله ، متجها إليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الأسلامية ، بأكملها : مطلوب منها بالنسبة إلى أخبار رسول الله صلوات الله عليه ، أن تكون على غرار الصديق ، رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها إلى أخباره ، وتسلم نفسها إلى أنبائه ، مصدقة تصديقاً كاملا : تصديقاً يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً ، إيجابياً يحقق للأمة الإسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقاً ينفى عن وجودها ، هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الإسلام ، فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول ، صلى الله عليه وسلم : فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين أنهم من المجددين ، وما هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة ، وفى الأحاديث النبوية : ليست إلا أقلاماً مقلدة للمستشرقين : لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، إنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الإيمان ، ويتنافى مع الصديقية .

٤ — أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج ؛ وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج : أعظمها على الإطلاق ؟ » .

« أما النعمة العظمى ، والتجلي الإلهي الأكبر في الإسراء والمعراج فانه : الصلاة . ولا يتأتى لنا — عجزاً وقصوراً — أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التي أنعم الله بها على الأمة الإسلامية في هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هي الصلة به سبحانه ، وهي الكيفية ، وهي الطريقة ، وهي الوسيلة ، وهي اللحظات الجليلة التي تتم فيها الصلة وتتحقق .

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل — ويجب أن يكون كاملا — عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة : لتتخلص النفس إلى المنعم ، حتى تنعم في رحابه بسعادة الصلة به وبالقرب منه .

ومن أقام الصلاة ، فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هي : إقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك : هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التي يجري وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك في أن الصلاة يقيمها الإنسان ، كما أراد الله ورسوله ، من أنجع الوسائل في القرب من الله ؛ إنها : البراق الذي يجتاز به المؤمن ، في سرعة سريعة ، طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل إليه ، تعالى ، فينعم في رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما : هي التي يجب أن نتنبه إليها ، وأن نأخذ في تأملها والانسجام معها[1] » .

* * *

كان محمد رسول الهدى ، يدعو قومه ليلا ونهاراً إلى عبادة الله وحده لا شريك له . يروي الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهلياً أسلم يقول :

---

(١) عن كتاب « الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ، ونفحات من هديه » للدكتور عبد الحليم محمود .

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصر عيني ، بسوق ذى المجاز ، يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » . ويدخل فجاجها والناس متقصفون عليه . فما رأيت أحداً يقول شيئاً . وهو لا يسكت يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

يقول ابن سعد فى الطبقات :

« أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة وعكاظ ومنى أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فليست قبيلة من العرب تستجيب له ، ويؤذى ويشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه وإنجاز ما وعد ، فساقه إلى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة ، فانتهى إلى نفر منهم ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فاستجابوا لله ولرسوله فأسرعوا وآمنوا وصدقوا وآووا ونصروا وواسوا » .

ولما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من الرسول ، وذلك بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة ، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم .

فلما كان العام الذى يليه حضر إثنا عشر رجلا ، فبايعوا الرسول الكريم — كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم — (على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف) .

قال : فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

ثم ... عادوا فى العام التالى ، وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان ، والتقوا بالرسول الكريم ، ومعه العباس بن عبد المطلب .

وكان العباس أول من تكلم فقال :

— يا معشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن دعوه .

قال اليثربيون وقد سمعوا كلام العباس :

— سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ماأحببت.

فتكلم الرسول ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، ورغب فى الإسلام ، وقال :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم .

قال البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم :

— والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا(١) ، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة(٢) ورثناها كابراً عن كابر .

وقبل أن يتم البراء كلامه أعترض أبو الهيثم بن التيهان قائلا :

— يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — أى اليهود — حبالا وإنا قاطعوها — يعنى العهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم الرسول الكريم ثم قال :

— بل الدم ، الدم ، والهدم الهدم(٣) ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

(١) أزرنا : بضم الهمزة والزاى وفتح الراء : المراد نساءنا . والعرب تكنى عن المرأة بالأزار .

(٢) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها .

(٣) الهدم . الهدم : بسكون الدال وفتحها بالفتح معناها القبر ، يعنى أقبر حيث تقبرون . وبالسكون معناها إهدار الدم ويأتى المعنى أيضاً مع فتح الدال أى أن طلب دمكم فقد طلب دمى ، وأن أهدر دمكم أهدر دمى .

وهم القوم بالبيعة ، فاعترضهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى قائلا :

— يامعشر الخزرج . أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ، فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فقال القوم :

— فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟

قال :

— الجنة .

قال القوم :

— ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه، فلما فرغوا من البيعة قال لهم الرسول :

— اخرجوا لى منكم اثنى عشرة نقيباً ، يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء .

فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال الرسول لهؤلاء النقباء :

— أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة :

— يارسول الله والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال الرسول الكريم :

— أنا لم نؤمر بذلك فانفضوا إلى رحالكم .

ولما صدر السبعون من عند الرسول الكريم ، طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوماً : أهل حرب وعدة ونجدة .

أخذ المسلمون يهاجرون سراً إلى يثرب ، وهم على ثقة بأن الله معهم ، يؤيدهم بنصره . . وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ، ولا فى نظر أصحابه ، ركونا إلى الدعة والهدوء ، أوميلا إلى الراحة والسكون ، وإنما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله ، من جهة أخرى . . .

هاجر المسلمون جميعاً إلى يثرب وبقى الرسول بمكة وحده ، وليس معه من أصحابه إلا اثنان أبو بكر وعلى بن أبى طالب .

بقى الرسول منفرداً بين أعدائه الكثيرين ، ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة ، حتى لقد سأل أبو بكر صديقه : متى الرحيل ؟ فطلب منه أن يصبر والا يحدثه فى هذا الأمر بعد .

ولكن قريشاً أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن أن يفلت منها ، وأن محمداً يبالغ فى الكتمان لأنه يدبر أمراً ، ولئن انضم محمد إلى أصحابه واعتصموا بيثرب فستأتى الأيام الشداد إذن . . ودبرت قريش أمراً . . واجتمع القوم فى دار الندوة للتشاور فى هذا كله وفى وسيلة اتقائه .

قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

ولكن هذا الرأى قوبل بالرفض .

وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع . إذا غاب عنا ، فرغنا عنه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

ولكنهم خافوا أن يلحق بيثرب وأن يصيبهم ما يفرقون منه .

وانتهوا إلى الرأى الذى عرضه عليهم أبو جهل بن هشام قال :

— أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل — فعقلناه لهم . . . !!

واختاروا فتيانهم ، وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته الثرى ، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التى تمزقت .

وأتى جبريل الرسول الكريم فقال :

— لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه فلما رأى محمد مكانهم قال لعلى بن أبى طالب :

— نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فانه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم .

وخرج محمد فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه ، فلا يرونه فجعل ينثر هذا التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو الأيات من (يس) (يس والقرآن الحكيم ، أنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم) إلى قوله : (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) حتى فرغ الرسول من هذه الأيات . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب . فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال :

— ما تنتظرون ها هنا ؟

قالوا :

— محمداً .

قال :

— خيبكم الله . قد والله خرج عليكم محمد . ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطاعون فيرون علياً فى الفراش متسجياً ببرد الرسول ، فيقولون :

— والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده .

فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على بن أبى طالب عن الفراش ، فقالوا :

— والله لقد صدقنا الذى حدثنا .

وثارت ثائرة قريش . . ومضت فى سعار مجنون تبحث عن محمد فى كل طرقات مكه . . . .

فى ذلك الوقت كان الرسول الكريم قد أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ووقف محمد يرنو إلى البيت العتيق فترة ، ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة ثاقبة وقال مودعاً :

— والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت .

وعمد محمد وأبو بكر إلى غار ثور — جبل بأسفل مكة — فدخلاه ، وكان أبو بكر حزيناً ، خوفاً على الرسول الكريم ، فجاء النداء الالهى على لسان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يملؤه ثقة ، وتفاؤلا :

« لَا تَحْزَنْ ؛ إنَّ اللهَ مَعَنَا »

ولما سمع أبو بكر الصديق وقع أقدام المشركين أمام الغار ، وأصواتهم الصاخبة ، التي تعلن عن غيظهم المكبوت ، قال :

— لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا .

ويبتسم الرسول ، في اطمئنان وثقة ، ويقول :

— ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

ولما انتهى الطلب ، وعاد أعداء الحق من حيث أتوا ، خرج الرسول ، هو ورفيقه . وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول .

وسار الركب الكريم تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل إلى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا　　جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة :

١ — بناء المسجد ، المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ — المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقا لمبدأ من مبادئ الدين الاسلامى ، يتمثل في قوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

كان اليهود في يثرب قوة ، ولذلك آثر الرسول في أول الأمر أن يحاسن اليهود ويصافيهم ، وإن لم يغب عنه أنهم يضمرون له الشر ، وأنه لا يمكن لهم أن يقبلوا دعوته ، وهم الشعب المختار ، وهم المعتزون بمالهم المعتصمون بحصونهم وآطامهم .

حاول الرسول الكريم تأليف قلوب اليهود وانزالهم عن طبيعة الحذر والعناد ، فأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود ، كما أحل لهم الزواج من بناتهم وجاء فى القرآن الكريم نص على هذا فى سورة المائدة :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

ولكن اليهود راحوا يدبرون المؤامرات لفصم الوحدة الاسلامية ، وأخذوا يكيدون للمسلمين الذين أصبحوا كتلة قوية متحابة .. فأوعز أحد اليهود واسمه « شاس بن قيس » إلى شاب يهودى أن يجلس بين الأوس والخزرج وينشد ما قال بعضهم لبعض أيام الجاهلية ، من تفاخر وتنابذ بالألقاب ليثير بينهم العداء القديم . ففعل . . . فتنازعوا وتفاخروا حتى عمل الضغن فيهم فتواثب رجلان على الركب وقال أحدهما للأخر :

— إن شئتم رددنا الحرب فى قوتها وشبابها وحرها ولفحها . وغضبوا جميعا وقالوا : قد فعلنا موعدكم كذا ... السلاح .. السلاح

فبلغ ذلك الرسول فخرج فيمن معه حتى جاءهم وقال :

— يامعشر المسلمين . الله الله . . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم

فعلموا أنها كيد من اليهود ، وألقوا السلاح واستغفروا . وفى هذا يقول القرآن الكريم فى سورة آل عمران :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

يقول ابن هشام عن هذه الفترة من حياة الرسول التي شغلت برد كيد اليهود :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ، بغياً وحسداً وضغناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى على جاهليته (تمسك بها) ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة (وقاية من القتل) ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وجحودهم الإسلام ، وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنتونه (يشقون عليه) ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

جاء نفر من أحبار يهود ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

— يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فان فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك .

فقال لهم الرسول :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنى ؟

قالوا : نعم .

قال :

— فاسألوا عما بدا لكم .

قالوا :

— فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل .

قال الرسول :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما غلبت صاحبتها كان لها الشبه .

قالوا :

— اللهم نعم .

قالوا :

— فأخبرنا كيف نومك .

قال :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به تنام عينه وقلبه يقظان .

فقالوا :

— اللهم نعم .

قال :

— فكذلك نومى ، تنام عينى وقلبى يقظان .

فقالوا :

— فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه .

قال :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الابل ولحومها وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها .

قالوا :

— اللهم نعم .

قالوا :

— فأخبرنا عن الروح .

قال :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون جبريل وهو الذى يأتيني ؟ .

قالوا :

— اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك ، إنما يأتى بالشدة ، وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك .

فأنزل الله عز وجل فيهم :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

إلى قوله (أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِاللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّياطِين عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) أى : السحر

(وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَان وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)

قال ابن اسحق : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما ذكر سليمان بن داود فى المرسلين قال بعض أحبارهم :

— ألا تعجبون من محمد ؟ يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحراً ..

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

(وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَان وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا)

أى : باتباعهم السحر وعملهم به .

بلغ الجدال بين الرسول واليهود حداً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه . فقد نزل صدر سورة البقرة إلى الآية الحادية والثمانين منها ، ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وإنكارهم مافى كتابهم ويلعنهم لكفرهم .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّاجَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِفَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)(١)

وأوحى الله لرسوله ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام ، فنزلت الآية :

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)(٢)

إن فى مطلع الآية :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ »

قرينة قوية على ماكان يختلج فى نفس محمد من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك وعلى ما قام فيها من رغبة فى التحول عنها .

وقوله تعالى (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا)

يمكن أن يلهم أن الرسول الكريم صار يائساً أو كاليائس من اليهود ، وثارت فى نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة . تراءى له أن اتجاهه إلى

(١) سورة البقرة : ٨٧ — ٨٩ . (٢) سورة البقرة : ١٤٤ .

قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن دعوته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله القديم الذى يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذى هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً فى حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها فى صلاته وتكون قبلته ثانية . ولعله كان يسمع تألما أو انتقادا أو يرى حيرة العرب مسلمين وغير مسلمين فى الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهى بيت الله العربى المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما فى نفسه من الرغبة والأمنية[1] .

وقد أنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته بقولهم :

— يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينة ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها ، نتبعك ونصدقك .

فنزل قوله تعالى :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ

(١) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ، ص ٧٠ .

قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ ماتَكُونُوا يأْتِ بِكُمُ اللهُ جمِيعًا إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير . ومِنْ حيْثُ خَرجْتَ فَولِّ وجْهكَ شَطْر الْمسْجِدِ الْحرام . وإِنَّهُ لَلْحقُّ مِنْ ربِّكَ وما الله بِغَافِلٍ عمَّا تَعْمَلُونَ ، ومِنْ حيْثُ خَرجْتَ فَولِّ وجهكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشونِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١)) .

حقد اليهود على الرسول ، وراحوا يتآمرون عليه وعلى دعوته الحق ، ويشنون حرباً نفسية ضارية للنيل منه صلوات الله عليه .

«ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية فى أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم لكل ما فى أيدى الغير ، وضنهم بأى شئ مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم فى محبة أو موقف ولاء للغير ، وحسدهم لأى نعمة ينالها الغير ، وتدبيرهم لكل وسيلة مهما دنأت وفجرت وكان فيها كفر وفسق ونقضهم لمبادئ الدين والعهد فى سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب ما ناله من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حاقد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر ، ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى اجمالا صورة طبق الأصل : جبلة خاصة وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ،

---

(١) سورة البقرة : ١٤٢ — ١٥٠ .

وشره شديد إلى ما فى أيدى الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير فى الكل ، واللعب فى وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التى يريدون ، وعداء لكل الناس وسخرية منهم وخداع لهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ونظام فى كل مكان وزمان وتسخير لكل قوة فى سبيل مآربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية فى أعدائهم حين يتمكنون منهم ، إنهم ، لا يوجدون فى أرض إلا والعين مزورة عنهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم ، راغبون فى التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة منهم جيلا بعد جيل والتى يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوءاتها ، وليس هذا اليوم فحسب ، بل إنه لكذلك منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبى على ما دمغتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لا يمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التى جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن(١) .

واجه الرسول مؤامرات أعداء الحق من اليهود والكافرين والمنافقين ، بالإيمان ، والثقة بالله ناصر الحق ، فانتصر عليهم ، وتمت كلمة الله فى جزيرة العرب ...

ونبى الرحمة . . هو نبى الجهاد . .

والجهاد فى الإسلام . . . هو جهاد فى سبيل الله .

ونبى الرحمة . . كان فذا فى بطولته وشجاعته . . لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار ، يفرون أحيانا ، ولكنه صلى الله عليه وسلم يثبت كالطود الشامخ ، وقد ثبت فى مكانه فى غزوة أحد التى هزم فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يرجون أن يقضوا عليه ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥

ووقف ثابتا فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم إذ ذاك . . وانحاز الرسول ذات اليمين ، ثم قال :

— أين أيها الناس ، هلموا إلى رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .

وعاد جيش الحق إلى الميدان من جديد ، وحارب حتى انتصر بفضل ثبات الرسول والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[1])

كان الرسول ، مع التجائه إلى الله تعالى يدعوه ويستنجزه وعده بالنصر يضع الخطط الدقيقة ، وينظم الجيش ، ويعد له العدة الكاملة .. ويحكم الأمر احكاماً ، بحيث لا يدع فيه ثغرة :

هكذا كان أمره فى جميع أموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيما رائعا ثم اتجه إلى الله يدعوه ، وكان دائما متفائلا ، كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين . لقد كان المشركون فى غزوة بدر ، ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون باذن الله هزيمة منكرة .

وكانت هزيمة الجيش الإسلامى فى غزوة أحد : شذوذا فى القاعدة ،

(١) سورة التوبة : ٢٥ — ٢٨ .

وماكان ذلك إلا لأنهم خالفوا — متأولين — أوامر الرسول الكريم ، غير أن تفاؤله صلى الله عليه وسلم ، لم يفارقه لحظة ؛ إذ أنه بعد هزيمة الجيش فى أحد مباشرة ، أمرهم الرسول ، بلم شملهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورا ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤل الرسول ، أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمعت قوى الشر والظلم والظلام تريد أن تقضى على الإسلام ، لم يفارقه — صلوات الله عليه — تفاؤله . .

كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، وكان محمد يعمل فيه بيديه وهو يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينـــا ولا تصدقنا ولا صلينـــا
فانزلن ســكينة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينـــا
إن الألى قــد بغوا علينـــا وأن أرادوا فتنـــة أبينـــا

فى هذه اللحظات الحاسمة ، وقعت هذه القصة التى يرويها البراء بن عازب رضى الله عنه :

« أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ؛ قال : عرض لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيه المعاول ، قال : فشكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الرسول وأخذ المعول ، فقال : « بسم الله » ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام والله أنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا » . ثم قال : « بسم الله » وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله أنى لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا » . ثم قال : « بسم الله » وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال :

« الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله أنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا[1] .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة فى المسلمين ، ورفع من روحهم المعنوية ، فصمدوا فى الميدان حتى انتصروا على أعداء الحق .

وفتح مكة يرتبط بآيات مباركات هى :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

نزلت هذه الآيات الكريمة ، أثناء عودة الرسول ، إلى المدينة ، بعد صلح الحديبية ، تسلية للمسلمين ، وقد حز فى نفوسهم صدهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، وقد نزلت تشير إلى فتح مكة وتبشر به .

نقضت قريش عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين الرسول الكريم ، وكانت الفرصة مواتية ، لأن يركز الله تفكير رسوله فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ؟

صمم رسول الهدى فى عزم أكيد ، وأرادة لا تلين ، على أن يمحو الشرك وآثاره من مكة وأن يطهر البيت العتيق من جديد للطائفين ، والعاكفين والركع السجود .

تحركت كتيبة الإيمان . . قوية ، إلى مكة . .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان ، وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال للعباس بن عبد المطلب : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . .

(١) الفتح الربانى جـ ٢١ ص ٧٨ .

فقال العباس بعقليته الإسلامية : إنها النبوة .

قال أبو سفيان : فنعم . .

وتوجه الرسول نحو مكة محذراً من سفك الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » عزله الرسول ، فقد كان الرسول يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ولما نزل الرسول مكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد ، فقام الرسول على باب الكعبة ، فقال :

« لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج . إلا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

فكان هذا اليوم حقاً يوم المرحمة ...

* * *

نبي الرحمة ، هو نبي الجهاد ، هو الزوج المثالى ، والأب العطوف الكريم

كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الكامل والأسوة الحسنة للإنسانية فى حسن معاشرة الأزواج بالمعروف والقسمة بينهن بالعدل فى كل من المبيت والنفقة والكرم وفى احتمال غضبهن وغيرتهن ومعاملتهن بالأناة والرفق والموعظة الحسنة .

قالت عائشة رضى الله عنها : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امرأة له ولا خادماً قط .

وسئلت ما كان الرسول يصنع فى أهله ؟

قالت : كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

فكان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرفع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

والحديث عن زوجات الرسول الكريم اتخذ منه بعض المغرضين والمستشرقين مادة للتشهير : وقالوا :

«إن محمداً قد سن لنفسه قانوناً ينقض القانون الذى سنه الله لسائر المسلمين . كما تطاولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتى تزوج بهن أو جمعهن فى عصمته ، ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة ، منها : أن النبى صلى الله عليه وسلم فى تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته أو عن الطبيعة البشرية ، وأن لجل زيجاته ظروفاً غير دواعى الرغبة الجنسية ، إذ توخى فى بعضها تكريم صاحبيه : أبى بكر وعمر ، بابنتيهما عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وفى بعضها توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل ، كزيجته بجويرية ابنة رئيس بنى المصطلق ، وفى بعضها تكريم الزوجات المهاجرات اللاتى فقدن أزواجهن فى هجرة الحبشة وجبر نفوسهن كزواجه من « أم حبيب بنت أبى سفيان » و « أم سلمة » و « سودة » و « زينب بنت خزيمة » رضى الله عنهن . لا سيما أن نصف زوجاته كن من المتقدمات فى السن وأولات أولاد ممن تقل الرغبة الجنسية عادة فيهن ، وجوهر ومدى الردود صحيحان

كل الصحة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يرى أنه فى حاجة إلى تشريع خاص به مناقض للقانون العام . اولا أن هناك ظروفاً قاهرة . وكان بامكانه أن يستغنى عن المتقدمات فى السن ، وذوات البنين ، وغير الجميلات ، لو كانت دواعى المسألة هى الرغبة الجنسية فحسب[1] » .

وفند العقاد مزاعم المستشرقين وغيرهم عن علاقة محمد بالمرأة فقال[2] : « فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة ، ونحن قبل كل شئ لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء فى الفطرة ، لا عيب فيه ، وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام . فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمداً قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، ولم يشغله عن هذا شئ ، لا امرأة ولا غير امرأة ، فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحاً جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعاً للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

ويقول : قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .

فالنبي ، صلى الله عليه وسلم ، أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين

(١) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ص ٧٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد .

عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحاً يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، مع نسائه ، واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية » .

* * *

كان فى العرب أعراب جفاة ومنافقون عتاة مرضى القلوب ، وكان الجميع يدخلون بيوت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الأمر يثقل على الرسول ، وعلى الصحابة وفضلائهم وكان عمر بن الخطاب من أشدهم غيرة وجرأة فكان يطالب الرسول الكريم بحجب نسائه عن الرجال .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه ، قال :

« قال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . »

فأنزل الله آية الحجاب ، أى فكان هذا مما وافق رأيه القرآن .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أنس قال :

لما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب أم المؤمنين دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فاذا القوم جلوس ، فرجع ثم إنهم قاموا . فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله آية الحجاب وهى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا(١))

كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم يقتصر فى طعامه وشرابه على ما تدعو إليه ضرورة الحياة ويتخلى عن وصول الترفعات فى مأكله كلباسه زهدا فى الدنيا ونعيمها وجرياً على ما تقتضيه حال العبودية التى هى أشرف أحوال الإنسان .

كان لا يرد موجودا ، ولا يتكلف مفقوداً ؛ فما قرب إليه شئ من الطيبات إلا أكله إلا أن تعافه نفسه فيتركه بدون تحريم . وما عاب طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه(٢) .

روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فاذا هو بأبى بكر وعمر فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . فأتى بهما رجلا

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد .

من الأنصار فاذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ . قالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى .

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب . فقال : كلوا . وأخذ المدية فقال رسول الله : إياك والحلوب . فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق (العذق عنقود من النخل) وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا قال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .

وروى مسلم عن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله يقول أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ذات يوم إلى منزله فأخرج إليه فلق من خبز ، فقال ما من آدم؟ فقالوا : لا إلا شئ من خل . قال : نعم الأدم الخل

قال طلحة فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر .

روى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم قال :

لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت فى الله ما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من يوم وليلة مالى ولبلال طعام يأكله أحد إلا شئ يواريه إبط بلال .

روى الترمذى من حديث أبى إمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً .

قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوما فاذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك .

روى ابن ماجة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير . قال : فجلست فاذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر فى جنبه

وإذا بقبضة من الشعير وهو نحو الصاع وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناى .
فقال : ما يبكيك يابن الخطاب ؟ . فقلت : يانبى الله ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزائنه .
قال : يابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا .

* * *

جاء الإسلام فوجد الرق مباحاً فى كل مجتمع ، ووجد الأرقاء يعانون ألوانا من العسف والظلم فلم يكن له بدمن علاج هذه المشكلة، والقضاء على هذه الظاهرة اللاإنسانية ، غير أن الإسلام رأى — شأنه فى كل تشريع — ألا يلغى الرق دفعة واحدة ، بل أخذ يتدرج فى الالغاء ، ويسير فى طريقه فى اتزان ، رحمة بالناس وشفقة ، حتى لا يصدموا مرة واحدة بما لم يألفوا ، فيرفضوا .

وأول ما بدأ به الإسلام أنه لم يجعل للاسترقاق إلا وسيلة واحدة ، هى الأسر فى حرب مشروعة ، بين المسلمين وغيرهم ، ومع ذلك لم يجعل استرقاق الأسرى أمراً لازماً ، بل كان للحاكم أن يمن عليهم ، ويطلق سراحهم ، كما كان له أن يفتديهم بمبلغ من المال .

يقول الله تعالى :

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ، حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)

شجع الاسلام تحرير الأرقاء والعبيد ، ومعاملتهم معاملة طيبة كريمة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه) .

ويقول :

— (اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون . فما أحببتم فأمسكوا ،

وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فان الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم .)

وكثيراً ما أوصى رسول الهدى بالعفو عن الأرقاء ؛ فقد جاء الرسول الكريم ، رجل ، فقال : يارسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟

فصمت الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : أعف عنه فى كل يوم سبعين مرة .

وليس المقصود من السبعين العدد المذكور فحسب ، وإنما هو عدد يقصد به الكثرة فى اللسان العربى .

لقد فتح الاسلام أبواب الحرية على مصراعيها للرقيق . . ومن الأبواب التى فتحها الاسلام للعتق :

١ — شرع الاسلام للرقيق أن يشترى نفسه من سيده بمال يدفعه ولو أقساطاً . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبة . وأصله قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

أمر بمكاتبتهم إن علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم ، وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه . ويدخل فيه الهبة وحط بعض الأقساط عنه ، وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ، وندب غير المالك لذلك أيضاً .

٢ — شرع الاسلام العتق فى كفارة اليمين . . . . فقال تعالى — فى سورة المائدة —

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ

إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

٣ — وشرع الاسلام العتق فى كفارة الظهار . فقال تعالى — فى سورة المجادلة — :

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلُ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

٤ — من عذب مملوكه أو مثل به عتق عليه ، فقد روى الامام أحمدأن « زنباعا أبا روح » وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه . فجاء الغلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعا ، فقال الرسول لزنباع : ما حملك على هذا ؟

قال زنباع : كان من أمره كذا وكذا .

فقال الرسول للغلام : اذهب فأنت حر .

فقال الغلام : يارسول الله ، فمولى من أنا ؟

فقال الرسول : مولى الله ورسوله .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبى بكر ، فقال : وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : نعم ، تجرى النفقة عليك وعلى عيالك ، ثم قال مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته .

فقال عمر : نعم ، أين تريد ؟

قال : مصر ، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضاً يأكل من ثمرها .

٥ — ايذاء العبد بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ولا كفارة لذنبه إلا عتقه ، فقد قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، (من لطم مملوكه أوضربه فكفارته أن يعتقه) .

٦ — التدبير عتق لازم ، وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر منى أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا ، وكذا أنت حر بعد موتى .

٧ — عتق أمهات الأولاد ، وهى أن الجارية التى تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته فلا تدخل فى ملك الورثة ولا يجوز له بيعها فى حياته .

ففى حديث عمر عند الامام مالك (ايما وليدة ولدت فى سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهى حرة ، ولو أن أم الولد تورث لورثها أولادها فكانت ملكاً لهم وهذا مناف لمقاصد الشرع وأصوله وآدابه) .

٨ — شرع الاسلام العتق تكفيراً للقتل الناشئ عن خطأ وما فى حكمه ، قال تعالى فى سورة النساء ،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِه إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

٩ — خصص الاسلام سهماً من مال الزكاة ، أى أى جزءاً من ميزانية الدولة ، فى الانفاق على تحرير الأرقاء ، أى شرائهم وعتقهم ، ومساعدة من يحتاج منهم إلى مساعدة فى سبيل تحريره ، كالمكاتبين ومن إليهم . فقال تعالى فى سورة التوبة :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

١٠ — وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى الطريق التى فيها النجاة والخير ، فقال تعالى — فى سورة البلد —

(فَلاَ أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ)

فبين سبحانه وتعالى ، أن اقتحام هذا الطريق وقطعه فى تحرير رقبة من الرق والأسر .

والأحاديث النبوية كثيرة فى الدعوة إلى العتق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار) .

وعن البراء بن عازب قال :

(جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

— دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار .

فقال :

— أعتق النسمة وفك الرقبة .

قال :

— يارسول الله أوليسا واحداً ؟

قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها)

١١ — جاء فى نصوص الشرع أحكام تنيل العبد حريته . فاذا صار الشخص عبداً لآخر تجمعه واياه روابط النسب والقرابة فانه يعتق عليه حتما . فعن الحسن بن سمرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من ملك ذا رحم محرم فهو حر) .

١٢ — ومن الأبواب التى فتحها الاسلام للعتق الإسهام فى محو الأمية : فعن ابن عباس قال :

كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة .

وقد أوصى الاسلام بحسن معاملة الرقيق ، قال الله تعالى :

(وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) .

والمقصود : بما ملكت أيمانكم فى الآية : الأرقاء ، فقد قرن الله وجوب الاحسان بالأرقاء بوجوب عبادته وعدم الشرك به ووجوب البر بالوالدين .

يقول الدكتور « دهالا » « Dhala » فى كتابه « عالمنا فى طريقه إلى الكمال » .

« إن دين محمد وحده بين أديان العالم هو الذى ظل متحرراً من الحاجز اللونى . . . إنه يفتح ذراعيه على وسعهما ترحيبا بمعتنقيه أيا كانوا : زنوجاً أو منبوذين . وهو يمنح الجميع حقوقهم وميزاتهم دون تحفظ ، ويحتضنهم فى نطاق المجتمع مثلما يحتضنهم فى نطاق العقيدة .

والاسلام يستبعد كل حواجز المولد واللون . ويقبل شتى معتنقيه ضمن جماعة المسلمين على أساس المساواة الاجتماعية التامة . . . »

* * *

الرسول الكريم رحمة مهداة إلى العالم .

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » .

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم فى سبب بعثته .

— « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

والأخلاق لا قيمة لها ولا وزن بدون الاخلاص .

يقول الرسول الكريم :

— (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه) .

— (ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمة فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمة ، فعرفها ؛ قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمة ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار) .

— (إن أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟

قال : الرياء . . .

يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم :

(إِذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِى الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاء ؟)

ومن هديه صلى الله عليه وسلم فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه .

— (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

— (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

— « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم) .

— عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله عز وجل ، يقول يوم القيامة : ياابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ؟ قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدى فلاناً : مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ؟ .

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ .

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، فى حق الجوار :

— « مازال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » .

— « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » .

قيل : من هو يارسول الله ؟

قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه . »

— ويشير عليه السلام إلى أهم حقوق الجار ، فيقول :

« إذا استعانك أعنته ، وإذا استقرضك أقرضته ، وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطل عليه بالبنيان ، فتحجب عنه الريح إلا باذنه ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها . وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فان لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده .. » .

ويوصى الرسول الكريم بالرحم .

— « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه » .

ويضرب صلى الله عليه وسلم مثلا رائعاً لأهمية الرحم ، فيقول :

— « إن الله تعالى خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت :

— هذا مقام العائذ بك من القطيعة .

قال الله :

— نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟

قالت : بلى .

قال : فذلك لك » .

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم ، فى العلم :

— « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له

من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد : كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء : لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

— « من خرج فى طلب العلم : فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

ومن هديه ، عليه السلام ، فى العمل :

جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

— يا رسول الله ، ما ينفى عنى حجة الجهل ؟

قال : العلم .

قال : ما ينفى عنى حجة العلم ؟

قال : العمل .

— « إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده » .

والعامل مسئول عن عمله :

— « والخادم « العامل » راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته » .

والعاطل بالوراثة ، عاص فى الإسلام .

— « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفى الفارغ » .

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم ، فى العدل الاجتماعى :

— « من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان عنده فضل ظهر « ما يركب » فليعد به على من لا ظهر له » . قال راوى الحديث : « فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى الفضل » .

— « إيما أهل عرصة (أى حى أو محلة) أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

— « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

— إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو « فنقص تموينهم » أو قل طعام عيالهم ، جمعوا أزوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم إياها على السواء ».

— ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم فى الجهاد :

— عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : أفضل الجهاد ، كلمة عدل عند سلطان جائر .

وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— « من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

— « من قاتل فى سبيل الله تعالى فوق ناقة لتكون كلمة الله هى العليا وجبت له الجنة » .

— « ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله ، إلا جاء يوم القيامة ، وكلمه يدمى اللون لون الدم والريح ريح المسك » .

— « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة ، حتى يرجع المجاهد » .

أى أن فضل المجاهد يشبهه فضل من لا يفتر عن صيام ، وهو قائم قانت بآيات الله ، فهو فى هذه العبادة المستمرة طول جهاده .

— ورد أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قيل يارسول الله : أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مؤمن يجاهد فى الله بنفسه وماله » .

فقالوا : ثم من ؟ .

قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره

— « إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم » .

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم ، فى أذكار السفر وآدابه :

— « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فاقدره لى ويسره لى وبارك لى فيه . وإن كنت تعلمه شراً لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ، ويسمى حاجته » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ودع أصحابه فى السفر يقول لأحدهم :

— « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم أعمالك » .

وزود رجلا فى سفره بالتقوى وقال :

— « غفر الله لك ذنبك ويسر لك الخير حيثما كنت » .

وكان صلى الله عليه وسلم يعتنق القادم من سفره ويقبله إذا كان من أهله ، وفى الصحيحين : «كان لا يطرق أهله ليلا يدخل عليهن غدوة أو عشية » .

وكان إذا قدم من سفره تلقى بالولدان من أهل بيته . قالت عائشة رضى الله عنها :

لما قدم جعفر وأصحابه تلقاه النبى صلى الله عليه وسلم فقبل ما بين عينيه واعتنقه ، قال الشعبى : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدموا من سفر تعانقوا . وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

ومن هديه ، صلى الله عليه وسلم ، فى الدعاء :

— « الدعاء هو العبادة » .

— « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد فأكثروا الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » .

— « لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ .

قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت فلم أر يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء » .

— « ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة إلا أتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم . فقال رجل من القوم : إذن نكثر ، قال : الله أكثر » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها :

— « عليك بالجوامع الكوامل قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ماسألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذك ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله » .

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول :

— « اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غني أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته ، وأسألك باسمك

الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأسألك باسمك الذى بثثت به أرزاق العباد . وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعته على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فانه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين » .

— « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر » .

— « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

— ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

* * *

لقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى صورتها المشرقة نبراساً للإنسانية كلها ، متى أرادت السعادة فى ثوب من القناعة والرضى والمثل العليا الحقة فى البيت وفى المجتمع .

حياة هدوء وإعتدال وبشرية كاملة أدبها الله فأحسن تأديبها وبعثه هادياً وبشيراً صلوات الله عليه وسلامه ورضوان الله على أصحابه أجمعين .

الفهرس